رسالة إلى كل الناس

إلى البرهان يا أولى الألباب

تأليف: أحمد بن محمد طاحون

الطبعة الأولى * عام ١٤٠٧ من الهجرة
* ١٩٨٦ من الميلاد

* *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أوَ مَن كانَ ميتا فأحييَناه ، وَجعلْنا له نوراً يَمشى به في الناس كَمَنْ مَّثَلُهُ في الظُلماتِ ليسَ بِخارجٍ مّنها كذٰلِكَ زُيِّنَ للكافِرين ماكانوا يَعْمَلون ﴾

الأنعام : ١٢٢

شكر وتقدير

يسعدني أن أتقدَّم بصادق التقدير، وعاطر الثناء، وخالص الشكر للرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ــ الإدارة العامة لشئون المصاحف ومراقبة المطبوعات بالرياض ــ على العناية بمراجعة هذا الكتاب وتدقيقه، والإذن بطبعه بمقتضى الخطاب رقم ١١٢٥ / ٥ المؤرخ في ١٢ من رمضان عام ١٤٠٦ من الهجرة .

ويسرني أن أقدم عاطر الشكر لوزارة الإعلام ــ إدارة الإعلام الداخلي بجدة ــ على العناية بهذا الكتاب، والإذن بطبعه بالخطاب رقم ١٨٨٣ / م / ج المؤرخ في ٨ من شوال عام ١٤٠٦من الهجرة .

وفق الله الجميع لما فيه رضاه وخدمة شرعه المطهَّر، إنه سميع مجيب .

للمؤلف :

- ★ مع القرآن الكريم .
- ★ مرشد الدعاة إلى الله (دراسة وتطبيق) .
- ★ رياض الفالحين ومنار السالكين .
- ★ أذكار ودعوات مباركات .
- ★ زاد الأتقياء من وصايا خاتم الأنبياء .
- ★ يوم الفرقان .
- ★ في فجر الإسلام « عرض قصصي » .
- ★ كيف نربي ناشئتنا .
- ★ أخرج كتاب الشكر لابن أبي الدنيا مع زيادات وتعليقات .

أولاً : تمهيـــد

آياتُ الكون في السماء وفي الأرض تشهد بأن لها خالقا عليما قديراً تسبِّحُ كلُّ المخلوقات بحمده .

وآياتُ الله في النفس البشرية تنطق بأن الخالق العظيم له كمالُ القدرة ، وكمال العظمة ، وأنه واحد لا شريك له ، ولا نِدَّ ، ولا نظير ، ولا ولد ، ولا صاحبة .

العقل الحرّ :

إن الإنسان إذا فكّر وتدبّر وهو مُحرَّر من كل القيود التي تربطه بمذهب أو فكر ماديٍّ ، أو دينٍ قائم على الشرك ، فإنه سيرى في الكون من حوله ، وفي نفسه الآياتِ والبراهينَ التي تدل على وحدانية الخالق المدبّر الحكيم سبحانه وتعالى ، الذي له كل صفات الكمال ، وكل نعوت الجلال ، لا إلٰه إلا هو .

البحث عن الحق :

إن واجب الإنسان أن يبحث عن الدين الحق الذي رضيَهُ الله لعباده لينعموا في دنياهم بالسكينة والقناعة والطمأنينة والمحبة والإخاء والطاعة ، وليعرفوا الحلال والحرام ، وأسباب السعادة ، وأسباب الشقاوة ، وليعدّوا أنفسهم بالإيمان الصحيح ، وبالعمل الصالح ، وبإخلاص العمل لله ، ومحبة الله ورسوله للنجاة في الحياة الأخروية .

إن الدين الذي رضيه الله لعباده هو دين الإسلام الذي جاء به جميعُ الرسل ، وبَعث الله به نبيه محمداً ﷺ رسولا إلى الناس كافة إلى يوم الدين ، ولا نبيَّ بعده .

وجوب الإيمان بخاتم الأنبياء :

إن الله أمر نبيه محمداً ﷺ أن يدعو الناس جميعهم إلى الدخول في دينه ، والانضواء تحت لواءِ الإسلام ، ونَبْذِ كل المعتقدات الباطلة ، وتَرْكِ كل دين أو ملّة كانوا عليها قبل ظهوره ﷺ وأمدّ الله نبـيّه محمداً ﷺ بالمعجزات الدالة على أنه نبي مرسَل وأعظمُ معجزاته صلى الله عليه وسلم القرآنُ الكريم وهو الحجة الباقية حتى تقوم الساعة .

هذا الكتاب :

وكتاب : « إلى البرهان ياأُولي الألباب » يدعو الناس جميعا إلى التحرر من قيود الوراثات ، وعدم الجمود على الباطل ، وإلى وجوب توحيد الله ، وتنزيهه ، والإيمان بالدين الذي رضيه الله لعباده ، وهو دين الإسلام الذي بعث به نبيه محمداً ﷺ فهو خاتم الأنبياء والمرسلين . ورسول الله إلى الناس كافة .

إن أهل العلم قد يرون بعد قراءة هذا الكتاب أن هناك جوانبَ ينبغى أن تُذكر ، وبراهين يجب أن تضاف ، ومن أراد منهم مشكوراً ومثابا من الله عز وجل أن يضيف مايراه نافعا ومتمما للفائدة ، ومعينا على الغاية فليبادر إلى الخير* .

أسأل الله عز وجل أن يتولانا بفضله ، وأن ينير بصائرنا ، وأن يلهمنا الصواب والسداد فيما نقول وفيما نفعل إنه سميع مجيب .

أحمد بن محمد طاحون

جـدة عام ١٤٠٦ من الهجرة ١٩٨٦ من الميلاد

---

* بدأ الكتاب برسالة وماجاء بعد ذلك قد قدمه المؤلف عبر إذاعة القرآن الكريم ونداء الإسلام ، والبرنامج الثاني في المملكة العربية السعودية ـــ بقليل من التصرُّف .

ثانيـــا : القســـــم الأول

« أنا أَوْلَىٰ الناس بابنِ مريمَ في الدنيا والآخرة ، لَيْسَ بَيْنى وبيْنَهُ نبيٌّ ، والأنْبياءُ إخوةٌ أبْناءُ عَلَّاتٍ[1] ، أُمَّهاتُهُم شَتَّىٰ ، ودينُهم وَاحِدٌ » .

حديث شريف

أخرجه البخاري ومسلم

ورواه أبو هريرة

(١) أبناء علَّات : إذا كان الإخوةُ لأب واحدٍ وأمهاتٍ شتَّى .

١- ردٌّ عـلى رســـالة
٢- عيسى بن مـريـم - عـليـه الســـلام - عبدالله ورسـوله
٣- ســبحـــانــه أن يكـون له ولـــد
٤- سؤال .. وإيّاكم والســراب ياأهـلَ الفهــم والفكـر
٥- فـطـرة الله التى فـطـر الـنـاس عـليـهـا
٦- هـيـا نهتف مـن قـلـوبـنـا دومًـا : ســبحان مالكِ الملك
ســبـحـــان الله الـعـظـيـم

ردٌّ على رسالة *

ـ الإلهُ واحد لا شريك له .

ـ وجميع الأنبياء دَعوا إلى التوحيد والتنزيه .

ـ ﴿ ماكانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ﴾ .

مريم : ٢٥

﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَايسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَابَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِه مُشْفِقُونَ ﴾ . الأنبياء : ٢٦ ، ٢٨

* * *

« مَنْ شَهِد أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْه ، وَالْجَنَّةَ حَقٌّ ، وَالنَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَىٰ مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ » . حديث شريف

الرســالة ★

بعد التحية :

وصلت رسالتك ومعها نشرة صغيرة بدون تاريخ .

أراك تبحث عن خلاص روحك ونجاة مهجتك من عذاب الله يوم الدين يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون ، ولا أهلٌ ولا صاحبة ، ولا ينفع الإنسانَ إلا إيمانُه الصحيحُ وعملُه الصالح .

إن ذكاءك هذا أما كان يجب أن يوصلك إلى معرفة أن جميع الرسل بشرٌ اختارهم الله ، وطهرهم من المعاصي ليبلغوا وحْيَهُ إلى الناس وليس لواحد منهم شركةٌ مع الله ولا أمرٌ ولا نهْيٌ ؟ لأن لله الكمالَ المطلقَ ، وكمالُ الله في ذاته وصفاته يقتضي أنه واحدٌ لاشريكَ له ولا يمكن أن يَتَصوَّرَ عاقلٌ يستخدمُ عقلَه استخداما يطلب به الحقَّ لا لِهَوى ولا لعصبية .. لا يمكن أن يتصور أن يكون لله زوجةٌ أو ابنٌ لأن الاحتياج إلى هذا يدل على النقص ، والنقصُ في البشر ، والكمالُ المطلق لله وحده . وَمَنْ له ابنٌ يُشْغَل به وقد يُنازعه الابنُ في ملكوته لأن في الابن صفاتِ الأب ، فإذا كان

★ « مبشر يَسْعَى لتخليص نفسه وتكفير ذنوبه عن طَرِيقِ الإيمان بأن المسيح عيسى عليه السلام ابن الله الذي حمل خطايا البشر حين صُلب وبالإيمان به تُغفَرُ الخطايا والذنوب . هذا هو اعتقاده الذي يكتب به الرسائل إلى الناس ويرسل النشرات إليهم » « الشيخ أحمد بن محمد طاحون يجيب على هذه الفرية (عن مجلة التوعية الإسلامية في الحج) .

لله ابنٌ فالابنُ فيه صفاتُ الإلٰه ، ومعنى هذا أنّ الله محتاجٌ ، مع إيماننا أن الذي خلق السمواتِ والأرضَ ، وخلق مافي هذا الكون الهائل من عوالِمَ معلومةٍ لنا أو مجهولة ، وصاحبَ الملكوتِ في الآخرة لايمكن أن يحتاج إلى شريك أو أن يكون له ابن . وقطعا أنت تعلم أنه قبل خَلْق المسيح خُلق هذا الكون بما فيه من إبداع وجمال وروعة وعظمة ، وإذا كان المسيح في نظرك يحمل عن الناس خطاياهم ، فهل الذين خُلقوا قبل المسيح كلُّهم في النار وفيهم أنبياء وصالحون وقِدِّيسون ، وفيهم بَرَرة ، وفيهم عابدون ، وفيهم زاهدون ؟ وإذا كان واحد يحمل خطايا الجميع فلماذا يبقى الشرفُ والأمانةُ والعِفّةُ والزهدُ والعبادةُ والأمانُ والزواجُ وتكوينُ الأسرة ؟ إن كل ذلك يصبح لا قيمة له في نظر الفرد إذا قلتم له : إن واحداً يحمل خطايا الجميع فتُغفر لهم بمجرد الاعتقاد فيه كما أنت تعتقد فيه الآن .

إنني أومن إيمانا جازما بأن عيسى عبدُ الله ونبيه ورسولُه ورحمةٌ من الله بما كُلِّفَ بتبليغه من وحْي الله كما أومن أنه آيةٌ على قدرة الله عزّ وَجَلَّ تؤكِّد أن النواميس خاضعةٌ لأمره سبحانه وتعالى يقول للشيْء كن فيكون مع أن الآية في عيسى عليه السلام لا تصل إلى مستوى الآية في آدم عليه السلام ، فعيسى حملت به امرأةٌ بأمر الله وبإرادة الله لا بما لا يتصوره أيُّ عاقل وهو أن يكون هناك لقاء بين الرب وبين امرأة من المخلوقات كما يلتقي الرجل بزوجته لأن ذلك نقص فظيع لا يمكن تصوره في حق الله ، ولا يعتقده إلا مَنْ لا يريد خلاصَ مُهجته من عذاب مقيم ودائم .

فآدمُ (وأعتقد أنك تؤمن بهذا) خُلق من تراب ، وحواءُ خُلقت من غير أم ، فلماذا يكون عيسى وحده هو شريكُ الربِّ في اعتقادِ مَنْ يعتقد ذلك مع أن الآية في آدم أوضحُ وأقوى من الآية في عيسى ، والآية في حواءَ

تَعْدِل الآية في عيسى ؟

إن إيماني بالمسيح عليه السلام وجميع الرسل والأنبياء وخاتمهم محمد بن عبدالله صلَّى الله وسلّم عليهم جميعا إيمانٌ لايتزعزع لأنهم جميعا جاءُوا لخلاص الأرواح وإنقاذِ المهَج وكلُّهم أكدوا للناس المبادئ الإلهيةَ الأساسيةَ التي لا يتمُّ الخلاصُ إلا بها وبتحقيقها في الفرد وهي :

١ ـــ ﴿ إنَّ الله رَبِّي وَرَبُّكُم فَاعْبُدُوه هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[١] : عيسى وإخوانُه جميعا كلٌّ واحدٍ منهم قال هذا فأساس دعوة عيسى وأساس دعوة جميع الأنبياء والرسل (وإِلَٰهُكُمْ إلٰهٌ وَاحِدٌ) فتوحيد الألوهية هو أساسُ كلِّ دِين وأصلُ كل عقيدة تخلِّصُ صاحبَها يومَ الدين ، والكتب السماوية التي جاء بها الأنبياءُ تُقدم الدليلَ على هذه الحقيقة بعد الدليل ، وكتابُ الكونِ من حولنا كلُّ آية فيه تنطق بهذه الحقيقةِ ، وتدل عليها لأنه لو كان الإلٰه الخالقُ مُحتاجاً إلى الابن أو الزوجةِ أو الشريكِ لاضطرب نظامُ هذا الكونِ ولفسدت السمواتُ والأرضُ لأن العاجزَ المحتاجَ إلى غيره لا يمكن أن يقومَ بتدبير هذا الكون العظيم وحفْظِه على هذا النحو الرائع على مدى عشرات الألوف من السنين وإلى أن يرثَ الله الأرضَ وَمَنْ عَليها .

٢ ـــ إخلاص العبادة لله وحده : بعد التوحيد النقي الخالص لابد للخلاص أن يقدِّم العبدُ عبادتَه مبتغياً بها وجه الله وحده لا شريك له في مُلكه ولا معين .

٣ ـــ طاعة الله : أي الخضوعُ لمقتضى أمره ونهْيِه والأخْذُ عن الرسل فيما بلَّغوه عن الله ومن ذلك تبليغُ جميع الأنبياء والرسلِ أن الله سيبعثُ في آخر

---

(١) آل عمران : ٥١ .

الزمانِ نبياً عربياً وعلى جميع الناس أن يتَّبعوه وأن يؤمنوا بما جاء به وأن يجاهدوا لنشرِ دينِه وأن خلاصَهُم ونجاتَهُم لا تتم إلا بذلك وأن مَنْ بَقِيَ على دينه أيًّا كان هذا الدينُ بعد ظهور هذا النبي يكون من أهل الجحيم ، ويُعرِّضون مُهَجَهم لعذاب دائم .

٤ ــ **المسؤولية الفردية** : فكلُّ إنسان مسؤول عن عمله ولو كان أحدٌ ينفع أحداً لخلاصِ مُهجته يومَ الدِّين لكان الأولى بذلك أن ينفعَ نبيُّ الله ورسولُه نوحٌ عليه السلام ابنَهُ أو زوجتَه التي عاشرته وقامت بشئون بيته ، وكان أولى بذلك أيضاً آدم عليه السلام أن ينقذ ابنه الذي حسد أخاه فاستحق غضب الله ، وكذلك النبي محمد ﷺ الذي أراد لعمه أبي طالب الهداية والنجاة ولكنه لم يستجب للإيمان فقال الله لنبيه ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[1] ومات أبو طالب كافراً وسيخلد في النار ، وهناك أمثلة كثيرة لا تخفى على مثلك إذا طَلَبَ الحقَّ وأَمْعَنَ النظر .

ولو ثبت الاعتقاد بأن فرداً يحمل أوزار الآخرين ويُغني عنهم يوم الدين لفسدت الأرضُ بالمعاصي وانتهاك الحرمات إذ هذا من الاعتقادات الباطلة التي يُراد بها أن تنتشر الرذيلة وأن يُستغل السذَّج لسيطرة الكهنة بإذلال عوامِّ الناسِ لغير الله عز وجل خالقِهم . واقرأْ وتمعّنْ أقوالَ الرب سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[2] . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[3] . ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[4] . وقوله لخاتم أنبيائه ورسلِه المبعوثِ رحمةً للعالمين كلِّهم عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَيْسَ لَكَ

---

(١) القصص : ٥٦ . (٢) النجم : ٣٩ .
(٣) المدثر : ٣٨ . (٤) فاطر : ١٨ .

مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[1]. ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾[2]. ﴿ وما أنت عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾[3].

٥ ــ عملُ الإنسان الصالح هو شفيعه : والشفاعةُ يوم القيامة لا تكون إلا بإذنه ، سبحانه وتعالى وحدَه فلا يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه ولا يشفعون إلَّا لِمَنْ ارتضى سبحانه وتعالى .

وفي الدنيا الله عز وجل لا يحتاج إلى شفعاءَ بينه وبين عبادِه لأنه قريبٌ منهم يسمع دعاءهم وهو معهم أينما كانوا فسلطانُه مطلق وقدرته لا حدود لها ، ولو احتاج في رحمته بعباده إلى وسطاءَ وشفعاءَ يشاركونه في الأمر والنهي لكان ذلك نقصاً في ذات الإلٰه جل وعلا وهو سبحانه وتعالى الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ الذي له كلّ صفات الكمال وكلّ نعوت الجمال والجلال . ولذا كان من الكفر بالله أن نتقرب لغير الله بدعاءٍ واستغاثةٍ أو أيِّ عبادةٍ ظنا منا أن المتقرَّبَ إليه وسيطٌ بيننا وبين الإلٰه ، وهذا والعياذ بالله كفرٌ صريح ذلك أن الله قريب يدعوه عبادُه فيستجيبُ لهم ، ولا يقبل من العباد إلا ماكان خالصاً له ، ولا يَرضى عاقلٌ يطلبُ الحقَّ أن يتصور الإلٰه العظيم القادر على كل شيْء لا تصلُ إليه صرخات عباده واستغاثتهم به إلا بوسطاء وكأنه سبحانه ــ ومعاذ الله ــ حاكم من البشر محدود القدرة يحتاج إلى من يُبين له الأمور ويشرح له (سبحان الله وتعالى أن يكون له شريك أو شفيع بينه وبين عباده) . أما الرسل فما هم إلّا مبلّغون ماينزل به الوحي ، ورسالتُهم نفسُها رحمة ، والعملُ بها رحمةٌ ، ولا يتم الإيمان بعد ظهور النبي محمدٍ ﷺ إلا بالإيمان به وبرسالته وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين .

---

(١) آل عمران : ١٢٨ . (٢) الغاشية : ٢٢ . (٣) الأنعام : ١٠٧ .

اقرأ صاحبي هذا الكلام جيدا وتمعّنْ فيه واعرضْه على عقلٍ حرٍّ غير مقيد بتقليد مَنْ سبقوه ولا بعصبية ولا بعنصرية وأَطلِقْ فكرَكَ في الكون من حولك ، اِقرأ آياتِ الله الباهراتِ بمنظار العقل السليم والبصيرة التي تبحث عن الحق فستنطق .

وفي كل شيْءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنّه الواحدُ

فطوبى لمن وعى وبَحَثَ عن الحق وآمن به ليخلّص مُهْجَته يوم الدين ويُهيِّىء نفسَه للسعادة الأخروية التي هي السعادة الحقيقية الأبدية ، وفي الدنيا تطمئن نفسه ويرتاح ضميره لأنه على الحق الثابت والاعتقاد الصحيح فيُنادى عند موته وعند مبعثه : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِي فِي عِبَادِي * وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴾[1] .

أسأل الله من قلبي لكلِّ إنسان في كل مكان الهداية إلى الدين الصحيح وهو دينُ الإسلام الذي جاء به خاتمُ الأنبياء والمرسلين محمدُ بن عبد الله ﷺ .

ثبّتنا الله على الدين الصحيح ،

* * *

(١) الفجر : ٢٧ ، ٣٠ .

عيسى بن مريم - عليه السلام - عبدالله ورسوله

آية على قدرة الله ووحدانيته :

عيسى ابنُ مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عبدٌ صالح أنعم عليه ربُّه وطهَّره واصطفاه ، وجعله آية على قدرته سبحانه وتعالى الذي نوّع في خلق البشر ، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقيةَ الذرية من ذكر وأنثى ، وهذه أدلة على كمال قدرته سبحانه وتعالى وعلى عظيم سلطانه وهو القائل : ﴿ إنما قولُنا لشيْءٍ إذا أردناه أن نقولَ لَهُ كُن فَيكون ﴾[1] فلا إلٰه غيره ، ولا رب سواه .

اصطفاه ربّه وكرّمه :

فعيسى آيةٌ وبرهانٌ من البراهين الدالة على وجود الله وعلى وحدانيته وقدرتِه ، كَرّمه ربُّه فجعله نبيا من أنبيائه لتكونَ رسالتُه رحمة ، إذ يدعو إلى عبادة الله وحده ، ويُبين ما أحل الله وحرّم لمَن أُرسل إليهم ، ويُصدِّقُ بجميع الأنبياء الذين سبقوه ، ويؤمن بالكتب السماويـةِ التي أُنزلت على الرسل مِن قبله كالتوراة التي أُنزلت على موسى عليه السلام ، ويُبشِّر — مثل

---

(١) النحل : ٤٠ .

غيره من الأنبياء ــ برسولٍ يأتي في آخر الزمانِ من بعد عيسى اسمُه أحمدُ ويوجب على أَتْباعه الإِيمانَ به إن هم أَدركُوه ﷺ .

قال تعالى من سورة الصفّ : ﴿ وإذ قال عيسى ابنُ مريمَ يابَنِي إسرائيلَ إني رسولُ الله إليكم مُصدِّقا لما بينَ يدىّ من التوراةِ ومبشِّرا برسولٍ يأتي مِن بعدى اسمُه أحمدُ فلمّا جاءَهُم بالبيِّنات قالوا هذا سحرٌ مّبين ﴾(١) .

رسالته رحمة وبركة :

وعيسى عليه السلام تكلَّم في المهْد ، وكان أول ماتكلَّم به أن نزَّه الله عز وجل ، وبرَّأ ربَّه سبحانه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لله : ﴿ قال إني عبد الله آتانِيَ الكتابَ وجَعَلنِي نبيّا ﴾(٢) أي قضى الله أن يؤتينى الكتاب فيما قضى .

وهو بذلك سيكون مباركا أينما كان ، إذ سيكون معلِّما للخير ، وآمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر ، وهاديا ورحمة ومأأعظمها من بركة : ﴿ وجعلنى مباركاً أينما كُنتُ ﴾(٣) .

العبد الصالح البار :

وكان عيسى مطيعا لربه عابدا قانتا زاهدا ، وكان بارًّا بأُمه ، ولم يكن جبارا مستكبرا ، بفضل الله ورحمته به .

معجزات أيده الله بها بما يناسب ثقافة عصره :

وقد أيد الله عز وجل رسوله عيسى عليه السلام بالخوارق والمعجزات

---

(١) الصف : ٦ .
(٢) مريم : ٣٠ .
(٣) مريم : ٣١ .

الدالة على صِدق ماادّعاه من أنه نبيٌّ أرسله الله إلى قومه ، ليدعوهم إلى الوحدانية ويرشدَهم إلى مافيه خيرُهم وصلاحُ أمورهم ، فكان عيسى عليه السلام يبرئُ الأكمه والأبرصَ بإذن الله ، ويُحيي الموتى بإذن الله ، ويصور لهم من الطين شكلَ طيرٍ ثم ينفخ فيه فيطير أمام الناس بإذن الله ، وكان عليه السلام يُخبر الناس بما أكلوا في بيوتهم ، وبما ادّخروه فيها للغد : ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيلَ أنّي قد جئتكم بآيةٍ من ربّكم ، أنّي أخلقُ لكم مّن الطينِ كهيئةِ الطيرِ فأنفخ فيه فيكونُ طيرا بإذن الله ، وأبرِئُ الأكْمَهَ والأبرصَ وأُحْيي الموْتىٰ بإذن الله ، وأُنبِّئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآيةً لّكُم إن كنتم مُّؤمنين ﴾(١) ويقول تعالى في سورة المائدة : ﴿ إذ قال الله ياعيسىٰ ابنَ مريمَ اذكُرْ نعمَتى عليك وعلى والدتك إذ أيّدتكَ بروح القُدسِ تكلِّمُ الناسَ في المهْد وكهْلا ، وإذ علمتُك الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ ، وإذ تخلُق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخُ فيها فتكونُ طيراً بإذنى ، وتُبرِئُ الأكْمه والأبرصَ بإذنى ، وإذ تُخرج الموتىٰ بإذنى ، وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتَهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلّا سِحرٌ مُّبين ﴾(٢) .

وهذه المعجزات تناسب أهل الزمان الذي بُعث فيه عيسى عليه السلام ، إذ كثُر في زمنه الأطباءُ وأصحابُ علم الطبيعة ، فأمدّ الله عز وجل عبده ورسوله عيسى بمعجزات لا يقوى عليها أحد إلا أن يكون مؤيَّدا من ربه لتقوم الحجةُ على الناس .

وقد أجرى الله عز وجل على يَدَيْ نبيه ورسولِه موسى عليه السلام من الخوارق والمعجزات ما لا سبيلَ للبشر إليها لأنها بقدرة الله وحده ، وبأمره

---

(١) آل عمران : ٤٩ . (٢) المائدة : ١١٠ .

سبحانه كقلب العصا على يد نبيه موسى عليه السلام ثعبانا ، وكفلْق البحر ، واليد البيضاء ، والمنّ والسلوى ، وانبجاس اثنتي عشرة عينَ ماءٍ من الحجر ... وقد فشا السحرُ في زمان موسى وعظّم الناسُ السحرة ، فبهرت المعجزةُ التي أيَّدَ الله بها نبيه موسى الأبصار ، وحيرتهم ، فلما رأى السحرةُ ذلك عرفوا أنها من عند العظيم الجبار ، فانقادوا للإسلام ، وآمنوا برب هارونَ وموسى عليهما السلام .

معجزاته بأمر الله وحده وبقدرته سبحانه مثل معجزات غيره من الأنبياء :

إن المعجزات التي جاء بها عيسى عليه السلام هي بأمر الله وقدرته وحده ، وعيسى نفسه عليه السلام لاحولَ له ولا قوة ، إنما هو مبلِّغ عن ربه ، وعبدٌ مطيع لمولاه سبحانه وتعالى ، وكم من المعجزات التي أيد الله بها عبده ورسوله محمداً ﷺ ، وأعظمُها وأبقاها القرآنُ الكريم ، إذ هو معجزة باقية خالدة تتحدى العقل البشري إلى أن تقوم الساعة ، أما معجزات عيسى وسائرِ الأنبياء السابقين فحسية يتحدى بها الرسولُ قومَه في زمانه ، ولما كانت رسالةُ النبي محمد ﷺ عامةً لكل الناس ، وخالدة باقية إلى آخر الزمان ناسبَ أن تكون معجزتُه باقيةً تتحدى العقول إلى آخر الزمان .

آمنّا بعيسى عبد الله ورسوله :

ونحن المسلمين نؤمن بعيسى عبداً لله ، ونبياً مرسلا ، أكرمه ربه ، واصطفاه وأوحى إليه ، وعصمه ، ورفعه إليه ، وعيسى هو ابن الصدِّيقة المطهرة النقية ، كان يأكل مثلَ أمه وسائر البشر الطعام ، ويشرب الماء ، ويتبول ، ويتغوط ، ويأخذ بالأسباب ، ويجتهدُ في طاعة الله ، وفي الدعوة إلى دين الله ، ويبين للناس حقيقة الدين ومعنى العبودية لله وحده ، وقد رآه الناس في زمنه بشراً سويّا يمشي في الأسواق ، وينام ، ويستيقظ ، ويتحدث

إلى الناس فيما ينفعهم ، وهذه أمور ثابتة يقينية لا يجادل فيها إنسان ولا يختلف بشأنها اثنان ، ثم إنه عليه السلام سيموت ، ويُبعث كما يبعث الخلائق .

معنى محبة عيسى عليه السلام :

فمن أحبّ عيسى عليه السلام أطاعه فيما بلّغ عن ربه ، وآمن بالنبي محمد ﷺ واتّبع دينه ، لأن عيسى بلّغ الناس ذلك ، وأمر أتباعه أن يؤمنوا بالنبي محمد ﷺ إذا هم أدركوه .

الغلوّ يناقض النقل ويُلغي العقل السليم :

ومَن قال في عيسى عليه السلام إنه فوق إنسان فقد تجاوز الحد ، وخالف النقل وناقض العقل ، إذ رَفْعُ بشرٍ مهما كانت منزلتُه عند ربه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها ، كأن ينقلوه من حيّز النبوة إلى أن يجعلوه إلٰها من دون الله ، أو ابناً لله أو شريكا كلُّ ذلك يُعدّ خروجا عن الدّين الحقّ وبُعداً عن اتباعِ النبي ، وكفراً بما جاء به ، وفساداً عظيماً في الاعتقاد لا تنفع معه صلاةٌ ولا صيام ولا صدقة . وتكون المحبة محبةً كاذبة ، إذ يظهر أثر محبة الله ومحبةِ الرسول في اتباع الرسول ، وفي تنزيه الله عز وجل عن الولد والصاحبة والشريكِ والندّ والشبيه والمثل ، قال الله عز وجل : ﴿ يا أهلَ الكتاب لا تَغلُوا في دينِكم ولا تقولوا على الله إلا الحقَّ ، إنما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ وروحٌ مّنه ، فآمِنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهُوا خيراً لكم ، إنما الله إلٰه واحد ، سبحانه أن يكونَ له ولدٌ ، له مافي السمواتِ وما في الأرض ، وكفىٰ بالله وكيلا * لن يستنكِفَ المسيحُ أن يكونَ عبداً لله ولا الملائكةُ المقرَّبون ، وَمَن يستنكِفْ

عن عبادتِه ويستكبرْ فسيحشرُهم إليه جميعاً ﴾ .[1]

إن الذي يُحب عيسى عليه السلام يجب أن يُحب سائرَ الأنبياء والمرسلين ، ويؤمن بأن عيسى عبدُ الله ورسولُه وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ، أي خلقه الله بكلمته التى أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل ، فكان عيسى بإذن الله الذى نشأ عن الكلمة التى قال له بها ربه وخالقُه ، كُن ، فكَان ، ولنتدبّر قولَ الله تعالى : ﴿ ماالمسيحُ ابنُ مريمَ إلا رسولٌ قد خَلت مِن قبلِه الرسلُ وأُمُّه صِدِّيقةٌ ، كانا يأكُلان الطعامَ ، انظر كيف نبيِّن لهم الآياتِ ثم انظر أنَّى يُؤفكُون * قل أتعبدون من دون الله مالا يَملِكُ لكم ضَرّاً ولا نفعاً ، والله هو السميعُ العليم * قلْ ياأهلَ الكتابِ لا تغلُوا في دينِكم غيرَ الحقِّ ولا تتَّبعوا أهواءَ قومٍ قد ضلُّوا من قبلُ وأَضلُّوا كثيرا وضَلُّوا عن سواءِ السبيل ﴾[2] .

والعاقل هو الذي ينظر في الأدلة والبراهين ولا يجمد على ضلال .

ولنتدبَّرْ :

﴿ وإذْ قالَ اللَّهُ يٰعِيسَىٰ ابنَ مريمَ أأنتَ قلتَ للناسِ اتَّخِذُونى وأُمِّىَ إلٰهينِ من دُونِ الله ، قال سُبحانَكَ ، مايكونُ لى أنْ أَقولَ مالَيْسَ لى بحقٍّ ، إنْ كنتُ قلتُهُ فَقَدْ عَلِمتَهُ تعلمُ مافى نفسى ولا أعلمُ مافى نفسِكَ إنّك أنت علّامُ الغُيوبِ * ماقُلتُ لهُم إلّا ماأمَرْتَنى بِه أنِ اعبُدوا الله رَبِّى ورَبَّكم وكنتُ عليهم شهِيداً مّادُمْتُ فِيهِمْ فلما توفّيْتَني كُنتَ أنتَ الرقيبَ عَلَيهِمْ وأنتَ عَلىٰ كلِّ شَىْء شَهِيدٍ ﴾ [3].

إن عيسى ينزِّه ربَّه سبحانه ويُقرّ له سبحانه بالعبودية ، ويبيِّن أنه رسولٌ

---

(١) النساء : ١٧١ ، ١٧٢ .
(٢) المائدة : ٧٥ : ٧٧ .
(٣) المائدة : ١١٦ ، ١١٧ .

أمره ربُّه أن يدعوَ الناسَ إلى التوحيد النقيِّ الخالص وأن يقول لهم : ﴿ اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ .

إن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله دعا إلى التوحيد والتنزيه ، وإلى الإيمان بالنبي العربي محمدِ بنِ عبد الله واتِّباعه عند ظهوره ، كما دعا إلى ذلك سائرُ المرسلين .

إن صاحب البصيرة من أهل الفهم والعقل ينبغى له دوما أن يتدبر وينظر فى الأدلة ، ويتأمل الكونَ المحيط ويهتف بلسانه من قلبه : سبحان اللّهِ العظيمِ .. سبحانه أن يكون له ولد أو شريك أو صاحبة .

* * *

سبحانه أن يكون له ولد

لايمكن أن يكونَ المرءُ صحيح الإيمان إلا إذا أيقن أن الله عز وجل واحد لا شريك له ، وأنه سبحانه مُنَزَّهٌ عن صفات المخلوقين فلا زوجَ له ولا ولد ، ولا معين ، وأنه سبحانه غنيٌّ عن عباده والعبادُ كلهم في احتياج دائمٍ إليه ، وأنه سبحانه أرسل الرسل وأنزل الكتب ، وأن الملائكة عبادُ الله يُطيعون ربهم ويفعلون مايؤمرون به .

وإن كثيرا من الناس آمنوا بالله ولكنهم مع ذلك اعتقدوا أن لله ابنا أو بنات ، وهؤلاء يُعَدُّون كفاراً مَثَلُهم في ذلك مَثَلُ مَن يؤمن بالله وبوجوده وبقدرته ولكنه يُقدِّم القرابين للأصنام ، أو يعبد الشمس أو القمر ، أو يستغيث بالأموات أو يطلب منهم تفريج كروبه ، وإزالة شدائده ، وشفاء مريضه .

فأهلُ الكتاب الذين جعلوا عيسى ابناً لله ، والذين جعلوا عُزيراً ابنا لله ، هم والمشركون مصيرُهم واحدٌ ، وهو الخلود في نار جهنَّمَ إذ لم يُوحِّدوا الله ولم ينزِّهوه سبحانه وتعالى ، ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ إنّ الذينَ كَفَروا مِن أهلِ الكِتَابِ والمشْركينَ في نَارِ جهنَّمَ خَالِدين فِيها أولئك هُم شَرُّ البرِيَّة ﴾[1] والذين كفروا من أهل الكتاب هم اليهود والنصارى الذين أحدثوا في دينهم

(١) البيِّنة : ٦ .

ماصاروا به كفارا ، أمّا اليهود فقولهم عُزَيرُ ابن الله وتشبيههُم اللّهَ بخلْقه ، وأمّا النصارى فقولُهم المسيحُ ابنُ الله وثالثُ ثلاثة وغيرُ ذلك ، وأمّا المشركون فهم مَنْ يعبُدون الأوْثانَ وغيرَها اعتقاداً منهم أنَّها تقربُهم إلى الله زلفىٰ وهؤلاء جميعا وغيرُهم من أصناف الملحدين والضالين جاءتهم الحجةُ الواضحة ، والبينةُ القاطعةُ لتخلِّصَهم من الضلال والشرك وماهم عليه من جهل وعمى ، جاءهم النبي ﷺ بالقرآن الكريم ، ودعاهم إلى الإيمان ، وبيّن لهم الصراط المستقيم والدينَ القيم الذى لاعِوَجَ فيه ، فمَن آمن فقد هُدى إلى الحق والرشاد ، ومَن عانَد وكابَر وبَقِي متمسكا بما كان عليه الآباءُ والأجداد من الضلال وفساد الاعتقاد فقد ظلَّ في كفره وحَيرته وذله لمخلوقٍ لايملك لنفسه ضُرا ولا نفعا .

وهذه القضية ، عُنى بها القرآن الكريم غاية العناية ، وبين لذوى العقول والأفهام خطأً من يعتقد هذه المعتقدات الباطلة ، التى لاتقوم على أساس ولا تستندُ إلى دليل ، اللهُمَّ إلا الجمود على ماوَرِثه جيلٌ عن جيل ، وولدٌ عن والدٍ ، وهذا عيب في الفهم ، ونقصٌ في العقل ، وتبلُّد في الشعور إذ الإنسانُ يجب عليه أن ينظر بعقله في الأدلة ، ويتدبر في البراهين والآيات ، ولنتدبر قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابنُ الله وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله ذلك قولُهم بأفْواهِهم ، يُضَاهئُون قولَ الذين كفروا من قبلُ قَاتلهُم الله أنَّىٰ يُؤفَكُون ﴾[1] .

ولنتأملْ جيداً قولَه سبحانه ﴿ ذَلِكَ قولُهم بأفواههم ﴾ أى أنه قولٌ ساذج ليس فيه بيانٌ ولا بُرهان ، وإنما هو قولٌ بالفم لا معنى تحتَه صحيحٌ ، فألسنتُهم تقول ، والعقلُ والقلبُ خالٍ كلٌّ منهما من البُرهان

---

(١) التوبة : ٣٠ .

واليقين الجازمِ ، إذ لاصحةَ لهذه الدعوى فهي كذبٌ وقولٌ لسانيٌّ فقط ، يقول أهل المعاني : إن الله لم يذكر قولا مقرونا بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولا زُورا ، كقوله تعالى : ﴿ يقُولُون بأَفْواهِهِم مَّا ليْسَ في قُلوبِهم ﴾[1] وقوله ﴿ يقولون بألسنتهم مَّا ليْس في قُلوبهم ﴾[2] ، وكقوله سبحانه في شأن مَن قالوا إن الله اتخذ ولدا : ﴿ وَيُنذِرَ الّذينَ قالُوا اتَّخذ الله ولداً * مَّالهُم به مِن علْمٍ ولا لآبائِهم كَبُرَتْ كلمةً تَخْرجُ من أفواهِهم إن يقولونَ إلّا كَذِبا ﴾[3] .

الأخذ بالدليل والبرهان :

إن العاقل الرشيد حين يسمع ، وحين يقرأُ ينبغي له أن يأخذَ بالأقوال الصحيحةِ التي تعضِدُها الأدلةُ ، ويقوم عليها البرهانُ ، وإن من محاسنِ الإسلام أنه ساعد العقلَ الإنساني ، وأمدّه بالأدلة القاطعةِ والبراهينِ الساطعة التي تَنطِق بأن الإلٰهَ واحدٌ فردٌ صمد ، وأنه سبحانه لا شريكَ له ولا ولدَ ولا نظير ، وأن الجميعَ عبيدُه خاضعٌ لحكمه ، واقعٌ تحت سُلطانه وقهرِه ، ولنتدبّر معاً تدبُّر المتأمِّل طالبِ الحق الذي يَسعىٰ لخلاص نفسِه : ﴿ وَقَالُوا اتَّخذ الله ولداً سُبحانه بَلْ لهُ مافي السمٰواتِ والأرضِ كُلٌّ لّهُ قَانِتون ﴾[4] فقد أكذَبَ الله عز وجل جميعَ من ادَّعَىٰ أن لله ولداً ، فقال : « سبحانه » أى تعالى الله وتقدس وتنزَّه عن ذلك عُلوّاً كبيرا ، ثم بين سبحانه أنه مالكُ مافي السموات والأرض ، وأنه المتصرفُ فيهم ، وهو خالقُهم ورازقُهم ومسخِّرُهم ومدبر أمورهم ومصرِّفُهم كما يشاء ، والجميعُ عبيدٌ له وملكٌ له فكيف يكون له ولدٌ منهم ، والولدُ إنما يكون متولِّدا من

---

(١) آل عمران : ١٦٧ . (٢) الفتح : ١١ .
(٣) الكهف : ٤ ، ٥ . (٤) البقرة : ١١٦ .

شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظيرٌ ، ولا مشاركٌ في عظمتِه وكبريائِه ولا صاحبةَ له ، فكيف يكون له ولد ؟

ولنسمع الله عز وجل يقول لعباده : ﴿ وَجَعلُوا لله شُركاءَ الجِنَّ وخَلَقَهُم ، وخَرقُوا لَهُ بَنِينَ وبناتٍ بغَيرِ عِلْم ، سُبحانه وتَعالى عَمَّا يَصِفون * بديعُ السمٰواتِ والأرضِ أَنَّىٰ يكونُ له ولدٌ ولمْ تَكُن لَّه صاحِبةٌ وخَلَقَ كُلَّ شيْءٍ وَهُوَ بِكلِّ شيءٍ عَلِيم ﴾[١] .

إن الله عزَّ وجلَّ يدعو عبادَهُ إلى أن يُفرِدُوه بالعبادة وحدَه لا شريكَ له فلا أصنامَ ولا أوثانَ ولا شمسَ ولا قمرَ ولا غيرَ ذلك من المخلوقات التي عُبدتْ عن طاعة الجن وأمْرِهم لِعُبَّادِها بذلك ، وكيف يَعبدُ العاقلُ الجانَّ وهي مخلوقةٌ ، وكما ضلّ عَبدةُ الأصنامِ فقد ضلَّ أيضا كل من اختلقَ وافترىٰ الكذِبَ بقوله إن لله ولدا ، فافتعلوا له سبحانه البَنِين والبناتِ بغير علمٍ بحقيقةِ مايَقُولون ولكن جهلاً بعظمةِ الله وبما يَليق بالله من صفاتِ الكمالِ ونعوتِ الجلال ، فالإلٰهُ القادرُ العظيم المُحْيي المُميتُ لا ينبغي لعاقلٍ صحيح العقلِ سليمِ التفكير حَسَنِ التدبُّر أن يقولَ إنَّ له ولداً أو صاحبةً ، ولا أن يجعلَ له شريكاً ، وكيف يكونُ لله ولدٌ وهو مُبْدعُ السموٰاتِ والأرضِ وخالِقُهما ومُنشِئُهما على غير مثالٍ سبقَ وهو خالقُ كلِّ شيْءٍ وعليمٌ بما تَنطوِى عليه صدورُ العباد ، وبأحوالِهم ، وهو الواحدُ المهيمنُ الجَبَّارُ ، الذي يجب أن نُقِرَّ له بالوحدانية ، وأن نُخلِصَ له العبادةَ ، وأن نقولَ مِن قلوبنا وضمائرنا ومشاعرِنا دوماً « لاإلٰهَ إلا الله » : ﴿ ذٰلكم اللّهُ ربُّكُم لا إلٰهَ هُو خالقُ كلِّ شيْءٍ فاعْبدوه وهُو على كلِّ شيْءٍ وَكيل ﴾[٢] .

جاء في الترمذىّ عن أبي هريرة أنَّ النبيَّ ﷺ قال : قال الله تعالى :

---

(١) الأنعام : ١٠٠ ، ١٠١ . (٢) الأنعام : ١٠٢ .

﴿ كَذَّبني ابنُ آدمَ ولم ينْبغِ لهُ أن يكذبَنِي ، وشتَمني ولم يَنْبغ له أن يَشتمَنِي ، أمّا تكذيبُه إيَّاىَ ، فقولُه : « لن يُعيدَني كما بدأني ، وليس أولُ الخلق بأهونَ عَليَّ من إعادتِه ، وأمّا شَتْمُه إيّاى فقولُه : اتَّخَذ الله ولدا ، وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يُولد ، ولم يكن له كُفوا أحد » .

هذا لفظ الترمذي وخرجه البخاري .

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لا أحدَ أصبرُ على أذىً سَمعه من الله ، إنهم يَجعلون له وَلَداً ، وهو يَرزقُهم ويُعافيهم » .

الحدوث والتوالد صفة المخلوقين :

إن التوالد محالٌ في جانب الله تعالى ، لأن مايُعهد في حدوث بعضِ الأشياء وتولّدِها من بعض فهو لايَعدو طريقين ، إمّا الاستعدادُ القَهريُّ الذي لامجالَ للاختيارِ فيه كحدوث الحرارةِ من النور ، وتولُّدِ العفونةِ من الماء يَتَّحِد بغيره ، وإمَّا السعْي الاختياريّ كتولّد الناس بالازدواج الذي يتّجهون إليه مع اختياره والقصد إليه ، وإذا كان كلٌّ من الأمرين محالاً على الله عز وجل ، وكان سبحانه وتعالى هو المبدعُ لجميع الكائنات ، وهي بأسرها مِلكُه ، ومسخرةٌ لإرادته ، فلا معنى لإضافة الولد إليه : ﴿ سُبحان ربِّك ربِّ العِزّة عَمَّا يَصفون ﴾[1] .

تعدّد الآلهة مُحال :

إن الله عز وجل أعطانا العقلَ ومنحنا القدرةَ على التفكير والتمييز لننتفع بالأدلة ، ولا نَقْنع بما يقوله البشرُ من عند أنفسهم ممّا لا يَقبله العقلُ السليم في حق الله تعالى ، هذا لأن ادَّعاء الألوهية لغير الله عز وجل ادعاء باطل ،

---

(١) الصافات : ١٨٠ .

والعقلُ السليمُ لايقبلُه ، إذ لو تعددت الآلهةُ ، لتعدّد التصرفُ في الكون ، ولاضطربت أحوالُه ، ولخربت السمٰواتُ والأرضُ ، وهلك مَن فيهما بوقوع التنازعِ بالاختلافِ الواقعِ بين الشركاءِ ، إذن فالوهْمُ الواقعُ عند بعضِ طوائفِ البشرِ بأن هناك إلٰهاً يُعبد من دون الله أو أن لله ابنا وفي الابن صفات الإلٰه هذا الوهمُ محْضُ كذبٍ وافتراءٍ وضلالٍ مبين ، ولنتدبر الدليلَ الذى يُنير للعقول الطريق : ﴿ لَوْ كانَ فيهما ءَالِهَةٌ إلا الله لَفَسدتا فسُبْحان اللّهِ ربِّ العرشِ عَمَّا يَصِفون ﴾ (١) .

إن جميع الأنبياء والمرسلين بشرٌ اصطفاهم الله عزّ وجلّ لتبليغ رسالتِه وعصمَهم وهداهم من آدمَ إلى عيسىٰ إلى محمد عليهم جميعا الصلاةُ والسلام .

وإن الله عز وجل هو الإلٰهُ الواحدُ المدبِّرُ المهيمنُ وإنَّ جميعَ المخلوقات خاضعةٌ لسلطانه سبحانه وتعالى ، وإن كلَّ إنسان وضع الألوهيةَ والعبادةَ في غير موضعِهما يجب أن يبادرَ إلى التوبة والرجوعِ إلى الله نادما على ماكان منه ، لينقذَ مهجتَه من الخلود في النار ، ولن ينفعَ الإنسانَ إلا عملُه الصالح وإيمانُه الصحيح ، وإن الملائكةَ والأنبياءَ لا يشفعون إلا لمن ارتضى ، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به سبحانه وتعالى ، ولا نجاةَ في يوم القيامة إلا بالتوحيد الخالصِ والطاعةِ والتصديق بجميع الأنبياء وخاتمهم محمدٍ ﷺ واتباعه وطاعته .

ولنتدبر : ﴿ وقالوا اتَّخذ الرحمٰنُ وَلَداً سُبحانه بَلْ عبادٌ مُّكْرَمُون * لا يَسبِقُونه بالقَول وهُم بأَمرِه يعملُون * يعلمُ مابينَ أيديهم وما خلْفهم ولا

(١) الأنبياء : ٢٢ .

يشفعُون إلّا لمَن ارْتَضىٰ وهُم مِّن خَشيتِه مُشْفقُون * ومَن يَقُل مِنهم إنِّي إلٰهٌ مِّن دُونِه فذٰلِكَ نَجْزِيه جهنَّمَ كذٰلِك نَجْزِي الظَّالِمين ﴾[1] .

اللهم اجعلنا من عبادك الموحِّدين المخلصين .

* * *

(١) الأنبياء : ٢٦ : ٢٩ .

سؤال ..

وإيّاكم والسراب يا أهلَ الفهم والفكر

أساسُ السعادة في الآخرة أن يكون اعتقادُ المرء صحيحاً وأن يكون عملُه صالحا ، فإذا فسد الاعتقاد لم تنفع المرء أعمالُه الصالحةُ من صدقة ونحوها وقد سأل سائل : عن شخص غير مسلم يوجِّهُ جزءاً من أمواله لأعمال البِرِّ ولمعونة اليتامىٰ والأرامل وإنشاء مؤسسات لخدمة المحتاجين وأهل العجز ؟ .

وصاحبُ السؤال يريد أن يعرف عاقبةَ مثل هذا الشخص إن مات على غير الإسلام ؟ .

إنّ الذي يريد أن يخلِّص مهجته من عذاب جهنم وبئس المصير يجب أن يوحِّد الله عز وجلّ ، وأن ينزهه ، وأن يصدِّق بجميع ماجاء به الأنبياء عن ربِّهم ، وأن يؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين ومنهم إبراهيم الخليل وموسىٰ وعيسى وخاتمُهم محمدُ بنُ عبدِ الله صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين ، وأن يعمل الصالحاتِ متبعا النبي ﷺ مع الإخلاص والمحبة ، فإذا صحت عقيدةُ المرءِ ، وكان عالما بالله وبعظمته ، وأنه سبحانه وتعالى قد تقدّس وتنزّه وتعاظم عن أن يكون له ولدٌ أو صاحبةٌ أو شبيه أو نظير ، إذا صحت عقيدةُ المرءِ وعمِلَ الصالحات ابتغاءَ وجه الله وحده ، فإن عمله ينفعه بإذن الله تعالى في الآخرة ، والله عز وجل يقول لعباده : ﴿ إنَّ الذِين

آمنُوا وعمِلُوا الصالحاتِ كانت لهم جناتُ الفِردوسِ نُزلا * خالدِينَ فِيها لايبغُون عَنْها حِوَلا ﴾(١) .

هباء منثور :

أما من يعمل عملا من أعمال الخير وهو جاحد مُنكر لوجود الله عز وجل ، أوشاكٌّ ، أو مشركٌ بالله بأن يجعل شيئا من عبادته لغير الله كالدعاء أو الاستغاثة بغيرِ الله أو الذبحِ لغير الله ، أو النذرِ لغير الله ، أو كان الشخص معتقداً أن لله ولداً أو شريكاً أو محتاجاً لمن يرفع إليه دعواتِ عباده واستغاثاتِهم .. إن هؤلاء وأمثالَهم ممَّن لايخلِصون التوحيد ، ولا يجعلون العملَ والطاعةَ لله وحده إنما أعمالهم كرماد بقي بعد احتراق حطبٍ أو خشبٍ ونحوهما ثم هَبَّت على هذا الرماد ريحٌ شديدة ، فماذا تُبْقِي منه ؟ ولنسمعْ في تدبر وتأمُّل قول الله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِين كَفروا بربِّهم أعمالُهم كرَمَادٍ اشتدّتْ به الريحُ في يوم عاصِفٍ لا يقدرون مما كسَبُوا على شيْءٍ ذلك هو الضلالُ البَعيد ﴾(٢) .

ضرب الله هذه الآيَة مثلاً لأعمال المُلحدين والمشركين في أنه سبحانه يَمْحَقُها كما تمحقُ الريحُ الشديدةُ الرماد في يوم عاصف أي اشتدت ريحُه ، وإنما كان الأمر كذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله ، ولم يكونوا من أهل التوحيد والتنزيه ، فتحبط أعمالُهم في مجالات البر ونحوه بكفرهم وفساد معتقداتهم ، وهم لذلك لا يجدون مايجده المؤمنُ الموحِّد الصالحُ من ثواب عمله كالصدقة وحسنِ الخلق ومساعدة العاجز والضعيف وحسنِ الجوار والأمانة في المعاملة وبرِّ الوالدين وغير ذلك من الأعمال الطيبة ،

---

(١) الكهف : ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) إبراهيم : ١٨ .

ولنتدبر مصير عمل الكافر البرَّ في قوله تعالى : ﴿ وقَدِمنا إلى ماعَمِلوا من عملٍ فَجَعلْناه هَبَاءً مَّنثورا ﴾(١) .

التوبة قبل الموت :

إن فاسد الاعتقادِ على ضلال بعيد ، وفي القيامة يجدُ نفسَه في خسران كبير ، فيندمُ ولا ينفعه الندم ، إذ قد فات الأوانُ بالموت ، أما الذي يتوب قبل الموت ، ويرجعُ إلي ربه ، نادماً ويعيش بقية عمره موحِّدا لله عز وجل ، ومنزِّها له سبحانه عن الشبيه والنظيرِ والندِّ والابن والابنة والصاحبةِ معتقدا أن لامعبود بحق سوى الله ، وأنه سبحانه متصف بكل كمال ومُنزَّه عن كل نقص ، وأنه سبحانه في رحمته بعباده لايحتاج إلى شفعاء ولا وسطاء بينه وبينهم ، ويعمل العمل الصالح مقتديا بالنبي محمد ﷺ ، إن هذا الشخص يكون بذلك قد رحم نفسه بأن خلصها من شقاء الحياتين ، ومن عذاب أليم ، وخلود في الجحيم ، فالله عز وجل يقبل عباده التائبين ، ويرحم عباده النادمين ، إذا عادوا إلى الصراط المستقيم ، ونبذوا الأوهام والأباطيل كالاعتقاد بأن إنسانا يغفر الذنوب ويخلص المذنبين من العذاب ، كما يعتقد كثير من الناس في رسول الله عيسى ابن مريم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ولنسمع الله عز وجل يقول :

﴿ لقد كَفر الذين قالُوا إن الله هو المسيحُ ابنُ مريم ، وقال المسيحُ يابنِي إسرائيلَ اعبُدوا الله ربِّي وربَّكم إنه من يُشركْ بالله فقد حَرَّم الله عليْه الجنةَ ومأوَاه النارُ وما للظالمين من أنصار ﴾(٢) .

---

(١) الفرقان : ٢٣ .
والهباء : مايُرى في الكُوىٰ ــ النوافذ الصغيرة ــ مع ضوء الشمس كالغبار .

(٢) المائدة : ٧٢ .

إن الله عز وجل مالك الملك ، ومدِّبرُ الأمر ، وقد عنت الوجوه لعظمته قد حكم بتكفير كلِّ من يعتقد أن المسيح إلٰه ، فالمسيح عبد الله ورسوله ، وقد نطق في المهد قائلا : « إنى عبدُ الله » وقال للناس ذلك في حال كهولته ونبوته ، وأمرهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لاشريك له ، فإن من أشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومصيره إلى الخلود في النار مهما ادعى من محبةٍ للمسيح ، إذ المحبةُ الصحيحة تكون في اتباع الرسول فيما بلّغ عن ربه .

من علامات صحة التفكير :

إن العاقل البصير هو الذي يفكّر في المصير ، ويتخذُ الأسباب الصحيحة التي تُؤدى به إلى النجاة في الآخرة ، ولا ينخدع بأباطيل أهلِ الضلال وأوهامهم ، ولا يسير وراء السرابِ الخادع حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، ولقد ترهَّب من ترهَّب في عهد النبي محمد ﷺ ولكنه كفر بالنبي محمد ﷺ معتقدا أن تَرَهُّبه وتركه لزينة الدنيا ينفعه في الآخرة ، فأنزل الله عز وجل ليبصر عباده حتى لايضلوا مِثْل هذا الضلال قوله : ﴿ والذين كَفَرُوا أعمالُهم كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يحسَبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءَه لم يجدْه شيئاً وَوَجَدَ الله عنده فَوَفّاهُ حِسَابَه واللّهُ سَرِيعُ الحسابِ ﴾[1] .

والسراب هو مانراه وقت اشتداد الحر وسط النهار كالماء في المفاوز ، والقِيعة جمعُ القاع وهو ماانبسط من الأرض واتسع ولم يكن فيه نبتٌ وفيه يكون السراب ، وإن السراب يغتر به العطشان وهو مسافر في الحر ، وكلما قطع مسافة لم يجد ماء ، ووجد أرضا خالية ، كالكافر يُعوِّل

(١) النور : ٣٩ .

على ثوابِ عمله كصلة الرحم ، ونفعِ الجيران ، والصدقاتِ فإذا قدِم على الله تعالى وَجَد ثوابَ عملِه مُحبَطا بسبب الكفر : « حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئا » أي لم يجد شيئا ينفعه كما لم يجد صاحبُ السراب إلا أرضا لا ماء فيها ، « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » أى وجد الله بالمرصاد فوفّاه جزاء عمله ، ولا يجد الضال يوم القيامة إلا الحسرةَ والندامة إذ عاش دنياه في ظلمات بعضُها فوق بعض بسبب ماغَشّى قلبَه من الجهل والشكّ والريب والحيرة . فبم تُفيده أعماله الخيِّرة ، وقد مات كافراً بالله وبرسوله ؟ بم تفيده أعماله وهو لم يقر لله بالعبودية ؟ ولم يجعل عمله خالصا لله وحده ؟ وفي هذا ذكرى لكل ذى لب ألا يعيش غافلا عن المصير ، منصرفا عما ينفعه في حياته الأبدية ، إذ العاقل حقا هو الذي يجيل فكره في آيات الله ، ويسعى إلى مافيه خيره ونجاته ، موقنا أن كل إنسان مسؤول عن عمله ، وعن نفسه ، وأنه لن تحمل نفسٌ وِزْرَ نفسٍ أخرى فأساس النجاة : الإيمانُ بالله وطاعتُه وإخلاصُ العملِ له وحده والتصديقُ بما جاء به الأنبياء ، والإيمانُ بخاتمهم محمدِ بنِ عبد الله ﷺ : ﴿ قل إن كُنْتم تُحِبُّون الله فاتّبعونى يُحبِبْكم الله ويغفِرْ لكم ذنوبَكم ﴾[1] .

* * *

(١) آل عمران : ٣١ .

فطرة الله التى فطر الناس عليها

في معنى الفطرة :

قالت طائفة من أهل الفقْة والنظر في تفسير معنى الفطرة التى فطر الله الناس عليها : الفطرةُ هى الخِلْقةُ التي خُلقَ عليها المولود في المعرفة بربِّه ، إذ إن كلَّ مولود يُولد على خِلقة يَعرِفُ بها ربَّه إذا بلَغ مبلغَ المعرفة .

ومن معنى الفطرة في اللغة : الخِلْقة ، والفاطر هو الخالقُ سبحانه وتعالى وهو القائل : ﴿ الحمدُ لله فاطرِ السمواتِ والأرض ﴾[١] . يعنى خالقَهن ، وقال العبدُ الصالح : ﴿ وما لِيَ لاأعبدُ الذي فَطَرني ﴾[٢] أى خلقنى ، وقال إبراهيم الخليل عليه السلام لقومه : ﴿ قال بل رَّبُّكم ربُّ السمٰواتِ والأرضِ الذي فطرَهُنّ وأنا على ذٰلكم مِّن الشَّاهدين ﴾[٣] . يعني خلقهنّ .

التوحيد الخالص دينُ الفطرة :

وإن كلَّ مولودٍ في مبدأ الخِلقة يكون على الفطرة أي على الجِبِلَّة السليمةِ والطبعِ المتهيِّىء لقبول الدين الحقّ ، فلو تُرك عليها لاستمرّ على لزومها ، لأن هذا الدينَ موجودٌ حُسْنُه في العقول السليمة ، وإنما يَعْدِل عنه مَنْ يعدلُ إلى غيره لآفةٍ من آفاتِ النشوء والتقليد ، فلو سلِمَ من تلك

(١) فاطر : ١ .　　(٢) يس : ٢٢ .　　(٣) الأنبياء : ٥٦ .

الآفاتِ لم يَعْتَقِد غيرَ دين التوحيد الخالص ، وإن رسل الله هم الذين ينيرون للعقل طريقه ، وَيُغَذُّون القلبَ بما يناسب الفطرة ، وينمى حُبَّ الهُدىٰ والخير والحق .

روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « مامِن مَولودٍ إلا يُولدُ على الفِطرة ، فأبواه يُهوِّدانه ويُنصِّرانه ويُمجِّسَانه ، كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمةً جمْعَاء ، هل تُحسّون فيها مِن جَدْعاء . ثم قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : ﴿ فطرةَ اللّهِ التي فطر الناسَ عليها لا تبديلَ لخَلْقِ الله ﴾ [1] .

وفي الحديث تشبيةٌ لقلوبِ بنى آدمَ بالبهائم تُولد كاملةَ الخلْق ليس فيها نُقصان ، ثم تُقطع آذانُها بعد وأنوفُها وتُوسَم وجوهُها فتطرأُ على البهيم آفاتٌ ونقائصُ لم يُولد بها ، إذ معنى الجمْعاء في الحديث الشريف أنها سليمةٌ من العيوب مجتمعةُ الأعضاءِ كاملتُها ، والجدعاء هي مقطوعة الأذن .

الاستدلال بالمخلوقات على خالقها :

يقول ابنُ عطية المفسر في معنى الفطرة : والذى يُعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة ، أنها الخِلقةُ والهيئة التي في نفس الطفل التى هي مُعدَّة ومهيأة لأن يميز بها مصنوعاتِ الله تعالى ، ويستدلَّ بهذه المخلوقات على ربه ، ويعرفَ شرائعه ويؤمنَ به ، فكأنّ الله عز وجل يقول لعباده : فأقم وجهك للدين الذي هو الحنيف ، وهو فطرة الله الذى على الإعداد له فطر البشر ، لكنْ تعرِضُهم العوارضُ كالأبوين في قول النبيِّ ﷺ : « كلُّ مولودٍ يولدُ على الفِطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه .. » .

---

(١) الروم : ٣٠ .

الأبوان والبيئة :

وإنما الأبوان مثالٌ للعوارض التي هي كثيرة كالمؤسسات التي تجمع الصغارَ لتربِّيَهم على إلحادٍ أو نصرانيةٍ أو مجوسية أو يهودية أو غير ذلك من ألوان الضلال ، ومنها المدارس التبشيرية والإلحادية ، وغير ذلك من البيئات الضالة عن الهدى .

وفى الحديث القدسىّ : يقول الله عز وجل : « إني خلقتُ عبادى حنفاءَ فجاءتهم الشياطينُ فاجتالتهم[1] عن دينهم وَحَرَّمتْ عليهم ماأحللتُ لهم » والحنيف هو المائل إلى الدين الحقِّ المستقيمُ عليه .

إخلاص الدين لله وحده :

وقد أمر الله العباد بإخلاص دينهم لله عز وجل ، وباتباع دينه الذي خَلق له الناسَ ، وهو دينُ التوحيد الخالص ، والإذعانِ لأمر الله ، وطاعتِه والتسليمِ والخضوعِ لكل ماجاء به النبي محمد ﷺ .

ولنتدبر قول الله تعالى : ﴿ فأقِمْ وجْهَك للدِّينِ حَنيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتى فَطَرَ الناسَ عليها لاتبديلَ لخلْقِ الله ذلك الدينُ القيِّمُ ولكنَّ أكثَرَ الناسِ لايَعْلَمون ﴾[2] .

وإن أىَّ دينٍ يخالف دين الإسلام فهو باطل ، لأن دينَ الإسلام هو دين الأنبياء جميعهم ومَن تبعهم من المؤمنين الصالحين ، وقد جاء النبي محمد ﷺ بالدين العام الخالد الذي هو آخرُ الأديان السماوية ، وإن

(١) اجتالتهم الشياطين : استخفتهم فجالوا معهم في الضلالة . واجتال القوم حوّلهم عن قصدهم .

(٢) الروم : ٣٠ .

جميع البشر مُطالبون بالانضواء تحت لوائه ، والدخول فيه ، واتباع نبيه محمد ﷺ ، فمن بقى على أي ملة بعد ظهوره ﷺ ولم يبادر إلى الإيمان به فهو على باطل وضلال ، ودينُ الإسلام والحمدُ لله تعاليمه مطابقة تماما لفطرة الإنسان النقية ، ولمتطلبات قلبه الصافى وحاجاته الجسمية والعقلية والنفسية والروحية والاجتماعية فهو دين الإنسانية كلها ، وتعاليمه صالحة لكل زمان ولكل مكان ، وهو دينٌ يعتمد في الإيمان به على البرهان والدليل ، ويقيم الحجة من آيات الله في كتابه العزيز ، وآياته في الكون العظيم ، وآياته سبحانه في النفس البشرية ، وهي الحجةُ التي تَهدى العقل ، وتُنير القلب ، وتُرشد النفسَ إلى الهدى والخير .

الميثاق الأول :

إن الله عز وجل أخذ على ذرية آدم الميثاق أن يوحدوه ، وألا يشركوا به سبحانه ، وأشْهَدهُم على أنفسهم وهم في عالم الذرِّ ، وبذلك خلق الله قلوبَ بنى آدم مؤهَّلةً لقبول الحق ، كما خلق أعينَهم وأسماعَهم قابلةً للمرئيات والمسموعات ، فما دامت هذه القلوبُ باقيةً على ذلك القبول ، وعلى تلك الفطرة السليمة ، وتلك الأهلية أدركت الحقَّ ودينَ الإسلام ، وهو الدين الحق الذي لايقبل الله من العباد غيره ، وإنّ حجةَ الله عز وجلّ تقوم على عباده بعد أن يَعقِلوا ويُكَلفُوا بما نصب من الآيات الظاهرة من خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ، واختلافِ الليل والنهار ، وغير ذلك من الآيات الناطقة بوحدانية الله ، وقدرته وعظيم سلطانه ورحمته بالعباد ، ولكن الأهواء تعمل عملها في الناس فتأتيهم الشياطينُ فتضلهم ، وتبعدهم عن صراط الله المستقيم إلى إلحاديةٍ أو وثنيةٍ أو نصرانية أو يهودية ، أو غير ذلك من الملل والنحل البعيدة عن الإسلام وهدايته .

ولنتأمل قول الله تعالى : ﴿ وإذْ أَخذ ربُّك من بنى آدمَ من ظُهورهم ذريتَهم وأشهدَهُم على أنفسِهم ألستُ بربِّكم قالوا بَلَىٰ شهِدنا أن تَقُولوا يوْم القيامة إنا كنّا عن هذا غافلين * أو تقولُوا إنَّما أشركَ آباؤنا من قبلُ وكنا ذُرِّيّةً مّن بعدِهم أفتُهْلكنا بما فعل المُبطلون ﴾[1] .

إن ذرية آدم كلَّها أقروا لله عز وجل بالربوبية ، وأنه لا إلٰه إلا هو لمّا أخرجَهم سبحانه وتعالى من صُلب آدمَ في صورة الذرِّ ، ثم أعادهم إلى صُلبه بعد هذا الإقرار ، وقد جاء في الحديث الذي رُوى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام فأخرج من صُلبه كل ذرِّية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قِبَلاً ــ أى عيانا ومقابلة لامن وراء حجاب ــ قال سبحانه : ألست بربكم ؟ قالوا : بلىٰ شهدنا ، أن يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو يقولوا: إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتُهلكنا بما فعل المبطلون » .

وجاء عن أُبَيِّ بن كعب : أن الله عز وجل أخذ على ذرية آدم العهد والميثاق ، وأشهدهم على أنفسهم : ألستُ بربكم ؟ قالوا : بلى .. الآية ، قال : فإنى أُشهد عليكم السمواتِ السبعَ ، والأرضين السبعَ ، وأشهد عليكم أباكم آدم ، أن تقولوا يوم القيامة : « لم نعلم بهذا » ، اعْلَمُوا أنه لا إلٰه غيرى ، ولا ربَّ غيرى ، فلا تُشركوا بى شيئا ، وإنى سأرسل إليكم رسلا يذكّرونكم عهدى وميثاقى ، وأُنزل عليكم كُتبى ، قالوا : نَشْهد أنَّك ربُّنا وإلٰهنا لا ربَّ لنا غيرُك ، ولا إلٰه لنا غيرك .

فأقروا له يومئذ بالطاعة ، قال ابن عباس : فمن أدرك من بنى آدم

---

(١) الأعراف : ١٧٣ .

الميثاق الآخر فوفَّى به – أى من آمَن بالأنبياء وبالكتب المنزلة عليهم – نفعه الميثاقُ الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يف به لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيرا قبل أن يدرك الميثاق الآخر ، مات على الميثاق الأول على الفطرة .

لابرهان للضالين عن التوحيد :

إن الله عز وجل قد أخذ علينا العهدَ والميثاق أن نوحده سبحانه ، وأن نُطيعَه ، وأن نعبدَه ونخلصَ العبادةَ له وحده ، وقد أقررنا على أنفسنا وشهِدنا أنه سبحانه وتعالى ربنا ومليكُنا وأنه لا إلٰه غيرُه ، ولاربَّ سواه ، فهو وحده الخالقُ الوهَّابُ ، وقد أرسل الله عز وجل الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ليعظوا الناس ، ويذكروهم بالميثاق الأول ، ويبينوا لهم كيف يعبدون ربهم ، ولكن كثيرا من الناس خالفوا الميثاق وتركوه وراء ظهورهم وعصوا رسلَ الله الكرام ، ونحن بأنفسنا نرى كثيرا من بنى آدم يعبدون مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا من شرع ، وفي الفطر السليمة خلاف ذلك ، ومن الناس من أعماه الجهل وطُمس على قلبه فجَحد وأنكر ، وضلّ وأضلّ ، غير معتبر بالموت ولا بما وقع للأمم الماضية التي كفرت ، وأشركتْ ، فأخذها الله أخْذَ عزيزٍ مقتدِر .

وفي المشركين والمُلحدين الذين نَقضوا الميثاقَ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا وَجَدْنا لأكثرِهم مِّنْ عَهْدٍ وإن وَجَدْنا أكثرَهُم لفاسِقين ﴾[1] .

إن العاقلَ البصير ينبغى له أن يتدبّر في نفسه ، وأن يفكر في عاقبته

---

(١) الأعراف : ١٠٢ .

وأن يبحث عن الحق الذى جاء به الرسل وخاتمهم محمد ﷺ ، وأن يسأل ربه أن يحييه ويميته على دين الفطرة ، دين الإسلام الذي لا يقبل الله من العباد غيره ، ولنتدبر قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ :

﴿ وَمَا أرسَلْناك إلّا رحمةً لِّلعالَمِين * قل إنَّما يُوحَىٰ إلىَّ أنَّما إلٰهكم إله واحدٌ فهل أنْتُم مُّسْلِمون ﴾[1] .

* * *

(١) الأنبياء : ١٠٧ ، ١٠٨ .

هيا نهتف من قلوبنا دومًا :
سبحان مالكِ الملك
سبحان الله العظيم

عظمةُ الخلْق تنطق بعظمة الخالق وكمالِ صفاته .

المصنوعاتُ الظاهرة لنا تنطق كلُّها بأن لى صانعا صنعنى ورتبنى على مقتضى الحكمة .

خصوصاً هذا الآدمىّ الذى أنشأه ربُّه من قطرة ، وَبَناه على أعجب فطرة ، ورزقه الفهم ، والذهنَ ، واليقظة ، والعلم ، وبسط له المهاد ، وأجرى له الماءَ والريحَ ، وأنبت له الزرع ، ورفع له من فوقه السماء ، فأوقد له مصباح الشمس بالنهار ، وجاء بالظلمة ليسكن ، إلى غير ذلك مما لا يخفى على أحد ذى سمع وبصر وعقل .

إن الآدمىَّ آيةٌ تنطق بصوت فصيح يدل على خالقه وموجده .

لقد تجلّت قدرة الخالق عز وجل ، وأَجِلْ بصرك وفكرك وشعورك فيما يحيط بك ، لتهتف من قلبك : سبحان القادرِ الحكيم الذي خلق كلَّ شيء ، وسبَّح بحمده كلُّ مافي السموات والأرض :

ولنتدبر ياأولى الألباب : ﴿ قُل لَّوْ كان معهُ آلهةٌ كما يقولُون إذاً لابْتَغَوْا إلىٰ ذِى العرشِ سبيلاً * سُبحانه وتعالىٰ عَمّا يقولُون عُلوًّا كبيراً * تُسَبِّحُ له السمٰواتُ السبعُ والأرضُ وَمَنْ فيهنَّ وإن مِّن شَيْءٍ إلّا يُسبِّح

بحمْدِه ولكنْ لّا تفقَهُون تَسبِيحَهُم إنّه كانَ حَليما غَفورا ﴾[1] .

إن الله واحد لا شريك له في ملكه ، ولا ينازعه سبحانه وتعالى أحدٌ في سلطانه فكلُّ مافي الكون مخلوقٌ مسخَّر خاضعٌ لحكمه ، نافذ فيه قضاؤه ، لايملك مخلوق لنفسه ضرا ولا نفعا ، إذ الأمر كله لله وحده ، وهو سبحانه المدبر الحكيم العليم ، ولو كان في السموات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا ، وإن إحكام نظام الكون ، وجماله ، واتساقه ، وسيْره على سنن لا يتخلف لَيدلُّ دلالة واضحة على وحدانية الخالق ، وأنه سبحانه لايحتاج في رحمته بعباده إلى وسطاء بينه وبينهم ، وإن البشر لاحاجة لهم إلى معبود يكون واسطة بينهم وبين ربهم كما يفعل من يجعلون لله ولدا ، أو يتضرعون إلى الأصنام ، أو إلى أصحاب القبور ، أو إلى الشمس والقمر وغير ذلك من المعبودات التي اتجه إليها الضالون عن الهدى والصواب ، وقد نهى الله عن ذلك على ألسنة جميع رسله ، ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ وما أرسَلْنا من قَبلِك من رسُولٍ إلا نُوحِى إليْه أنّه لا إلٰه إلا أنا فاعبدون ﴾[2] ولنتدبر : ﴿ قُلْ إنّى نُهِيتُ أن أعبُدَ الّذين تَدعُون من دونِ اللّهِ ، قل لا أتّبِعُ أهواءَكم قد ضللتُ إذاً وما أنا من المهتدِين ﴾[3] .

ولنتدبر : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِن دُونِ اللّهِ منْ لّا يستجيبُ لهُ إلى يوم القيامةِ وهم عن دعائِهم غافِلون * وإذا حُشِر الناسُ كانوا لَهُمْ أعداءً وكانوا بِعبادَتِهم كافِرين ﴾[4] .

إن الإلٰه واحد لا شريك له ، ولا ولد ، تقدّسه سبحانه جميعُ

---

(١) الإسراء : ٤٢ : ٤٤ .
(٢) الأنبياء : ٢٥ .
(٣) الأنعام : ٥٦ .
(٤) الأحقاف : ٥ ، ٦ .

المخلوقات وتنزهه وتعظمهُ وتُجلّه وتكبره ، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلا هيته .

فــفي كــلّ شــيءٍ لــه آيــة تــدل على أنــه الواحــد

﴿ وإن مِّنْ شَيْءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ أي ما من شيْء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ، ولكنكم أيها الناس لا تفقهون تسبيحهم ، لأنها بخلاف لغتكم ، وقد ثبت كما جاء في صحيح البخاري عن ابن مسعود : « ولقد كنا نسمع تسبيحَ الطعام وهو يؤكل » .

وفى حديث مشهور في المسانيد عن أبي ذر : « أن النبي ﷺ أخذ في يده حَصَيات ، فسُمِع لهُنَّ تَسبيحٌ كحنين النحل » .

وفي مسند الإمام أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه ، أن النبي ﷺ مرّ على قوم وهم وقوف على دوابَّ لهم ورواحلَ ، فقال لهم : « ارْكبوها سالمةً ، ودَعُوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسِيَّ لأحاديثكم فى الطرق والأسواق ، فَربَّ مركوبة خيرٌ من راكبها ، وأكثرُ ذكراً لله تعالى منه » .

فانظر كيف تذكر هذه الدوابُّ ربَّها وتسبحه وتقدسه وهى لذلك تكون خيراً من الجاحدين والغافلين عن توحيد الله وتسبيحه وتقديسه ، ولقد ذم الله عز وجل الغافلين عن تدبر آياته ، وتأمُّل براهين قدرته ووحدانيته ، فقال : ﴿ وَلَقد ذَرأنا لجهنَّمَ كثيراً مِّن الجنِّ والإنسِ لهم قلوبٌ لا يَفْقهون بها ولهُمْ أعْيُنٌ لا يُبْصِرُون بها ولهم آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أولئك كالأنعام بَلْ هُمْ أضَلُّ أولٰئك هُم الغافِلون ﴾(١) .

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .

وجاء في تفسير ابن كثير نقلا عن تفسير الطبرى أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : إن الرجل إذ قال « لا إله إلا الله » فهى كلمة الإخلاص التى لا يقبل الله من أحد عملا حتى يقولها ، وإذا قال : « الحمد لله » فهي كلمة الشكر التي لم يشكر اللهَ عبدٌ قط حتى يقولها ، وإذا قال « الله أكبر » فهى تملأ مابين السماء والأرض ، وإذا قال : « سبحان الله » فهى صلاة الخلائق التى لم يَدَعِ اللهُ أحداً من خلقه إلا قرره بالصلاة والتسبيح ، وإذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله » قال الله : أسلم عبدى ، استسلم » .

إن « سبحان الله » أي تنزيهُه سبحانه وتعالى عن مشابهة المخلوقين والإقرارُ من القلب بأن له كلَّ صفات الكمال ، وكل نعوت الجلال ، وأنه منزه عن الولد والصاحبة والشريك .. إنها صلاة الخلق ، وتسبيحُ الخلق ، وبها يُرزق الخلقُ ، إن صرير البابِ تسبيح ، وإن خرير الماءِ تسبيحُه ، ونقيقَ الضفدع تسبيحُه ، وان كل مافي الكون يسبح ربَّه العليَّ الأعلى سبحانه وتعالى .

فياحسرَة الغافلين عن توحيد الله وتنزيهه في يوم الهول الأكبر ، حين يرون مقاعدهم ودركاتهم من جهنم وبئس المصير ، وحين يرون ماعليه أهلُ التوحيد والتنزيه من الكرامة والرَّوْح .

وصية نوح عليه السلام :

جاء في مسند الإمام أحمد ، في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو : أن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاه ، دعا ابنيه فقال : إنى قاصّ عليكما الوصية : آمُرُكما باثنتين ، وأنهاكما عن اثنتين ، أنهاكما عن الشرك بالله والكبر ، وآمركما بلا إله إلا الله ، فإن السموات والأرض ،

ومابينهما لو وُضعت في كفّة الميزان ، ووضعت « لا إلٰه إلا الله » فى الكفة الأخرى كانت ــ أى ثواب لا إلٰه إلا الله ــ أرجحَ .. ثم قال : وآمركما بسبحانَ اللّهِ وبحمده ، فإنها صلاةُ كلِّ شيْء ، وبها يُرزق كل شيْءٍ » .

فضل التسبيح :

إن العبد إذا قال : « سبحان ربي الأعلى » موقنا بها ، صادقا في إيمانه ، منزِّها الله عز وجل عن السوء وعما يقول فيه الملحدون ، معظماً ربه ، خاشعا ، فإن الله عز وجل يقول : « صَدَق عبدى أنا فوق كلِّ شيْء ، وليس فوقي شيْء اشهدُوا ياملائكتى أنى قد غفرت له ، وأدخلته الجنة » .

فسبحان من انقاد له الكون ، وخضع لإرادته كلُّ مافي هذا الوجود ، سبحان الحيِّ القيوم الذي لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذرة في السمٰوات ولا في الأرض .

سبحانَ ربّى الدائـم :

سبحان من تسبّح الرعد بحمده ، والملائكةُ من خيفته ، وهو على كل شيْء قدير .

إن الرعد آية من آيات الله ، وبرهان من براهين وجوده ووحدانيته ، وإن الملائكة لتُرعد خوفا من غضب الرب وعذابه ، ورجاء رحمته .

إن كل مافي الكون يهتف دوما : سبحان الملكِ القدّوسِ ربِّ الملائكة والروح .

سبحان اللّهِ المنزَّه عن كل نقص المتصفِ بكل كمال : ﴿ ليس

كَمِثْلِه شيْءٌ وهو السميعُ البصير ﴾[1] .

لقد نُقل إلينا أن سليمانَ بنَ داود عليه السلام سمع حمامة هدرتْ فقال : إنها تقول : سبحان ربي الأعلى ملءَ سمائِه وأرضه ، وصاح قُمرىّ فقال إنه يقول : سبحان ربى الدائم ، والضفدعة تقول : سبحان المذكورِ بكل لسان ، والبازىُّ يقول : سبحان ربي وبحمده .

ونقلوا عن ابن عباس قوله : إن الفرس يقول عند التقاء الجمعين : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكة والروح ، وإن الضفدع يقول : سبحان اللّهِ المعبود في البحار .

إن الكون كله يسبح ربه ، وإن أهل العقل والحكمة ينبغي لهم أن يخلصوا التوحيد ، وأن يقولوا دوما .. سبحان اللّهِ والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

* * *

---

(١) الشورى : ١١

ثالثاً : القسم الثاني

﴿ إنَّ فِي خَلقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرضِ وَاختِلٰفِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي الأَلبٰبِ ۝ الَّذِينَ يَذكُرُونَ اللَّهَ قِيٰماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِم وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلقِ السَّمٰوٰتِ وَالأَرضِ رَبَّنَا مَاخَلَقتَ هَٰذَا بٰطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١

٧- طمأنينة النفس وسلامتها بالإيمان الصحيح
٨- أعظم العقوبة أن يُسْلَب الإنسان معنى سمعه وبصره وأن يُختَم على قلبه
٩- تأمّل .. وقلْ : سبحان الخالق العظيم
١٠- عُمْرُك رأس مالك .. فتدبّر أمرك ولاتغفل
١١- المكابرة والعناد هلاك وضياع
١٢- جُل بعقلك فالكونُ كتابٌ مفتوح
١٣- من غفَل عن التدبّر فهو غِرٌّ صَغير
١٤- وفى الأرض آيات للموقنين
١٥- أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماء ؟
١٦- تكريم العقل بعدم جموده وضلاله
١٧- بل يريد الإنسانُ ليفجُرَ أمَامه
١٨- أزْميرُو آيةٌ بيّنة .. فاتعظوا
١٩- إنما خلق الإنسان وليّنت مفاصله لعبَادة الله
٢٠- التفكُّر الصحيح ضيَاءٌ وأمن وسعادة
٢١- فما يكذِّبك بعد بالدِّين ؟
٢٢- المؤمنون الصادقون أبعد الناس عن الأمراض النفسية
٢٣- من آيات القدرة عَلى البعث للحسَاب والجزاء

طمأنينة النفس وسلامتها
بالإيمان الصحيح

النفس المطمئنَّةُ هي نفسُ الشخصِ القويِّ الإيمان ، الثابتِ اليقينِ الذي تُحلِّق روحُه في آفاق الروحانية العالية ، الواثقِ بما عند الله ، الراضي بحكم ربِّه وقضائِه ، القنوعِ بما رُزِق ، الصبور عند الألم والبلوى ، المتواضعِ عند النعمة ، الشاكرِ في السراء والضراء .

أصحابُ هذه النفوسِ المطمئنةِ هم أبعدُ الناسِ عن الأمراض التي يسببها القلقُ والجزعُ ، وعدمُ الصبرِ عند المصيبة ، وخفوتُ نورِ الأمل في انفراج الشدائدِ عند وقوعها ، وعدم الإيمان بالقضاء والقدر .

لماذا شاعت الأمراض النفسية والعصبية والمخدرات والمفتِّرات ؟

إن الأمراضَ النفسيةَ والعصبيةَ التي تَشِيع في المجتمعات المادِّيةِ على الرغم من التقدُّم الماديِّ والصناعيِّ الذي حققته مجتمعاتٌ أوروبية متعددة في العصر الحديث إنما هي ثمرةٌ طبيعية للإلحاد الذى شاع في بيئات كثيرة ، ففقد الناسُ حلاوةَ الإيمان ، وطعْمَ اليقين ، وصارت مقاييسُهم للأمور ماديةً ، فإذا خانت الإنسانَ الأسبابُ انزعج ، واضطرب ، وإذا سُدَّت أمامه المسالكُ نحو هدفٍ مَّا يَئِس وابتأس ، وقد يؤدى به اليأسُ إلى الانطواء أو الهروبِ من المجتمع نفسيّا أو نفسيّا وجَسديا* ، وفي كثير من الحالات يلجأ الملحدون ، وضعافُ الإيمان وفاقدو اليقين بالقضاء والقدر

إلى التخلّص من الحياة فينتحرون ** ، ويتّخذون لذلك أسبابا وأشكالا

---

* **الآباء والأمهات يهربون من منازلهم**
بسبب تصرفات أبنائهم اللاأخلاقية

واشنطن ــ مكتب الشرق الأوسط .

حذر خبراء وعلماء اجتماعيون أمريكيون من خطورة ظاهرة اجتماعية آخذة في التفشي مما يهدد آخر ماتبقىّ من لُحمة وتماسك العائلة الأمريكية الظاهرة هي هرب الأبوين أو أحدهما من المنزل بسبب عدم قدرتهما على تحمل العيش مع أبنائهما خاصة الذين هم في سنّ المراهقة .

وعن هذه الظاهرة قال الطبيب النفساني سام جونسون : إن أعدادا متزايدة من الآباء والأمهات يفضلون الهرب من البيت على العيش مع أبناء لا يقدرون على تحمل تصرفاتهم غير الأخلاقية .

وأضاف : « إن الأخلاق المنحطة لهؤلاء الأبناء وسلوكهم وتصرفاتهم المتغطرسة تهدد ماتبقى من لُحمة العائلة الأمريكية » .

وقدم جونسون صورة عن طبيعة هذا النوع من أبناء الجيل الجديد فقال : إنهم لا يقيمون وزنا لأية سلطة ويستخدمون الكلام البذيء ولا يحترمون أية أصول أو قيم اجتماعية وبالرغم من أن عدد الآباء الهاربين أكثر من عدد الأمهات ، إلا أن عدد الأمهات آخذ في الازدياد بشكل يبعث على الرعب .

وقال طبيب آخر . « في الماضي كان الأطفال أو الأبناء عموما عاملا مساعدا على تكوين الأسرة وتمتين روابطها ، فأصبحوا اليوم لعنة على تماسك الأسرة » .

وقدم الخبيران بعض النصائح للآباء والأمهات الذين يواجهون مثل هذه المصائب منها أن يلجأ الأبوان ومنذ صغر الأبناء إلى توضيح الحدود التي لا يُسمح لهم بتجاوزها ومن ثَم إنزال العقوبة بهم إذا تجاوزوها ، كما يجب على الوالدين عدم اظهار خلافاتهما أمام الأبناء وأن يحاولا أن يكون موقفهما موحَّدا تجاه أية مسألة تتعلق بالأبناء ، ثم عدم التوبيخ إذا تصرف الأبناء بالطريقة السيئة فهناك مؤثرات خارجية تؤثر في الأبناء لكن الأهم هو السهر على تربيتهم صغارا ...

عن جريدة الشرق الأوسط في ٢٨ من جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ « ٩ من مارس ١٩٨٦ م »

** حدّث جُندب بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « كان فيمن قبلكم رجل به جُرْحٌ ، فجزِع ، فأخذ سكّينا ، فحزّ بها يده ، فما رقأ الدم حتى مات ، قال الله تعالى : « بادَرَني عبدى بنفسِه ، حَرَّمتُ عليه الجنة » . أخرجه البخاري

فالإنسان الذي يستعجل الموت لنفسه بنفسه يحرِّم الله عليه الجنة لأنه استحل قتل =

متعددة ، وما أكثَرَ حالاتِ الانتحار في البلدان التي شاع فيها الفسادُ ، ونسيَت الله وحقوقه فأنْساهم الله مصالحَ أنفُسِهم ، ولم يَزِدْهم الانطلاقُ من حدود القيم والفضائل وتماديهم في الإلحاد إلا بُؤسا وفوضى ، فشاعت الأمراض التي استعصتْ على الطبِّ الحديث ، وكثُر رُوّاد المصحاتِ النفسية ، والعصبية ، كما كثُر الدجّالون ، ومَن يُسَمُّونهم المُعالجين الرّوحانيين ، وكثرت الجماعاتُ التي تحاول الهرب من المدنية المادية وضُغوطها النفسية ، وهذه الجماعاتُ تَهيمُ في الأرض ، أو تَتَّخذ من المناطق التي تكثُر فيها الأشجارُ مَرتعا ، أو يعيشون في الخرائِب داخلَ المدن ، وإن الموجة العارِمَة في أوساط الغلمانِ والشبانِ والشاباتِ هي اللجوءُ إلى المغيِّبات والمُفتِّرات بالسكر أو التخدير ، وقد استحدثوا لهذه المفتِّراتِ وسائلَ متعددة ، وكُلُّها وسائلُ هروبية من الواقع المؤلم المرير في إسار المدنياتِ الماديةِ التي تَسعىٰ جاهدةً لإشباع حاجاتِ الجسد ، وقتلتْ في الإنسان فِطرته النقية الطاهرة ، فصار يعيشُ بلا هدفٍ ولا غاية ، وما يُصبح فيه يُمسي فيه ، وكم من إنسان لجأ إلى الانتحار بعد أن أضْنَتْه همومُ التفكير في حياته التعسةِ التي لاهمَّ له فيها إلا أن يأكلَ ويشرَب ويرتَع كما تفعلُ الأنعام ، لايجد لنفسه ضَوابِطَ أخلاقيةً ، ولا يعيش لغاية روحية ، وليس لديه أملٌ في ثوابِ الحياةِ الأبدية ، ولا يَعْرف معنى القضاءِ والقَدر ، ولا معنى الصبْر عند المكروه ، ولا الشُّكر عند النعمة ، أمّا القَناعةُ والرِّضىٰ

= نفسه فكفر فيخلد في نهار جهنّم بكفره بعد إيمان ، وإن كان المنتحر كافراً عوقب بهذه المعصية زيادة على كفره والحديث أصل كبير في تعظيم قتل النفس ، سواء كان قتل نفسه أم قتل غيره ، لأن نفسه ليست ملكه هو بل هي ملك لله تعالى .

إن أحداً لايموت قبل انقضاء أجله ، وقد علم الله أن المنتحر يموت بالسبب المذكور ، ويختار هذه الطريقة فيعاقب لاختياره وقصده .

وانتظارُ الفرجِ بعد الشدة ، والتراحمُ والتعاطفُ والشفقة عند النعمة ، هذه الأمورُ التي هي الكنوزُ النفسيةُ الحقيقية فقد أصبحت لامكانَ لها في نفوس المُلحدين وسائرِ أنواع المادِّيين الذين كفروا بالله ، وجَحدوا ، ولم يعتصموا بدين الله عز وجل ، ولم يُحسنوا التدبُّر والتفكُّر في ملكوت السمٰواتِ والأرض ليرَوْا ضعْفَ الإنسان وعجْزَه وفقْرَه واحتياجه إلى خالقِ السمواتِ والأرض ، ومدبِّرِ أمور الكون ، وليدركوا بالتأمُّل أن الإنسانَ لم يُخلق عبثا ، ولم يُوجد لينطلقَ من حدود غرائزِه يفعلُ مايهواه ، ولكنه خُلِق لغاية أسمىٰ وأعظمَ من ذلك ، خُلق ليعلمَ أن له إلٰهًا خالِقا حكيما عليماً قادراً رحيماً بيده الأمرُ كلُّه ، وأنه لا ملجأ للإنسان إلا إليه سبحانه ، وأنه لا حولَ ولا قوةَ إلا به سبحانه وتعالى .

الإسلام وبناء الحياة وطمأنينة النفس :

إن الإسلام يجعل من معتنقيه قوةً بانية لأنه يدعوهم إلى طلب العلم النافع والعملِ لعمارة الحياة ، كما أن الإسلامَ يملأ قلوب معتنقيه طمأنينةً تِجاه الحوادثِ وتقلُّبِ الأحوال ، وتغيُّرِ الظروف ، إذ المؤمنُ الصحيحُ الإيمانِ ، القويُّ اليقين يتلقّى مايُصيبه من خير أو ضُرٍّ بنفس ساكنةٍ ، وقلبٍ مطمئنّ ، لأنه أولا يؤمن إيمانا جازماً بأنه لانافعَ ولا ضارَّ إلا الله ولا معطِيَ ولا حارمَ إلا الله ، وبأن الحياةَ والموتَ بيده سبحانه ، وبأن الصحةَ والمرضَ بيده ، وبأن الإنسان لايُصيبه إلا ماقَدَّره الله ، فالمؤمنُ لذلك يَرضىٰ بقضاء اللّهِ إذْ قضاؤُه نافذٌ في عباده ولا رادَّ له ، كما أن المؤمن يقنع بعطاءِ الله فهو شاكرٌ لربِّه على القليل والكثير راضٍ بما قَسم الله ، مُوقنٌ بعدْل الله ، مؤمنٌ بأن العبد سَيلقىٰ الله عز وجل فهو يرجو لذلك ثوابَ الآخرة على الصبر وعلى الشكر .. وكلما قَوِى إيمانُ المسلم ازداد طمأنينةً

وسكينة ، وكان أبعد الناس عن الأمراض النفسية والعصبيةِ التي يسببها الهلع والجزع وطغيان النفس الأمّارة بالسوء .

وكيف يجزع المؤمن أو يَسْخَط عند النقمة وهو موقنٌ بقول الله تعالى : ﴿ وإن يَمْسَسْك اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ له إلَّا هو وإن يَمسَسْك بخيرٍ فَهُو علىٰ كلِّ شيْءٍ قَديرٌ * وهُو القاهِرُ فوقَ عبادِه وهُو الحكيمُ الخبيرُ ﴾(١) .

إن اليقين بما جاء في هذه الآية الكريمة يملأ قلبَ أهلِ العقل والحكمةِ نورا وسكينةً ورِضىً وقَناعة إذ الغنَىٰ والفقرُ ، والصحة والمرضُ ، والقوةُ والضعفُ ، والقدرةُ والعجزُ كلُّ ذلك وغيرُه من الله وحده ، ونحن البشَر نشعر شعورا ضروريا بأننا لانملِك لأنفسنا شيئا ، وكم واحدٍ يكون في غاية الصحة والنشاطِ وينزل به الموتُ ! وكم واحدٍ ينام صحيحا مُعافىً ، ويستيقظ مريضا لايقوىٰ على الحركة ، وليس من اللازم أن يأخذَ شخصان بأسباب متماثلة لكسب العيش ونحوه فيصلا إلى غاية واحدة ، ويصيرا على درجة واحدة من الثراء أو العلم أو غيرهما ، ذلك أننا مقهورون تحت قدرتِه سبحانه ، فهو وحده الذي يدبِّر خلْقَه بما يريد ، ولا يستطيع أحد أن يخرجَ من تحت سلطانه وقهرِه وتقديرِه أوردّ تدبيره .

وإن مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ فلا كاشفَ له إلّا الله ، وإن أصاب الإنسانَ الخيرُ فهو من الله وحده ، فهو وحده القادرُ على دفْع الضر، وعلى إيصال الخير ، فالعاقلُ البصير هو الذي يلجأ إلى الله يستعيذُ به ، ويتضرعُ إليه ، ويتَّخذُه وليّاً ومُعينا وناصِرا ، مُوقناً بأن ماأصاب الإنسانَ لم يكن لِيخطئه ،

---

(١) الأنعام : ١٧ ، ١٨ .

وما أخطأه لم يكن لِيصيبَه .

ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ وأَنْ أقِم وَجْهَكَ للدِّين حَنِيفاً ولا تكونَنَّ مِن المشْرِكين * ولا تَدْعُ مِن دُون الله مَالا يَنْفعُك ولا يَضُرُّك فإنْ فَعَلْتَ فإنَّكَ إذاً مِّنَ الظَّالمِين * وإن يَمْسَسْك الله بِضُرٍّ فلا كاشفَ له إلا هُو وإن يُرِدْكَ بخيرٍ فَلا رادَّ لفضلِه يُصِيبُ به مَن يشَاءُ من عبادِه وهُو الغفورُ الرحيم ﴾(١) .

توحيد الله والاستقامة على دينه :

إن الله عز وجل يدعو عباده إلى الاستقامة على دين الإسلام لا ينحرفون عنه إلى دينٍ آخرَ . ولا يَميلون إلى مذهب فكريٍّ يناقض الإسلام ، ففي الاستقامة على دين الإسلامِ صلاحُ النفسِ وسعادتُها ، وقد أَكَّد الله على عباده ألّا يُشْرِكوا في عبادتِهم ربَّهم غيرَه إذ في عبادة غيرِ الله الهلاكُ والضياع ، والإنسانُ العاقلُ البصيرُ لاينبغي له أن يلتفتَ إلى غير الله بالكلّية ، إذ النفعُ والضرُّ بيد الله وحده ، وجلْبُ الخير ودفعُ الشرِّ بيده وحده ، فإذا دعا العبدُ غيرَ الله ، أو استغاث بغيرِ الله فقد فعل شيئا لامنفعةَ فيه ووبالُه عليه ، لأن مَن يستغيثُ بحجرٍ ، أو قبرٍ ، أو صاحب قبرٍ ، أو شمسٍ ، أو قمر إنما يستغيثُ بما لاتنفعُ الاستغاثةُ به أو عبادتُه ، وبما لايضرُّ المرءَ تركُ دعائِه وعدمُ الاستغاثةِ به* ، لأن الله وحدَه هو الذى يُغيث عباده ، ويُفَرِّجُ عنهم همومَهم ، وهو سبحانه معهم أينما كانوا ، وإذا

(١) يونس : ١٠٥ ــ ١٠٧ .

* أخرج أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قد جاء في الإنجيل : « ابنَ آدمَ أخلقك ، وأرزقُك ، وتعبُد غيرى ، ابنَ آدمَ أدعوك وتفرُّ منى ، ابْنَ آدم أرزقُك وتنساني ، ابنَ آدم اتَّق الله ثم نَمْ حيث شِئْتَ » أي من اتقى الله ملأ الله قلبه طمأنينة وأمن المخاوف .

أصاب الله عبادَه بشدة وبلاء فلا كاشفَ لذلك الضُرِّ إلا هو ، وإذا أراد الله بعبده خيرا ، وقدَّر له سعةً في الرزق ، أوفَهْماً في العلم ، أوقوةً في البدن ، أو غيرَ ذلك من وجوه الخير فلن يستطيع أحدٌ من العباد أن يردَّ فضْلَ الله على عبده أو يدفَع عنه رزقَه .

إن جميع الكائنات مُحتاجةٌ إلى الله ، وهو سبحانه القادر على كلّ شيْء ، وهو ذو الجود والكرم والرحمة ، وإن الإيمانَ بالله وبقضاء الله وقَدَرِه ، وبالبعثِ والحساب والجزاءِ على الأعمال ، وما يَتْبعُ ذلك من القناعة والصبر والشكرِ والاجتهادِ في الطاعات على طريق الإسلام لَمِن أعظم النِّعم ، إذ بها طمأنينةُ القلب ، وسكونُ الجوارح ، وخشوعُ النفس ، وسكينةُ الروح ، واتِّزانُ الشخصية ، وثقتُها فيما عند الله ، وبذلك تَصِحُّ نظرةُ الإنسانِ إلى الحياة وإلى الكون(*) .

(*) الله خالق كل شيْء :

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عزّ وجلّ : يُؤْذيني ابنُ آدم ، يسبُّ الدهر ، وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقَلِّبُ الليلَ والنهار » أخرجه البخاري .

وعنه أن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : « يَسُبُّ بنو آدم الدَّهرَ ، وأنا الدّهرُ ، بيدى الليلُ والنهارُ » . أخرجه البخاري ومسلم .

وفي رواية لمسلم بلفظ : « يُؤذيني ابنُ آدم ، يقول : ياخيبةَ الدهرِ ، فإنى أنا الدهرُ ، أقلِّب ليلَهُ ونهارَه » .

إن من يسب الدهر إذا أصابه مكروه يعَرِّضُ نفسه للأذى من الله عز وجل ، لأن الله عز وجل هو خالق الدهر ، وخالق الحوادث التي تكون فيه ، وبيده وحده الأمر ، وهو سبحانه الذي أوجد كلّ شيْء بقدرته ، وليس للدهر والزمان تأثير في شيْء أبداً ، والله عز وجل هو الذي يقلب الليل والنهار أي يُصرِّف الحوادث التي تكون فيهما .

وعند أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه : (لاتسبوا الدهر ، فإن الله تعالى =

اللهم إنا نسألك نفساً بك مطمئنّةً ، تُؤمن بلقَائِك،وتَرْضىٰ بقضَائِك ، وتَقْنَعُ بِعَطَائِك .

* * *

= قال : أنا الدّهر الأيام والليالى إلىّ ، أُجَدِّدُها ، وأُبليها ، وآتى بملوك بعد ملوك » .

إن الله عز وجل هو الخالق وهو الفاعل الحقيقي لما يصيب الإنسان وماالدهرُ إلا ظرف لمواقع هذه الأمور .

إن من يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس ، ويضيفون الحوادث إلى الدهر أو غيره من المخلوقات الكونية « الطبيعة » ماهم إلا حمقىٰ عميت بصائرهم ، وأغلقت عقولهم ، وطُمست أنوارُ الفطرة في نفوسهم .. إذ الدهر وسائر الكواكب والنجوم وغيرها مخلوقات مسخَّرة لما خلقت له لا تملك نفعا ولا ضرّا .

وهذا الحديث جاء لتصحيح العقيدة وتنوير القلوب ، ولحسن الأدب في اللفظ فلا يجوز لمؤمن أن يقول حين ينزل به الأمر يؤذيه ويضره : يابؤس الدهر ، وياخيبة الدهر أو نحو ذلك من السباب ـــ إذ الفاعل لجميع الحوادث هو الله وحده والزمان ظرف لها ، وسبُّ الدهر منهى عنه أشدَّ النهى لذلك ، والعاقلُ البصير لايسخط على قضاء الله ، ويجب عليه أن يتأدّب مع الله وإلا حلّ عليه غضب الله .

يقول في شرح القسطلاني جـ ٩ وجـ ١٠ : « فإذا سب ابن آدم الدهر على أنه فاعل لهذه الأمور ، عاد السب إلى الله سبحانه وتعالى لأنه الفاعل الحقيقى ، والدهر إنما هو ظرف لمواقع هذه الأمور » عن الأحاديث القدسية / الأزهر .

***

وفي جزاء تَلقِّى المؤمن المحن والبلايا بصبر واحتساب يقول الله عز وجل في الحديث القدسى : « إذا وجهت لعبد من عبادى مصيبة في بدنه ، أو ماله ، أو ولده ، ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييتُ منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا ، أو أن أنشر له ديوانا » .
أخرجه الديلمىّ عن علىّ

وهو من أخبار الآحاد ، وإن صح كان بمثابة الاستثناء لصاحب الصبر الجميل عند هذه المصائب من الحساب بشرط الإيمان والتقوى « والمشهور أن العقائد لا تثبت بأخبار الآحاد »
كلام النواوي على الإتحافات السَّنيَّة .

أعظم العقوبة أن يُسْلَب الإنسان معنى سمعه وبصره وأن يُختم على قلبه

قال الله تعالى من سورة الأنعام :

﴿ قُل أرأيتُمْ إنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكم وأبْصَارَكُم وَخَتَم عَلَىٰ قُلُوبكم مَّنْ إلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ثمَّ هُمْ يَصْدِفُون ﴾(١) .

أشرف أعضاء الإنسان :

القلبُ والسمعُ والبصرُ أشرفُ أعضاءِ الإنسان ، والقلبُ موضعُ الفكر ، والسمعُ آلةٌ لإدراك المسموعات ، والبصرُ آلةٌ لإدراك المبصَرات ، وهما يَعْرِضَان ذلك على القلب ، فيتدبّر ، ويعتبر .

وإن شرفَ السمع أن يتدبَّر مايُتْلىٰ عليه من آيات الله عز وجل ، وأن يُصغِيَ إلى النصيحة ، وأن يستمعَ إلى الموعظة راغباً فيها مقبلا عليها ، ليصلَ ذلك إلى القلب فيعِيَه ، ويتدبرَه ، وينتفعَ به .

بم يكون شرفها ؟ :

وإن شرف البصر أن يتأملَ آياتِ الله في الكون العظيم ، وأن يجولَ فيما يُحيط به من الأجسام ، والأجرام ، والألوانِ ، والأشكال ، متدبراً مستدلاً بما في المخلوقات من دلالة على الخالق العظيم ، وقدرته ،

---

(١) الآية : ٤٦ .

وعظمته ، ووحدانيته ، ويصل ذلك إلى القلب فيطمئنّ بالإيمان ، ويسكنَ إلى اليقين الصادق ، وبذلك يكون شرفُ القلب وكرامتُه إذ القلبُ يحيا بالإيمان ، وتكونُ كرامتُه بأنوار التوحيد النقى الخالص ، وصلاحُه بسلامة اليقين ، وإخلاصِ التوحيد ، وإذا صلَح القلب كان ذلك خيرا وبركة على البدن ، إذ تُكفُّ الجوارحُ عن المعاصى ، وتُقبل على الطاعات ، وتكونُ خيِّرةً منقادة للهدى والرشاد ، وفي الحديث الشريف : « ألا وإنَّ في الجسد مُضْغةً إذا صلَحتْ صلَحَ الجسدُ كلُّه ، وإذا فَسدت فسدَ الجسدُ كله ألا وهي القلب »

(من حديث متفق على صحته أخرجه البخاري ومسلم ورواه النعمان بن بشير) .

ومن الدعاء المأثور : « اللهم يامثبِّت القلوب ، ثبِّت قلوبنا على طاعتك » .

إذ القلوبُ تتقلَّب فإذا لعب بها الهوى ، وأغراها الشيطان ، وران عليها صدأ الغفلة ، والإعراضِ عن الهدى ، إن القلوبَ إذا أصابها ذلك ماتت ، وعمِيَت ، ولم تعقِلْ عن الله عز وجل ماأرسل به رسله من الهدى والخير ، ومن براهين القدرة والوحدانية ، وهذا هو معْنى الختم الذى به يكون عَمى القلب وتعطله وفسادُه ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم وعلى سَمْعِهِم وعَلَىٰ أبْصَارِهِم غِشاوَة ولَهُم عَذَابٌ عظيم ﴾[1] فالختم على القلوب كما يقول القرطبي : عدمُ الوعي عن الحق سبحانه مفهومَ مخاطباته ، وعدم الفكرِ في آياته ، والختم على السمع : عدمُ فهمهم للقرآن إذا تُلى عليهم أو دُعوا إلى وحدانيته سبحانه وتعالى ، والختم على الأبصار : عَدَمُ هدايتها للنظر في مخلوقات الله ، وعجائب مصنوعاته .

---

(١) البقرة : ٧ .

ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكونَ لهم قلوبٌ يَعْقِلُون بها أو ءَاذَانٌ يَسْمَعُون بها ، فإنَّها لا تَعْمىٰ الأبصارُ ، ولكنْ تَعْمىٰ القلوبُ التى في الصدور ﴾[1] .

فساد آلات الإدراك أعظم عقوبة :

إن المانع من الإيمان هو فساد السمع ، وفسادُ البصر ، وتعطُّل القلب ، إذ ماقيمة سمعٍ بلا وعى وتدبرٍ ورغبة في الفهم وحِرصٍ على معرفة الحق ، وماقيمةُ البصر إذا لم يَرَ مِن الأشياء إلا ظواهرَها ومنافعها المادية ، ولم يتدبر ولم يُطِل النظر مستدلاً بما في الكون من تضادّ بين الليل والنهار والسماء والأرض والبرد والحر والظلام والضوء وغير ذلك من المصنوعات الدالة على وجود الصانع ، ووحدانيته ، وقدرته ، وعظيم رحمته بالعباد .

إن أعظم عقوبة تنزل بالإنسان هى أن يُسلب معنى السمع ومعنى البصر ، وأن يُحرمَ الانتفاعَ بهذه الآلات لما هو أبقى وأنفع ، يقول الخازن : إذا تعطّل السمع والبصرُ والقلب اختل نظام الإنسان ، وفسد أمره ، وبطلت مصالحه في الدين والدنيا ، والمتأمل لقوله تعالى : ﴿ قُلْ أرأيتم إنْ أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم مَّنْ إلٰه غير الله يأتيكم به ﴾ من تأمل الآية يراها تدل على وجود الصانع الحكيم المختار ، وتقريرُه : أن القادر على إيجاد هذه الأعضاء وأخْذِها هو الله تعالى المستحق للعبادة لا الأصنام والأوثان التى تَعبدونها من دون الله ، وهو قوله تعالى : « مَنْ إلٰه غير الله يأتيكم به » يعنى يأتيكم بما أخذ الله منكم ، لأن الضمير في به يعود على معنى الفعل ، ويجوز أن يعود على السمع الذى ذُكر أولا ،

---

(١) الحج : ٤٦ .

ويندرج تحته غيره كالبصر .

وفي تعليق ابن الجوزي على الآية الكريمة يقول : إن كان المقصودُ بالآية نفسَ السمع والبصر ، فإن السمع آلة لإدراك المسموعات ، والبصرَ آلة لإدراك المبصَرات فهما يَعرِضان على القلب ، فيتدبر ، ويعتبر .

فإذا عُرضت المخلوقات على السمع والبصر أَوْصَلا إلى القلب أخبارها من أنها تدل على الخالق ، وتحمل على طاعة الصانع ، وتحذر من بطشه عند مخالفته .

وإن كان المقصود معنى السمع والبصر ، فإن ذلك يكون بذهولهما عن حقائق ماأدركا شُغْلاً بالهوى ، فيعاقب الإنسانُ بسلب معانى تلك الآلات ، فيرى وكأنه مايرى ، ويسمعُ وكأنه ماسَمع ، والقلبُ ذاهلٌ عمّا يتأدّى به ، لايدرى مايُراد به ، لا يؤثر عنده أنه يَبْلىٰ ولا تنفعُه موعِظةُ « تجلّى » ، ولا يدرى أين هو ، ولا ما المرادُ منه ، ولا إلى أين يُحمل ، وإنما يلاحظ ـــ هذا القلبُ الغافل المطموس ـــ يلاحظ بالطبع مصالحَ عاجلته ، ولا يتفكرُ في خسران آجلتهِ ، لا يعتبر برفيقه ، ولا يتعظ بصديقه ، ولا يتزود لطريقه ، كما قال الشاعر :

النّاسُ في غَفْلةٍ والموتُ يُوقظهم ... ومايُفِيقون حتى يَنْفَدَ العُمر
يُشيِّعون أهاليهم بجمْعهم ... ويَنظرون إلى مافِيه قد قُبِروا
ويَرْجعون إلى أحلام غَفلتهم ... كأنّهم مارأوْا شيْئاً ولا نَظروا

وهذه حالةُ أكثرِ الناس ، فنعوذ بالله من سلب فوائد الحواسِّ والآلاتِ ، فإنها أسوأُ الحالات .

وقولُ ابن الجوزي : ولا تنفعه موعظةُ « تَجلَّى » ، فيه إشارة إلى قوله

تعالى : ﴿ فلمَّا تَجلَّى ربُّه للجبل جعله دكّاً وخرَّ مُوسىٰ صَعِقا ﴾[1] أى إن المرء الذى يُختم على قلبه لايوقظه وعظ ، ولا تحييه عِبرةٌ ، ويعيش أسيرَ هواه لا يعرف إلا مايشمّه أنفه ، وتبطش به يدُه ، وتراه عينُه ، وتسمعه أذناه ، ويذوقه لسانُه ، أما ماوراء هذه الماديات من معانى وعبر ومافيها من دلالات على الصانع سبحانه وتعالى ، وبراهين على قدرته ، فإن القلب الأعمى يظل بعيداً عن الهدى والإدراك الحقيقى الذي يؤدي بالمرء إلى سعادة الدارين .

ذم المعرضين عن التفكّر الصحيح :

ولذا ذم الله عز وجل هؤلاء الذين لايعتبرون بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقَدَرِهِ وآياته إذ قلوبُهم مُعرضة عن تدبر الآيات الدالة على توحيده سبحانه ، وعلى صدْق أنبيائه فيما بلغوه عن ربهم ، ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ وكأيِّنْ مِّنْ ءايَةٍ في السَّمٰوات والأرض يمرُّونَ عليها وهمْ عنْها مُعْرِضُون * وَمَا يُؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مُّشركون ﴾[2] .

إن الإنسان مَعْنى قبل أن يكون مادةً ، ورُوحٌ قبل أن يكون جسما ، وليست قيمة الإنسان في هذا الجسم المادىّ ، وإنما قيمته في المعانى الروحية السامية التى تصله بالملأ الأعلى بنور الإيمان والهدى وبحلاوة الطاعة ، وذوقِ الانقياد والخضوعِ للمنعم الوهاب .

قال لقمان : إن طولَ الوحْدة أَلْهَمُ للفكرة ، وطولَ الفكرة دليلٌ على طرق باب الجنة ، وقال الدارانى : إنى لأخرُج من منزلى فما يقعُ بصرى على شيْء إلا رأيت لله علىَّ فيه نعمة ، ولى فيه عبرة ... فطوبى لمن تفكر ووعى وعلم الحق وعمل بما علم .

---

(١) الأعراف : ١٤٣ .   (٢) يوسف : ١٠٥ ، ١٠٦ .

تأمّل ..
وقلْ : سبحان الخالق العظيم

الكونُ كتاب ناطق بوجود الله ووحدانيته :

الله عزّ وجلّ هو الذي رفع السماءَ بقدرته وتدبيره « بغير عَمَدٍ تَروْنها » ، وهو الذي ذلّل الشمس والقمرَ لمنافعِ الخلق ومصالح العباد إلى أن يشاء الله ، وهو سبحانه الذي يدبر الأمور ، ويصرفها على مايريد ، ويفصِّل الآيات لعباده ويبينها رحمة بهم لكى يلتفتوا إلى أن الحكمة اقتضت تكليف البشر وابتلاءَهم ليجْزَوا على ماقدّموا بعد أن يُبعثوا وتَنتهى الحياة الدنيا .

وأمامنا الأرض نَراها مبسوطةً طولا وعرضاً ، ونرى فوقَها جبالا ثوابت تحفظ توازن الأرض ، وتضبطُ حركتها ، ثم إن هذه الأنهارَ الجارية ، والعيونَ الفوارة ، والبحارَ والسفن فوقها كالقصور .. ألا يدلّ ذلك كلُّه على كمال قدرة الخالق العظيم وكمالِ حكمته ، وأن البعثَ أمرٌ لا ريب فيه .

ثم لنتأملْ الثمراتِ وألوانَها وأشكالَها وطُعومَها ، ثم التقابلَ بين الحُلو والحامض ، والرّطْب واليابس ، والصغير والكبير ، وغير ذلك مما نراه من عجائبَ فى عالم النبات ومافيه من منافع للعباد ، ومافيه من براهين القدرة وآيات الرحمة .

ثم هلّا تأملْنا البساتين وفكّرنا فيما فوق الفروع والغصون من أشكال وألوان ، فالبستان يُسْقَى بماء واحد ، ويخضع لمناخ واحد ، فلماذا تختلف

الثمراتُ بين نخيله في المذاق واللون والحجم مع أن نور الشمس وضوء القمر ينبسطان على الجميع على نسق واحد .. هلا نظرنا إلى الغصن الواحد ، وهو يحمل ثمراتٍ بعضُها أكبرُ من بعض ، والمذاقُ يختلفُ بين بعضها أحيانا .

ثم لنتأملْ النخلات أو النخلتين يجمعهنَّ أصلٌ واحد تتشعب منه رؤوسٌ فتصير نخيلا ويسقيها ماءٌ واحد ، فإذا تأملنا ثمراتِها وجدنا الاختلافَ في اللون والطعم .

الآيات تنير للعقل طريقه :

إن في ذلك ماينير للعقل طريقه ، ويرشدُه إلى اليقين الصادق بأن لهذا الكون إلها قادراً حكيما مدبّرا تجرى كلُّ الأمور بمشيئته وتقديره وحده ، كما أن في هذا كله أدلَّ دليلٍ على وحدانية الله ، وعظيم سلطانه وكمالِ قدرته ورحمته .

وفي حياة البشر :

ثم لنتأمل جانبا من حياة البشر .. ألا نرى الأخوين أو الإخوة من أب وأم وتختلف بينهم الطباعُ والأمزجة ، كما يتفاوتون في الطول والقصر ، والصلاح والخُبث ، والكفر والإيمان ، وفي الميل إلى الخير والشر تماما مثل اختلاف الثمار التى تُسقى بماء واحد ، وحتى أهلَ الصلاح منهم ليسوا على درجة واحدة .

يقول الشاعر :

الناسُ كالنَّبْتِ والنَّبتُ ألوانُ منها شجرُ الصندل والكافور والبان
ومنها شجرٌ ينضَحُ طولَ الدّهر قَطْران

لنتأمل .. ولنفكّر دوما ليزداد المؤمن إيمانا ، ولينموَ يقينُه دوما ، ولكي يعودَ الغافلُ الشاردُ إلى الحق احتراما للعقل الذي ميَّز به الله الإنسان عن سائر الحيوان ، ثم خاطب الإنسانَ عن طريق عقله ، ولنتدبر : ﴿ وفي الأرضِ قِطعٌ مُّتجَاورات وجنَّاتٌ مِّنْ أعنابٍ وزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقَىٰ بماءٍ واحدٍ ونفضِّلُ بعْضَها عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُل إن في ذَلك لآياتٍ لقَوْم يَعْقِلُون ﴾(١) .

آيات الكون ناطقة بوجود المدبّر الحكيم :

إنَّ الكونَ من حولنا بما فيه من آياتٍ باهرات ، مثل : الشمسِ والقمرِ والليل والنهارِ ، والسماءِ والأرض ، والزروع والثمار ، والدوابِّ على اختلافها ، والتنوع في التُّربة مابين خصْبة وسَبِخةٍ ، وصفراءَ وحمراءَ وغَبْراءَ وغيرِ ذلك من الآيات لينطقُ كلُّه بوجود الخالقِ الحكيمِ القادرِ الواحد .

ثم لنتأمل مافى آيات الكون من انسجام وانتظام وسُنن تجرى بمقادير فللقمر مكانُه من هذا النظام الكوني البديع ، والشمسُ تجرى لمستقرٍّ لها ، وإن الشمس لا تدرك القمرَ ، والليلُ لا يَسبق النهارَ بل لكل آيةٍ وظيفتُها ومكانُها وكلُّها تتناسقُ بِسُنَنٍ خَلَقها الله وقدَّرها لمنافعِ العباد ، ولِمَا اقتضتْه الحكمةُ الإلٰهية من إيجاد الأرضِ وما عليها ومَنْ عليها .

إن هذا التناسقَ والانسجامَ لمِن الآيات الشاهداتِ بعظمةِ الخالق وكمالِ قدرته ، وسَعَة سلطانِه ، وعظيم رحمته .

ثم لنفكِّر .. ماذا يحدث لو أن الأجْرام السماوية تصادمت ؟ أو أن

---

(١) سورة الرعد : ٤ .

القمر هبط عن منازله المقدرة له ؟ أو أن الشمس تغير وضعها في هذا النظام ؟

تأمل أيها الإنسان ، وقل : سبحان الخالق العظيم ، الواحدِ الأحدِ الذي خلق كل شيْء وقدره تقديرا : ﴿ قُل اللّهُ خالقُ كلِّ شيْءٍ وهو الواحدُ القهّار ﴾[1] .

أيكون عاقلا مَن يقول : أوْجَد هذا الكونُ نفسَه ؟ وإذا كان الأمرُ كذلك ، فلماذا لم تُوجد أكوانٌ أخرى نفْسَها على تطاول الدهور ؟ وكيفَ يَحْفظُ هذا الكونُ تناسقه وانسجامه كى تستقر الحياة إلى أن يشاء الله ؟

البعث آتٍ والحسابُ والجزاء :

تأمل نفسك أيها الإنسان ، وتأمل كل ذرة في الكون من حولك ، فكلها تسبح بحمد ربها ، وإن كنا لا نفقه تسبيح سائر المخلوقات من حولنا .

إن الخالقَ العظيمْ الذي أوجدنا ، ورزقنا ، وهدانا ، وأرسل لنا الرسل ، وأنزل عليهم الكتب ، سَيُحيينا بعد الموت ، وسيحاسبنا على كل صغيرة وكبيرة ، تشهد لذلك آيات الله فى كتبه إلى رسله ، وتشهدُ بذلك كلُّ آية في نفس الإنسان ، وكلُّ آية في السماء وفى الأرض : ﴿ أوَ لَمْ يَرَوْا أنَّ الله الذي خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أنْ يُحْيِيَ المَوْتَىٰ بَلَىٰ إنّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قدير ﴾[2] .

---

(١) سورة الرعد : ١٦ .

(٢) سورة الأحقاف : ٣٢ ، ٣٣

عُمُرك رأس مـــالك ..
فتدبّر أمرك ولاتغـفـــل

أثمنُ ما يملك الإنسان أيامَه التي يعيشها على الأرض ، وعُمر المُكلَّف هو رأسُ ماله ، وفيه يقعُ ربحُه أو خسارتُه ، وفي مرور الأيام والليالي على الإنسان عِبرٌ وعظات ، منا مَنْ ينتفع بها ، ومنا من يغفلُ عنها ، ويظلُّ هائما على ضلاله ، لاينزجر عن قبيح ، ولا يقبل على خير ينفعُه بعد انقضاء الأجل .

وكم في الدهر من عبر ، وكم في الزمن من آيات بينات لمن وَعَىٰ وتدبر ، لمن حاسب نفسه قبل أن يحاسَب ، لمن يراجع أعماله ويزنُها قبل أن تُوزن عليه ، فإذا وجد خيرا حمد الله ، وازداد من الخير ، وثبت على الصراط المستقيم ، واذا وجد تقصيرا تدارك أمر نفسه قبل فوات الأوان .

محاسبة النفس :

إن كل واحد ينبغي له أن يخلوَ لنفسه ، إن نفوسنا هي أعز شيْءٍ علينا ، ينبغي لنا أن نُراجعَ مانحن عليه دوما ، قبل أن يضيع الوقت ، ويذهبَ العمر ، وينقضيَ الزمن ، إن أخطر شيْءٍ على الإنسان ألا يجول فكره فيما ينفعُه لمعادِه ، وأن يحصر همه وتدبره في دنياه المحفوفة بالآلام والمكاره ، والتي لاتكادُ تصفو حتى تتكدر .

الاتعاظ بمرور الأيام :

ومن سوء تدبير الإنسان لنفسه أن يعطل وقته عن استدراك ما فرط منه وضاع عليه هباء بلا منفعة ، وعن اغتنام بِرٍّ وخير وقُربة تنفعه في يوم الهول الأعظم ، إن في إضاعة الوقت فسادا وضُرا ، وإن العاقل البصير هو الذي يبحث عن الحق ، ويستثمرُ ساعاتِه فيما يَعْنيه ، ويُنفق عمره فيما يعود عليه بصلاح دينه ودنياه ، وأعظم الصلاح وأنفعُه وأدومه خيراً أن يعرف الإنسانُ ربَّه ، ويوحدَه ، ويطيعَه ، ويتبعَ دينه ، ويصدقَ بجميع أنبيائه ورسله وخاتمهم النبيِّ محمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم جميعا ، إن الذي لا يتعظ بمرور الأيام ، وكرِّ الليالي ، وتوالي الشهور والسنين يحيا خبيث النفس ، ضيقَ الصدر ، ويضيعُ عمره هدرا مهما كان نجاحه المادي ، إذ المادةُ فانية ، والباقي هو العملُ الصالح ، والعقيدةُ الصحيحة ، والإيمانُ الخالص من كل شوائب الشرك والشك .

وقد نبَّه الله عز وجل عباده إلى تعاقب الأيام ، كيلا يغفل الإنسان عما ينفعُه ، وليتذكَرَ فيعلمَ أن الله لم يخلقه عبثا ، ولم يتركه سُدى ، فيعتبرْ بما في مصنوعات الله من براهينَ على قدرته ورحمته ، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم ، وعلينا أن نتدبر ونتأمل قوله تعالى : ﴿ وهُو الذي جعلَ الليلَ والنهارَ خِلْفَةً لِّمن أرادَ أن يذكَّر أو أرادَ شُكورا ﴾(١) أى لمن أراد أن يتذّكر ، ويتعظ ، فيتوب الكافرُ ، ويرجعَ الملحدُ ، ويندم المشرك ، ويبكى العاصي ، ويجتهدَ المقصر ، ويزدادَ الصالحُ من الصالحات ، ومن فضل الله ورحمته بالعباد أنه سبحانه فتح لهم

---

(١) الفرقان : ٦٢ .

أبواب الرجاء مهما بلغت معاصيهم فإنهم إذا عادوا نادمين عازمين على الاستقامة والثبات على دينه الحق ، واجتنابِ المعاصي فإن الله عز وجل يغفر لهم ، ويطهرهم من أدران الشرك والإلحاد والمعاصي ، ويبدلُ سيئاتِهم حسنات وما أعظم فضلَ الله ، ورحمته بالعباد : ﴿ أَفَلا يَتُوبُون إلى الله وَيَسْتَغْفرونه والله غفورٌ رَّحيمٌ ﴾[١] ﴿ فمن تَاب مِن بعْدِ ظُلمِه وأصلحَ فإنَّ الله يتوبُ عليه إنَّ الله غفورٌ رحيم ﴾[٢] .

عمرُ الإنسان هو كنزه :

لقد أقسم الله عز وجل بالعصر في كتابه العزيز تنبيها لما فيه من العِبر ، وتقويةً لشعور الإنسان بهذه الثروة الغالية الثمينة إذ عمْرُ الإنسان هو كنزُه ، وهو رأسُ ماله ، إن حافظ عليه وتاجَر فيما ينفعُه ربح ، وإن ضيع وبدّد ، وسدر في الغيّ ، ولم يجُل فكرُه في آياتِ الله وبراهينِ حكمتِه ، خسِر خسرانا مبينا ، ولنتدبر : ﴿ والعصرِ * إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْر * إلَّا الَّذين آمنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ وتَواصَوْا بالحقِّ ، وتواصَوا بالصَّبرْ[٣] ﴾ فأقسم سبحانه بالعصر الذي هو الدهر والزمنُ لمكان العبرة والآية فيه ، فإن مرور الليل والنهار على تقدير قُدرة العزيز العليم ــ جل شأنه ــ منتظم لمصالح العالَم على أكمل ترتيب ونظام ، وتعاقُبهما ، واعتدالَهما تارة ، وأَخْذَ أَحدِهما من صاحبه تارةً فيطول الليلُ أحيانا ويقصر النهار ، ثم يقصرُ الليل ويطولُ النهار ، مع اختلافهما في الضوء والظلام ، والحرّ والبرد ، وانتشار الحيوان وسكونه ، هذا إلى جانب انقسام العصر إلى القرون ، والسنين ، والأشهر والأيام ، والساعات ومادون الساعات .. في كل ذلك آية من آيات

---

(١) المائدة : ٧٤ .　　(٢) المائدة : ٣٩ .　　(٣) العصر : ٣

الربِّ سبحانه وتعالى ، وبرهانٌ من براهين حكمته وقدرته .

كما أنّ في الإقسام بالعصْر تَنبيها لما فيه من الأعاجيب إذ فيه يحصلُ السراء والضراء ، والصحةُ والسّقم ، والغنى والفقر ، وإنّ في تصرّف الأحوال وتبدلها ماينبهُ المتدبرَ إلى أن ذلك كلَّه يجرى بقدرة الإلٰه الواحِد الأحد .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « أقسم الله بالعصر أي الدهر لما فيه من العبر والعجائب للناظر » أي إن المتدبِّر والمتأمِّل في الزمن وما يجرى فيه يَرىٰ في ذلك براهينَ على وجود الخالق المدبِّر الحكيم ، وإذا نفعته العِبرةُ استقام على طريق الهدى ، إذ السعادةُ الحقة إنما تكون في طلب الآخرة ، وفي إعداد النفس لها واتخاذِ الدنيا مطيةً ومزرعة للحياة الأبدية ، مع سعْي الإنسان لعمارة الحياة ، وترقيةِ أحواله ، وتوجيه قواه وطاقته وجهةَ النفع والخير والرشاد .

ولنتأمل جواب القسم في سورة العصر : ﴿ إن الإنسان لفي خُسر * إلا الذين آمنُوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

لنرى مايدلُّ عليه هذا الجواب ، وما يلفت الإنسانَ إليه ، ليكون على بيّنة من أمره ، إذ المرادُ بالإنسان في الآية جنسُ الإنسان ، وإنّ الإنسان يكون في خسران وهلكة ونقصان إذا ضيّع عمره فيما لايعود عليه بالخير في آخرته ، فهذا هو الخاسر حقا ، إذ أعمال الإنسان هي مصدر شقائه لا الزمان ولا المكان ، ولذا استثنت السورة أهل العقل والحكمة المؤمنين الصالحين « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح فهؤلاء في ربح لا في خسر ، وباجتهادهم في الطاعات ، وحرصهم على الزيادة من المبرّات يكونون دوما في زيادة من الخير والربح ،

ومن سمات هؤلاء الصالحين الناجين أنهم يُوصى بعضُهم بعضا بالإيمان بالله ، وبالتوحيد ، وبالقيام بما شرعه الله لعباده ، وباجتناب مانهى عنه ، كما يوصى بعضُهم بعضا بالصبر على أداء الفرائض ، وإقامةِ أمر الله وحدوده ، وبالصبر عن معاصيه سبحانه وتعالى ، والصبر على الشدائد والبلايا ومجاهدةِ النفس والشيطان .

ساعات عمرنا محسوبة علينا أو لنا :

إن أمارات السعادة ، وعلاماتِ الخير في الإنسان ، وسماتِ صلاحه إنما تكون في إيمانه الصحيح ، وفي تمسكه بالدين الحق الذي به نجاتُه وفوزُه في الآخرة ، وفيه طمأنيتُه وسكينته في الدنيا ، وإن ساعاتِ عمرنا ودقائقَه محسوبةٌ علينا أوْلنا ، إذ الإنسانُ يكون مغمورا في الخسران إذا صرف عمره في المعاصي ، وضيع حياته متعلقا بدنياه ، شغوفا بها ، ساعيا لها مجدًّا غير آبهٍ بالبعث والحساب والجزاء .. وما أعظمَه من خسران ! ، وإن الإنسان الذي يشغل ساعاتِ عمره بالمباحات ويقضي حياته بلا طاعات فخسرانُه حاصل ، وندمُه واقع ، وحسرتُه عظيمة يوم يرى عاقبةَ التفريط فيما فرض الله عليه من الطاعات ، وحثَّه عليه من الفضائل والعبادات ، وإن كل ساعة يَشْغَلُها الإنسانُ في الطاعة والبرِّ والخير لهي أبركُ ساعات عمره وأشرفُها ، ومن سعادة الإنسان أن يأتيه الموت وهو مقيم على طاعة الرب ، ونورُ التوحيد يملأ قلبه ، وحلاوةُ الذكر والحمدِ تجرى على لسانه ، وفي عينيه نورُ التأمل والتدبر في مصنوعات الله الدالة على وجوده وقدرته ورحمته ووحدانيته سبحانه وتعالى .

لا عيب في الزمن :

إن الزمان لايعاب ، وإنما العيبُ إذا كان فهو في أعمال الإنسان

ومعتقداته الباطلة ، ومسالكه الشريرة ، ونفسه الخبيثة ، أما الإنسانُ المؤمنُ الصالح النقيُّ التقي السليمُ الصدر من آفات الحسد والكبر والحقد والبغضاء ، الطاهر الذيل ، الذى جاهد نفسه وعدوَّ دينه ، وأطاع ربه ، وأدى فرائضه ، واقتدى بنبيه ، وبكى على ذنبه ، وسابق إلى الخيرات ، ونافس في المبرات ، فهذا هو الذي ربح خيرى الدنيا والآخرة ، فطوبى لأهل الإخلاص والمحبة المتعاونين على الخير ، المتواصين بالحق ، والمتواصين بالصبر .

وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ورواه ابن عباس ، يقول النبي ﷺ : « نعمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس : الصحةُ والفراغ » .

فكل إنسان لايستعمل هاتين النعمتين فيما ينبغي مسترشدا بالدين وهدايته فقد ظلم نفسَه لكونه باعهما ببخس ، ولم يُحمد رأيه فيما فعل ، إذ الدنيا مزرعةٌ للآخرة ، وفيها التجارة التي يظهر ربحُها في الآخرة ، فمن استعمل صحته ووقته في طاعة الله وفيما ينفعه فهو المغبوط السعيد ، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون الذي بخس نفسه ، وخسِر عمره .

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب يعي ، وعقلٌ يتدبر ، ونفس ترجو السعادة الحقة ، وتسعى إلى الخير الدائم لا إلى العَرَض الزائل وحسب .

* * *

المكابرة والعناد
هلاك وضياع

قصة وسؤال :

جاء أُبيٌّ بنُ خلف الجمحي إلى رسول الله ﷺ ومعه عظْمٌ بالٍ ، فقال : يامحمد أترى أن الله يُحْيي هذا بعد مارمَّ ، فقال له النبيُّ ﷺ : « نَعم وَيبعثُك الله ويُدخلك النار » ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ أَو لَمْ يَرَ الإنسانُ أنَّا خَلَقْنَاه مِن نُطْفَة فإذا هُو خَصيم مُّبين * وضَرَبَ لنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَه قال مَن يُحْيي العِظامَ وهي رَمِيم * قُلْ يُحْيِيها الَّذى أَنشأَها أوَّل مَرَّةٍ وهُو بكلِّ خَلْقٍ عَليم ﴾[1] .

قوة الإنسان في إذعانه للحق :

إن قوة الإنسان إنما تكونُ في حياة قلبه ، وذكاء لُبِّه ، وإذعانِه للحق إذا ظهر ، وانقيادِه للدليل إذا بَهر ، مثلُ هذا الإنسان الحيِّ القلب الذكيِّ الفؤاد ، النقيِّ السريرة ، تنفعُه الموعظةُ عند الغفلة ، وتردُّه إلى الرشاد العبرة ، ولا يحتاج في الإذعان للحق إلا إلى التذكرة .

لقد أسلم ملايين من البشر بعد كُفر ، واهتدَوا بعد أن كانُوا في ضلال وآمنوا بالحق بعد أن عاشوا على الباطل زمانا ، ذلك لأنهم لم يَحجُب عن

---

(١) يس : ٧٧ : ٧٩ .

قلوبهم الخيرَ والهدى ضلالُ الحقدِ والحسد ، ولاضلالُ العنادِ والمكابرة ، ولا ضلالُ السطوة والجاه والاستعلاءِ إذ إن هذا الضلالَ هو الذي يطمِس نورَ الفِطرة النقيةِ في القلب ، ويحجبُ أنوارَ الدليلِ عن الوصول إلى تغيير الاتجاهِ الفاسد ، والاعتقادِ الباطل لدى المخذولين وإن هَزَّ الدليل تفكيرَهم ، وقام في نفوسهم شاهداً على بُطلان ماهم عليه ، ولكنهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، وهذا من سوء حظِّ صاحبه ، وخيبته وخسرانه ، والحقُّ تبارك وتعالى يقول لنبيه : ﴿ إنَّكَ لا تَهْدِى مَن أحببْتَ ولٰكنَّ الله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾[1] .

إن أُبَيَّ بنَ خلف الذي أَنكر البعثَ وآذى النبيَّ ﷺ كان واحدا من المكابرين ، وكان القرآنُ الكريم يَهزُّ كلَّ مافي نفوسِهم من أباطيل ويُزلزلها زِلزالاً ، وكانوا يُوقنون بصدق الداعي ، وبصدق ماأخبر به ، ولكنهم مع ذلك عانَدوا وكابَروا وأهلكوا أنفسَهم ، وعلينا أن نتدبر قول الحق تبارك وتعالى لنبيه : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إنَّه لَيَحْزُنُك الَّذى يقولُون فإنَّهم لا يُكَذِّبونَك ولكنَّ الظالِمينَ بآياتِ الله يَجْحَدون ﴾[2] أي ولكنهم يعاندون الحق ، ويدفعونه بصدورهم ، هوىً في نفوسهم ، فمنهم الحاسدُ الحاقد ، ومنهم المتكبرُ المتغطرس ومنهم التابعُ الذليل الذى ألغىٰ وجودَ نفسه وتابعَ سادتَه وكبراءَه على أهوائهم ومشارِبهم وكفرهم .

إن أُبَيَّ بنَ خلف الذي ضرب المثَلَ للرسول ﷺ بالعِظام النَّخِرة مستبعِدا في سؤاله للنبي ﷺ أن يعودَ صاحبُ هذه العظام إلى الحياة مرةً أخرى ، إن هذا الجاهلَ الأحمق واحدٌ من ملايينَ في كل عصر تُناديهم

---

(١) القصص : ٥٦ .   (٢) الأنعام : ٣٣ .

الفطرة من أعماقهم بوجود الله عز وجل وبقدرته وبوحدانيته ، وبأن حياةَ الإنسان لايمكن أن تنتهيَ بالموت ، ومع ذلك غطّىٰ الجهل على قلوبهم ، وسدروا في غيهم جريا وراء دنيا ، كلُّ مكابر منهم ينظر إلى المتعة فيها من زاوية تناسبُ هواه ، وهذا الصنفُ من الناس تَهَكَّم بهم القرآن الكريم ، وعاب غباءهم وسوءَ تدبيرهم لموت قلوبهم ، حتى صارت لاتَعي ولا تفهم مايُعرض عليها من خيرى الدنيا والآخرة ، ولنتدبر قوله تعالى لنبيه يسلّيه ، ويهوِّن عليه مايلقاه من جحود ونكران وأذى يقول سبحانه : ﴿ إنَّما يَستجِيب الَّذين يَسمعون والموتىٰ يبعثهم الله ثم إليه يُرجعون ﴾(١) .. وقد شبه الله عز وجل الكفار بموتى الأجساد ، لموت قلوبِهم وعمَى بصائرِهم ، كما قال سبحانه : ﴿ وما علَّمناه الشعرَ وما يَنبغي له إنْ هُو إلا ذِكْرٌ وقُرآنٌ مُّبين * لّيُنْذِرَ مَنْ كانَ حيّاً ، ويحقَّ القولُ على الكَافِرين ﴾(٢) أى إن القرآن الكريم ينفع التذكيرُ به من أراد الله به خيرا وهدى ، ممّن كان حَيَّ القلبِ عاقلا ، وتجب الحجةُ بالقرآن على الكفرة الذين جحدوا « ويحق القولُ على الكافرين » .

وجودنا دليل على أن البعث بعد الموت حق :

وإن أُبَيَّ بنَ خلف وأمثاله ممَّن يُنكرون البعثَ كيف يَنْسَون أن الله عز وجل أنشأ كلَّ واحدٍ منهم من نُّطفة ميتةٍ فركَّب فيها سبحانه الحياة ثم صار الإنسان على هذه الصورةِ البديعة ، فجوابُ المُلحد والمُنكر من نفسِه حاضرٌ ، ولهذا قال النبي ﷺ للمنكر : « نعم ، ويبعثُك الله ويُدخلك النار » فالذي خلقه هو الذي سيبعثُه ، ولذا فإن المنكر عاد وقال للنبي

---

(١) الأنعام : ٣٦ .

(٢) يس : ٦٩ ، ٧٠ .

ﷺ : « أرأيتَ إن سحقتُ هذه القطعةَ من العظْم وأذْريتُها في الرِّيح أيُعيدها الله تعالى ، فنزلت : « قل يُحْييها الذي أنشأَها أوَّل مرّة » فهو سبحانه أنشأها من غير شيْءٍ فهو قادر على إعادتها في النشأة الثانية من شيْءٍ ، « وهو بكل خلْق عليم » أي كيف يُبدئ ويُعيد .

ولنتدبر قوله تعالى من سورة عبس : ﴿ قُتِلَ الإنسانُ ماأَكْفَره ﴾ .(١) وفي هذا تعجيبٌ من حالِ الكافر إذ يكفر بالله وهو يتقلّب في نعمته ، ولو تأمَّل المرءُ في خلْقه أطوارا : نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى غير ذلك من أطوار التكوين حتى صار إنسانا سويّا ، ولو سأل الجاحدُ نفسه : مَن الذي ربّاه في بطن أمّه ؟ مَنْ الذي سهل له طريق خروجه من ظلام الرحم إلى نور الحياة ثم سهّل له طريق العلم ليعرف الحق من الباطل ، لو سأل الجاحدُ نفسه سؤالَ المتدبر العاقِل الحكيم لأغناه ذلك عن الضلال والعناد ، إذ آياتُ القدرة قائمةٌ في نفسه وفي خَلْقه ولنتدبر : ﴿ وهو الذي يبدأُ الخلْقَ ثُمّ يُعيده وهو أَهْوَنُ عَليه ﴾(٢) سبحانه وتعالى جلّ شأنه هو : ﴿ الذي جَعَلَ لكُم مِّن الشَّجر الأخضَرِ ناراً فإذا أنتم مِّنه تُوقِدون ﴾(٣) وهي آية شاهدةٌ بوحدانيته ودالّةٌ على كمال قدرته في إحياء الموتى ، وفي المثل العربي : في كل شَجر نارٌ واستمْجَدَ المرخُ والعَفار ، إذ المرخُ والعفار كانت زنادةَ العرب ، فالعفارُ هو الزندُ والمرخُ هو الزندةُ وهي الأسفل يؤخذ منهما غصنان مِثْلُ المسواكين يقطران ماء ، ويقدح المرءُ أحدهما بالآخر فتتولد منهما النار ، فتأمل : كيف يخرج الضدّ من الضد ، فالعود النّديّ الرطبُ تخرج منه النار ، فسبحان المدبر الحكيم .

---

(١) عبس : ١٧ . (٢) الروم : ٢٧ . (٣) يس : ٨٠ .

ومن الآيات الدالة على البعث :

ثم لفتت آياتُ سورة يس إلى آية كبرى لو تدبّرها منكرو البعث تدبُّر العاقل الراغب في الخير والهدى لآمن قلبه وعقله ، ولهتف : سبحان من يُحيي العظام وهي رميم ، ولنسمع الله عز وجل يقول : ﴿ أَوَ لَيْسَ الذي خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ بقادر علَىٰ أَن يَخْلُق مِثلَهم ، بلىٰ وهو الخلّاقُ العَليم ﴾[1] أى إن خلقَ السمٰوات والأرض أعظمُ مِن خلْقهم ، فالذي خلقهما يقدر على أن يبعثَهم ، وهو سبحانه إذا أراد خلقَ شيْءٍ لايحتاج إلى تعب ومعالجة : ﴿ إنما أَمْرُه إذا أرادَ شيئا أن يقولَ له كُنْ فَيكون ﴾[2] فهو سبحانه المنزَّه عن العجز ، وعن الحاجة إلى الشريك ، وله كل صفات الكمال ، وبيده مفاتيحُ كل شيْء ، وله الخلقُ والأمر ، وإليه يُرجع الأمرُ كلُّه ، وإليه يُرَدُّ جميع العباد فيحاسبُهم بعد البعث ، ويُجازيهم بعدله ، ولذا ينبغي لكل عاقل ذى لبٍّ صالح ، وفؤادٍ نقي ، ونفسٍ مطمئنة أن يقول دوما : ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوتُ كلِّ شيْءٍ وإليه تُرجعون ﴾[3] .

إن أربابَ الأهواءِ تُرديهم أهواؤهم ، وتصدُّهم عن الخير والنور مع أن الدنيا فانية ، ومتاعُها زائل ، والآخرة خيرٌ وأبقى ، وخيرها ونعيمها دائم ينعَم به الذين أخضعوا هواهم للحق ، وتطهّرت قلوبُهم من الحسد والحقد والكبرياء والاستعلاء ، وَصرفوا هِمَمَهُم لطاعةِ الله وشكرِه على نعمه ، واستقاموا في العقيدة ، وفي العمل ، وفي الأخلاق ، وفي الأقوال ، وفي هؤلاء جاءت البشرى من السماء :

﴿ إنَّ الّذين قالُوا ربُّنا اللّهُ ثُم استَقامُوا تَتنزَّلُ عليهمُ الملائكةُ أَلَّا تَخَافُوا

---

(١) يس : ٨١ . (٢) يس : ٨٢ . (٣) يس : ٨٣ .

ولا تَحْزنوا وأَبْشِروا بالجَنَّة التي كُنْتم تُوعَدُون * نَحْنُ أولياؤُكم في الحَيَاةِ الدُّنْيا وفِي الآخرة ولكُم فِيهَا ما تَشْتَهِي أنْفُسكم ولكُم فيها ماتَدَّعون * نُزُلا مِّن غَفُورٍ رَّحيم ﴾[١] .

هؤلاء هم الذين صحّت عقيدتُهم ، وصلَح عملُهم ، أمّا منكرو البعث الغافلون عن المصير فياويلهم يوم ينادى المنادي : ﴿ لِمَن المُلْكُ اليومَ لله الواحِد القهار * اليومَ تُجزىٰ كلُّ نفسٍ بما كسبتْ لا ظُلمَ اليوم إن الله سَرِيعُ الحساب ﴾[٢] .

ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَهد الله فهُو المهتدِ ومَن يُضْلِل فلن تَجدَ لهُمْ أولياءَ مِن دُونه ونحشرُهم يومَ القِيامةِ عَلى وجُوههِم عُميا وبُكما وصُمًّا مَّأواهم جهنَّمُ كلّما خَبَتْ زِدْنَاهم سعيرا * ذلِك جزاؤُهم بأنهم كَفروا بآياتِنا وقالوا أإذَا كنا عِظاما ورُفَاتا أإنّا لمبعوثُون خلقاً جَديدا * أو لم يَرَوا أن الله الذِى خَلقَ السمواتِ والأرْضَ قادرٌ على أن يَخلقَ مثلَهم وجعلَ لَهم أجلا لاريْبَ فيه ، فَأَبَىٰ الظالمُون إلا كُفورا ﴾[٣] .

إن أعزَّ النفوسِ على الواحِد منا نفسُه التي بين جنبيه ، فكيف يَرضى أن يظلمها ؟ كيف يُلقى بها في قاع جهنّم كُلَّما ينضج جلدُه بُدِّل جِلدا آخر ليذوق العذاب ، ولنتدبر قوله تعالى من سورة النساء : ﴿ إن الَّذين كفُروا بآياتنا سَوْف نُصْليهم ناراً كُلَّما نَضِجتْ جلودُهم بدَّلناهم جُلوداً غَيْرها ليَذُوقوا العذابَ إن الله كان عزيزاً حكيما * والذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ سنُدْخِلُهم جَنَّاتٍ تَجرى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً لّهم فيها أزْواجٌ مُّطهَّرَةٌ ونُدخلُهم ظلّا ظَليلا ﴾[٤] فطوبى لمن تدبَّر واتعظ .

---

(١) فصّلت : ٣٠ : ٣٢ .
(٢) غافر : ٧ .
(٣) الإسراء : ٩٧ : ٩٩ .
(٤) الآيتان : ٥٦ ، ٥٧ .

جُل بعقلك
فالكونُ كتابٌ مفتوح

قال أبو الفرج عبدُ الرحمن بنُ الجوزي من علماء القرنِ السادس من الهجرة من كتابه صيد الخاطر تحت عنوان :

تركُ إعمالِ العقلِ في النظر والاستدلالِ إهمالٌ وحُمق :

ليس للآدميِّ أعزُّ من نفسه ، وقد عجِبتُ مِمَّن يخاطرُ بها ويعرّضها للهلاك .

والسببُ في ذلك : قلةُ العقل ، وسوءُ النظر ، فمنهم من يُعرِّضها للتلَف ليُمدَحَ ، مثل الذين يَخرجون إلى قتْل السبع — أي لإظهار الشجاعةِ وهم ليسوا من أهل هذه الصناعة — .

فإن هَلكوا ذهبت النفوسُ هباء ، وقبُح العمل ، وثَبَت الذمُّ .

وأعجبُ من هذا اليهودُ والنصارى ، فإن أحدَهم يَبلُغ فيجبُ عليه أن ينظرَ في نبوة نبيِّنا محمدٍ ﷺ ، فإذا فرَّط فمات ، فله الخلودُ في جهنم .

فياعجباً لمَن يخاطرون بأرواحهم في العذاب الدائم ، ويا عجبا لمن يهمل النظرَ فيما إذا توانى فيه أوجب الخلودَ في العقاب الدائم[1] .

---

(١) فاعل : توانى ضمير مستتر يعود إلى « مَن » في قوله : « لمن يهمل » والضمير المتصل بفي في قوله « توانى فيه » يعود إلى « النظر » في قوله « لمن يهمل النظر فيما إذا توانى =

وأعجبُ من الكل جاحدُ الخالِق ، وهو يرى إحكامَ الصنعةِ ويقول : لاصانع .

والسببُ في هذه الأشياء كلِّها قلةُ العقل ، وتركُ إعمالِه في النظر والاستدلال[1] .

تأمُّل :

قيل إن رجلا في الجاهلية اضطجع ذاتَ ليلة ، ثم سَرَّح طرفَه في الآفاق البعيدة ، وفي الكون العظيم الذي امتد إليه بصرُه ، ثم أرسل الكلمات التالية قائلا :

إن بناءً أنت سقفُه لعظيم ، وإن بيتا أنت غطاؤُه لعظيم ، وإن شيئا أنت تُظِلُّه لكبير ، وإن فيك لعجباً للمتعجبين .
فليت شعري[2] أعَلَى عُمد من تحتك تستمسك ؟ أم بمعاليقَ من فوقك ، وَلَعمْرِي ، إن مَلِكاً أمسكتْك قدرتُه لمِلِكٌ عظيم قدير ، وإنه — في استدارتك بتقديره — لحكيمٌ خبير ، وإن مَن غَفَل عن التفكير في هذه العظمة لغِرٌّ[3] صغير .

ثم قال الرجل المتأمل : وليت شعرى ، أيتها الأفلاكُ ، بِم طلوعُك

= فيه » أي العجب لمن يهمل النظر في الأمر أوْ الشيء الذي إذا توانى المرء عن البحث عنه والإيمان به فمات دون نظر وإيمان كان من الخالدين في النار ، والمقصود أمر نبوة محمد ﷺ والبعث والحساب .

(١) من كتاب صيد الخاطر بشيْء من التصرف .

(٢) فليت شعري : أي ليتني أعلم .

(٣) لغِرٌّ : اللام لام الابتداء دخلت على خبر إن ، وغرّ ، بكسر أوله من غرَّ الرجلُ غرارةً وغِرّةً جهِل الأمور وغفل عنها فهو غِرٌّ ، والغِرّ أيضاً من ينخدع إذا خُدع .

حين تطلُعين ، وبِمَ مسيرُك حين تَسيرين ؟ وبِمَ أُفُولِك حين تأفُلين ، وعلامَ سقوطُك حين تَسقُطين وتغيبين ؟ ليت شعرى ، أساكنةٌ أنت أم تتحركين ؟ أم كيف صفتُك التي بها تتصفين ؟ ولونُك الذي به تتَّسمين ؟ ومَن سمَّاك بأسمائِك التي بها تُعْرَفين ؟

فسبحانَ مَنْ لأمره تَنقادين ، وبمشيئتِه تَجْرين ، وبصنْعته استقامتُك حين تستقيمين ، ورجوعُك حين ترجعين .

فانظُرْ هذا الرجلَ الذي أَعْمَلَ عقلَه في النظر والاستدلال ، وتأمّلْ هُتافَهُ من قلبه بتنزيه الخالقِ ووحدانيتِه وقدرتِه ، أمَا تأمّلتَ يوماً شيئاً من عجائبِ النبات ، أمَا رأيتَ البذرةَ الصغيرةَ يُلقيها الإنسان في التراب ، ثم يراها بعد ذلك شجرةً ذاتَ جذع غليظ ، وفروعٍ ممتدةٍ إلى أمتار عديدة ، وأوراق وثمراتٍ ذات ألوان وطعوم .

أمَا نظرتَ في هذا وغيره من العجائب لِتُلقىَ بنفسك في أحضان الرحمة هاتفا من قلبك وشعورك وعقلِك : الله خالقُ كلِّ شيْء ، وهو على كل شيْءٍ قدير ، لا إلٰهَ إلا هو ، ولا معبودَ بحق سِواه ، ولنتدبر :

﴿ إنّ الله فالقُ الحبِّ والنَّوى يُخْرِجُ الحَيَّ مِن الميِّتِ ومُخْرِجُ الميِّتِ من الحيِّ ذٰلِكُم الله فأَنَّى تُؤفَكُون ﴾(١) .

إنك حين تتأمل آياتِ الكونِ ينبغي لك أن تُجرِّدَ نفسَك من آثار الوراثات المنحرفة ، وأن تمحوَ من ذهنك كلَّ ما يَربطك بالمذهب الذي تنتمي إليه من تلك المذاهب المادّيِة التي تُضِلُّ معتنقيها عن الخير والحق والهدى ، جَرِّد نفسَك من كل قيود الباطل والوهم ، وأَطلق فكرَك وعقلَك

---

(١) الأنعام : ٩٥ .

وقلبَك ، وتدبَّر آياتِ الله لتصلَ إلى الحق ، وليطمئنَّ قلبُك بالعقيدة الصحيحة : بالإيمان بالله وبوحدانيته والإيمانِ بجميع رسله وأنبيائِه وخاتَمِهِم النبيِّ محمدٍ ﷺ ، والإيمان بالكتب السماويةِ كالتوراةِ والإنجيل والقرآنِ الكريم الذي نزل به جبريلُ على قلب خاتم النبيّين محمدٍ ﷺ ، والإيمانِ بكل ماأخبر الله عز وجل به في كُتبه وعلى ألسنة رسلِه عن عالم الغيب .

أتأملت الحبَّ والنوى يشقُّه الله عز وجل في الثَّرى ، فَتَنبتُ الزروعُ على اختلاف أصنافها ، أتأملتَ الحبوب ومنافعَها وأنواعها وأشكالها ، أتأملت الفاكهة وألوانَها واختلافَ طعومها ، أتأملت الحبَّ والنوى الذي هو كالجماد الميِّت يَخرج منه النباتُ فيه حياةٌ وفيه نضارةٌ وغضارة .. ألا تتأملُ البيضةَ الميتةَ يخرجُ منها الدجاجُ ونحوُه ، والدجاجَ يخرُج منه البيض ؟ بل أتأملتَ الولدَ الصالح يخرج من الكافر ، والكافرَ يخرج من الصالح .

إن العاقل البصيرَ إذا تأمل هذا وغيرَه تأمُّلَ طالبِ الحقِ لاندفع بفطرته إلى السجود قائلا : سبحان مَنْ يخرج الحيَّ من الميت ، ويُخرجِ الميّت من الحي ، سبحان من دلّت مخلوقاتُه على وجوده وحكمته .

إنه سبحانه : ﴿ فالقُ الإصباحِ وَجَعَل الليلَ سكناً والشمسَ والقمرَ حُسبانا ذٰلِك تَقديرُ العزيز العليم ﴾[1] .

فهو سبحانه يَفلق ظلامَ الليل عن غُرة الصباح ، فيُضيء الوجود ، ويستنير الأفق ، ويُمحى الظلام ، ويذهب الليل بظلامه ، ويجيء النهارُ بضيائه وإشراقه .

---

(١) الأنعام : ٩٦ .

إن الله عز وجل يلفت عباده إلى هذه الآيات ومافيها من دلائلِ القدرة والرحمة ، كما يلفت العبادَ إلى قدرته سبحانه وتعالى على خلق الأشياء المتضادَّةِ المختلفةِ الدالةِ على كمال عظمته ، وعظيمِ سلطانه وحكمتِه ، وَسَعةِ رحمتِه بعباده ، فهو سبحانه فالقُ الإصباح مع مافي النهارِ من ضياءٍ ونور وحركة وسعْيٍ وعمل ، وهو الذي : « جعل الليل سكنا » أي جعل الليل ساجياً مظلما تسكُن فيه الأشياء وتهدأ الحركة ، وينامُ الناس ، وهذه من نعم الله عز وجل على العباد ورحمتِه بهم .

ثم تأمل الشمسَ وهي تظهر للناس في النهار ، والقمرَ وظهورَه في الليل ، وتأملهما يَجريان بحسابٍ مقنَّن مقدَّر ، لا يتغير ولا يضطرب ، بل إن كلا منهما له منازِلُ يسلكها في الصيف والشتاء ، فيترتب على ذلك اختلافُ الليلِ والنهارِ طولا وقصراً ، وما يرتبط بذلك من اختلاف فصولِ السنة ، وتنوُّعِ الزروع والمحاصيل ، ومعرفةِ الشهور والسنين ، وغيرِ ذلك مما يدل على كمال قدرتِه سبحانه وكمال علمه : « ذلك تقديرُ العزيز العليم » .

ولْنتدبَّر : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشمسَ ضياءً والقَمرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عدَدَ السِنِينَ والحِسَابَ ما خَلَقَ الله ذلك إلّا بالحقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لقومٍ يَعْلَمون ﴾ (١) .

فالله عز وجل قدَّر هذه المنازِلَ ليعلم الناسُ بها عددَ السنين ووقتَ دخولِها وانقضائِها ، وليعلموا حسابَ الشهور والأيامِ والساعاتِ ونقصانِها وزيادتها ، ماخلق الله ذلك كله وأبْدعه ، وأَحْكَمَ نِظامَه ، وَضمَّنه من

---

(١) يونس : ٥ .

المنافع مايجِلُّ عن الحصر والعدِّ إلا للحقِّ وإظهارِ قدرتِه ، ودلائلِ وحدانيته ، ولم يخلق سبحانه ذلك باطلا ولا عبثاً : « يُفصِّل الآياتِ لقوم يعلمون » أى يبين دلائلَ التوحيد والبراهينَ القاطعةَ لقوم يستدلون بها على قدرة الله ووحدانيتِه .

إن المؤمنَ إذا تدبَّر ازداد إيمانا ويقيناً ، وإن المُلحد إذا تدبّر راغبا في معرفة الحق آمنَ وسلَكَ الطريقَ اللائقَ بأهل العقلِ والحكمةِ ، وإن المشرك إذا تدبّر هجر كلَّ معبود سوى الله فلا يتضرع لصنم ولا لميِّت ولا لمَلَكٍ ولا لشمس ولاالقمر بل يجعل عبادتَه لله وحده ، فهو الواحدُ الأحدُ الذي لا شريكَ له ولا ولدَ له ولانِدّ ، سبحانه سبحانه .

* * *

مَن غفل عن التدبّر فهو غِرٌّ صغير

قال ابن عباس رضي الله عنهما ، قالت كفار قريش : يامحمد انسُب لنا ربَّك ؟ فأنزل الله تعالى : سورة الإخلاص ، وأنزل : ﴿ وإلٰهُكُمْ إلٰهٌ وَاحِدٌ لا إلٰهَ إلّا هُوَ الرَحْمٰنُ الرَّحيم ﴾[1] من سورة البقرة .

إن الإلٰهَ واحد ، والله عز وجل قد تفرّد بالإلٰهية فهو لا شريك له ولا ندَّ له ، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إلٰه إلا هو الرحمن الرحيم ، رحمتُه عامة بالعباد مؤمِنهم وكافِرهم ، صالِحهم وعاصيهم ، يُطعمهم ويَسقيهم ويُرسل السماء عليهم مدرارا ، وجعل الأنهار تجري من تحتهم ، وفجّر لهم العيون ، وأرسل لهم الرياح ، ومكنهم في الأرض ، وهيأ لهم الأسباب لعمارتها وترقية حياتهم ، وجعل لهم من بيوتهم سكنا ، وجعل لهم مما خلق ظلالا ، وسهل لهم الطرق وذلل الأرض يمشون ويضربون في أرجائها ونواحيها ، وجعل لهم من المنافع فيما يحيط بهم من المخلوقات مايجلّ عن الحصر ، ويَعِزّ على العدّ .

هذه بعض رحمته العامة بالخلق ، وهو سبحانه رحيم بالمؤمنين خاصة في يوم لاينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وقد أخلص التوحيد .

---

(١) الآية : ١٦٢ .

واجب أهل العلم :

وهذه الآية الكريمة من سورة البقرة جاءت بعد أن حذّر الله عباده من كتمان الحق ولَعن أولئك الذين يكتمون ماأنزل الله على رسله من البينات والدلالات على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للنفوس والمحيي للقلوب ، فقال سبحانه : ﴿ إنَّ الَّذينَ يكْتُمونَ مَاأنْزَلْنا مِنَ البَيِّناتِ والهُدَىٰ مِن بَعْد مابَيَّنَّاهُ للناس في الكتابِ أُولٰئكَ يَلْعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنون * إلا الَّذين تابُوا وأصْلَحُوا وبَيَّنُوا فأولٰئك أتُوبُ عَلَيْهِم وأنَا التَّوَّابُ الرَّحيمُ ﴾[1] .

يقول أبو هريرة : لولا آية في كتاب الله ماحدّثت أحداً شيئا : « إن الذين يكتمون ماأنزلنا من البينات والهدى » الآية .

لقد جاء قوله تعالى : ﴿ وإلٰهكُم إلٰهٌ واحد لا إلٰهَ إلا هو الرحمنُ الرحيم ﴾[2] بعد هذا التحذير من كتمان الحق والهدى ليبين لعباده ولأهل العلم أن أول مايجب إظهاره ولا يجوز كتمانه أمرُ التوحيد ، وإن كل ذرّة في الكون تشهد بأنه : لا إلٰهَ إلا الله ، وكلّ آية في السموات والأرض تدلُّ على وحدانيته سبحانه وتعالى وعظيم قدرته ، وسلطانه المطلق ، ورحمته بالعباد .

كيف نغفل عن التفكّر ؟

ولذا دعا الله عباده بعد هذه الآية إلى التفكر في خلْق السموات والأرض ومافيهما ، وما بين ذلك ممّا ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالّة على وحدانيته ، ليعلم العقلاء الذين يستخدمون عقولهم استخداما صحيحا أن هذه المخلوقات ومافيها من عجائب الصنع لابدّلها من فاعل لا يشبهه شيْء

(١) البقرة : ١٥٩ : ١٦٠ .   (٢) البقرة : ١٦٣

فقال عز وجل : ﴿ إنَّ في خَلْقِ السَّمٰواتِ والأرْضِ ، واختلافِ اللّيل والنَّهارِ ، والفُلْكِ التي تَجْرِى في البْحرِ بما ينفعُ النّاسَ ، وماأَنْزَلَ الله مِنْ السَّماءِ مِن مَّاءٍ فأحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وتصريف الرِّياحِ والسَّحابِ المُسَخَّر بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ لآياتٍ لقَوْم يَعْقِلُون ﴾[1] .

هذه الآيات الباهرات مَن غفل عن التفكير في عظمتها وجمالها وتناسقها ومنافعها ومالَها من قوى كامنة ، من غفل عن التفكير فيها فهو غِرٌّ جاهلٌ مطموسُ البصيرة .

إن هذه الآيات ناطقاتٌ بعظمة مُوجِدها ، وبوحدانية مدبرِ أمرِها ، إنها آيات وُجدت بعد عَدَمٍ .. فهل يمكن أن توجد أنفسها ؟ إن من قال بذلك فقد قال بالمحال ، إذ كيف يُحدِثُ الشيْءُ نفسه وهو معدوم ؟ ولأن الإحداث لايتأتى إلا من حيّ عالم قادر مريد .

هل رأينا بناءً أوجد نفسه ؟ هل رأينا باباً أحدث نفسه ؟ أو ثوبا أحدث نفسه ؟ وسَلْ نفسَك ماشِئتَ .. ليقوم الدليل في قلبك وعقلك وشعورك على أن المخلوقات من حولنا تدل على وجود الخالق ووحدانيته وقدرته وحكمته وبأنه سبحانه هو الأول القديم الأزليُّ قبل كل شيْءٍ بلا بداية وبأنه الآخر الباقي الأبديُّ بعد كل شيْء بلا نهاية ، سبحانه : ﴿ هو الأوُلُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكلِّ شيْء عليمٌ ﴾[2] .

ومن رحمة الله بالعباد أن أرسل الرسل وأنزل الكتب ودعا عباده إلى النظر والتفكر والتدبر لينير الدليلُ للعقل طريقه وليُحرَّر الإنسانُ من الجمود على الموروثات ، ولنسمع الله عز وجل يدعو عباده إلى النظر في ملكوت

---

(١) البقرة : ١٦٤ .
(٢) الحديد : ٣ .

السمٰوات والأرض : يقول سبحانه : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا في السَّمٰواتِ والأرْضِ وَمَا تُغْني الآياتُ والنُّذُرُ عن قوم لَّا يُؤمنون ﴾[1] .

ويقول عز وجل : ﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوتِ السَّمٰواتِ والأرْضِ وَمَا خَلَقَ الله مِنْ شيْءٍ ﴾[2] ويقول : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُم أفلا تُبْصِرُون ﴾[3] .

أولم ينظروا في ذلك نظر تَفكّر وتدبّر حتى يستدلوا بهذه المخلوقات على أنها مُحْدَثَات ، والمحدَث لا يستغني عن صانع يصنعه ، وأن الذي أوجد هذا الكون العظيم .. حكِيمٌ عالِم قدير سميع بصير متكلم ، وأن له كلَّ صفاتِ الكمال ، وكلَّ نعوتِ الجمال والجلال ، وأنه سبحانه ليس كمثله شيْء وأنه يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار .

أشقى الناس :

ولذا كان أشقى الناس ، وأتعسهم وأسوأهم حظا هو الذي ينظر فيما حوله بلا تدبر ولا تفكر ينفعه في حياته الأبدية بعد فناء الخلق ، وقد أشارت الآيات إلى هذا الصنف من الناس ولنتدبر : ﴿ وما تُغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ صُرِفت قلوبهم عن الهدى وأمامهم الآيات الشاهدات الدالات عليه .. ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ اللّهُ فلا هادِيَ له ويَذَرُهُمْ في طُغيانِهِم يَعْمَهُون ﴾[4] .

روى عن أبي الضحى قال : لما نزلت : ﴿ وإلٰهكم إلٰه واحد لا إلٰه إلا هو .. ﴾ قال المشركون ، إن كان هذا فليأتنا بآية ، فأنزل الله عز وجل

---

(١) يونس : ١٠١ .
(٢) الأعراف : ١٨٥ .
(٣) الذاريات : ٢١ .
(٤) الأعراف : ١٨٦

الدليل على الوحدانية : ﴿ إنّ في خَلقِ السَّمٰوٰتِ والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ ... ﴾ إلى قوله ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾

* * *

وفى الأرض آيات للموقنين

من الموقنون ؟

الموقنون هم العارفون المحققون وحدانية ربهم ، وصِدْقَ نبوّة نبيِّهم ، وهم أهلُ البصيرة الذين ينتفعون بالنظر في آيات الله وتدبُّرها ، فيزدادُون إيمانا ويقينا ، وتطمئنُّ قلوبُهم ، ويسعَوْن في كل مايُرضِى ربَّهم ، ويجتهدون في الاستعداد للقاءِ الله بالعمل الصالح ، واجتنابِ المعاصى ، والفرارِ من الحرام ، وبالمسارعةِ في الخيرات والمبرات .. وهؤلاء الموقنون خُصُّوا بالذكر في قوله تعالى : ﴿ وفى الأرضِ آياتٌ للموقنين ﴾[1] لأنهم يستخدمون عقولهم استخداما صحيحاً ، ويتفكَّرون في خلق السمٰوات والأرض ، وما في هذا الكون الجميل البديع من دلائلَ على وجود الخالق ، وعلى قدرته ، وعلى وحدانيته ، ورحمته بعباده .

من آيات الأرض وبراهين قدرة الله :

إن آياتِ الأرض أنواعٌ كثيرة ، منها خَلْقها وحدوثها بعد عدمها وسبحان الخالقِ العظيم ، ومن آيات الأرض وجودُ اليابسة والبحار والأنهار ، وتسطيحُها ، وسعتها ، وجعْلُها كالمِهَاد والفِراش لتكون مَقرّا صالحا لحياة

---

(١) سورة الذاريات : ٢٠ .

الناس والحيوان ، ومن آياتها أن جعلها الله ذَلُولا تُوطأ بالأقدام ، وتُضرَب بالمعاول وبالفئوس ، وتَحمل على ظهرها الأبنيةَ الثِّقال ، فهي ذلولٌ مسَخَّرة لما يريد الناسُ منها ، وقد جعلها الله بساطاً ، وجعلها كِفاتا للأحياء ، تضمهم على ظهرها ، وللأموات تضمهم في بطنها ، ثم لنتأمل ونتدبر مايَخرج منها من الماء والمرعى ، وكيف شُقَّت الأنهار ، وجُعلت فيها السبل والفِجاج ، وقد اقتضت حكمةُ المدبّر الحكيم العليم الخبير أنْ وَضع عليها جبالا يثبّتها بها ، لئلا تَمِيد ، ولتكون ساكنة قارَّةً صالحة لحياة البشر .

ثم تأمل حكمةَ الخالق العظيم في أنه سبحانه لم يخلقها في غاية الّلين والرَّخاوة فلا تُمسك بناء ، ولا يستقرّ عليها جسمٌ ثقيل ، بل جعلها سبحانه وتعالى بين الصلابة والدماثة ، فلو أن الأرضَ كانت في غاية الصلابة ـــ مثلا ـــ كالحديد لا متنع علينا حفْرها وشقُّها والبناءُ فيها ، والغرسُ ، والزرعُ وغيرُ ذلك .

ومن آياتها الدالة على وحدانية الله وقدرته :

كيف لا نهتف من قلوبنا : « لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له » والأرضُ أمامنا قطعٌ متجاورات متلاصقة ولكنها متباينة مختلفة الأجناس والصفات والمنافع ، فهذه سهلة وتلك حَزْنة بارزةٌ غليظة تجاور السهلة ، ألا نرى مكانا طيباً يَخرج نباتُه وآخر لاينبت ؟ كما نرى التربة تلاصقها رمال ، والأرضَ الصلبة تجاورها أخرى رِخوة ، مع تعدد الألوان ، فهذه بيضاءُ ، وتلك صفراءُ ، وهذه تصلح لنبات كذا والأخرى تصلح لغيره ، ولا تصلح لذاك ، ومنها السبخة والمالحة .. وقل ماشئت من الشواهد والآياتِ البينات على وجود الخالق العظيم المدبر الحكيم الذي خلق كل شيْء

لحكمة ، وخلق الإنسان والجانَّ لعبادته وحده .

ومن بركات الأرض وآيات رحمة الله بالعباد :

سبحان الذي أنشأ آدم من الأرض ، وخلق الإنسان من سلالة من طين ، سبحان من أودع فيها جميع الأقوات ، وجعل ماعليها زينة لها ، وجعلها حافظة لما استُودع فيها من الماء ، والأرزاق ، والمعادن ، وما كشف عنه الإنسانُ ومالم يكشف بعد مِمّا فيه منافعُ للعباد ، وسبحان من جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدرَ من المسافة ، فلوزادت المسافة على ذلك لضعُف تأثر الأرض بحرارة الشمس ونور القمر فتعطَّلت المنافعُ الواصلة إلى الناس والنبات والحيوان ، بل إن زيادة المسافة إلى قدر معيَّن يؤدى إلى هلاك مَنْ في الأرض ، ولو تقاربت المسافةُ بين الأرض وبين الشمس لاشتدت الحرارةُ والسخونة مما يؤدى إلى احتراق الأجسام والأبدان .. فسبحان الذي خلق الكونَ ، ودبَّر أمرَه ، لينتظم العالم ، حتى يأتيَ اليومُ الذى تُبَدَّل فيه الأرضُ غيرَ الأرض والسمٰوات ، ويبرز الناسُ للواحد القهار ، فيحاسبهم ويجازيهم .

وأيُّ بركةٍ أودعَها الله في الأرض ليختبرَ عبادَه بنعمه : أيشكرون أم يكفرون ؟ أيؤمنون أم يجحدون ؟ أيتقلّبون في نعمه ويحمدونه أم يتقلبون في نعمه ويتقلبون في معاصيه ؟ والله عز وجل ينذر أهل الغفلة فيقول : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهم مِّنْ حيثُ لا يَعْلَمون ﴾(١) . أي كلما أحدث الغافلون ذنباً أحدثتُ لهم نعمة ، وذلك مكرُ الله بالعباد المضيِّعين .

---

(١) القلم : ٤٤ .

الله واحد لا شريك له :

ألا يرون الماءَ يحيي الأرض فتُخْرج الأرضُ لهم الزروعَ والثمارَ والفاكهةَ والحبَّ .. فمن الذي أحياها ؟ ومن الذي أودع فيها هذه البركة ؟ يالها من آيات ناطقات بوجود الخالق العظيم ، وبصفات كماله ، فهو سبحانه له كلُّ صفات الكمال ، وكلُّ نعوت الجلال والجمال ، وهو المنزَّه عن مشابهة المخلوقين ولا شريكَ له ، ولا ولد ، ولا نِدَّ ولا نظيرَ ، سبحانه لا إلٰه إلا هو .

ولنسمع الله عز وجل يدلُّ عباده على وحدانيته وقدرته ، وعلى أنهم سيبعثون للحساب والجزاء ، ليكونوا على بينة : ﴿ وفي الأرض ءَايَاتٌ لِّلموقنين * وفي أنفُسِكم أفلا تُبْصرون * وفي السَّماء رِزْقُكم وَمَا تُوعَدُون * فَوَرَبِّ السَّماءِ والأرضِ إنه لَحقٌّ مِّثلَ ماأَنكُم تَنطِقون ﴾[1] أكد الله عز وجل ماأخبر به عباده من البعث ، وما خلق في السماء من الرزق وأقسم عليه « إنه لحق » ، ثم أكده سبحانه بقوله : « مِثْلَ ماأَنَّكم تَنْطقون » . فالأرزاق قَدَّرها الله عز وجل وجعل أسبابها في نزول الماء من السماء وإحياء الأرض به ، وكما أن كل إنسان ينطق بنفسه ، ولا يُمكنه أن ينطق بلسان غيره ، فكذلك كلُّ إنسان يأكُل رزقَه ولا يُمكنه أن يأكَل رزق غيره ، فياويل من لم يؤمن بربه ، ويُطِعْ رسلَه ، ياويلَ أهلِ الجحود والنكران ، ياويلَ أهلِ الغفلة والبهتان ، يقسم لهم ربُّهم بنفسه أنَّه يَبْعثُهم كما أنشأهم من العدم ، وأنه يرزقهم ، ثم لم يصدِّقوه سبحانه : « فَوَربِّ السماءِ والأرضِ إنه لحقٌّ مِّثلَ ما أنكم تَنطقون » .

---

(١) الذاريات : ٢٠ : ٢٣ .

البعث حق والجزاء حق :

ولنتدبرْ من آيات القدرة وبراهين الرحمة : ﴿ فَلينْظُرِ الإنسانُ إلى طعامِه * أَنَّا صَبَبْنا الماءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنا الأرضَ شقّا * فأنبتْنا فِيها حَبًّا * وَعِنَباً وَقَضْبا * وَزَيْتُونا وَنخْلا * وَحَدَائِقَ غُلبا * وَفَاكِهةً وأَبًّا * متاعا لَّكُم ولأنْعَامِكم ﴾(١) .

انظر إلى الماءِ والأرض ، وتأملْ كيفَ تسوق الرياح السحبَ فتصبُّ ماءها حيث يُريد الله عز وجل فتنشقّ الأرضُ عن الخير الذى نَتَقلَّب فيه ، ونعيشُ به ، ولا يُنكر جمالَ البساتين والمراعى ، وفوائد العنب والزيتون والرطب والفواكه إلا مطموسُ البصيرة ، لأن الجحود نكران ، أما القلوبُ المتفتحةُ على الخير فإنها تقول : إن مافي الأرض من العجائب ومابينها وبين السماء من اتّساق وانتظام لأظهرُ الدلائل على قدرة خالقها وعلى وجوده وعلى وحدانيته ، وعلى صِدْق رسله الكرام فيما بلغوا عن ربهم ، وعلى أن القادر العظيم الذي أوجدنا ، وأوجد لنا الأرض من العدم قادرٌ على أن يبعثنا بعد أن نصير ترابا مُذَرَّىً في الهواء ، أو قطعا مُبعثرة في جوف البحار ، أورُفاتا داخل القبور ، أو أكلَة في بطن حيوان : ﴿ كَما بَدَأَكُم تَعُودون ﴾(٢) .

هتاف الأرض :

إننا لو أصغَيْنا إلى هتاف الأرض بالبصيرة ونور القلب لأدركنا أنها تدعونا إلى الإيمان به سبحانه وتعالى ربا وخالقا حكيما ، وإلى أن العبدَ يجب عليه أن يعبده وحده ، وأن يذكره ويشكره ويطيعه ، وأن يخلص

---

(١) عبس : ٢٤ : ٣٢ . (٢) الأعراف : ٢٩ .

المحبة له سبحانه ولرسوله وخاتم أنبيائه ﷺ ، فطوبى لمن يحذر بأسَهُ ونقمته ، ويبادر إلى رضوان الله ورحمته .

* * *

أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماء ؟

﴿ أأنتم أشَدُّ خَلْقاً أم السَّماءُ بَنَاهَا ﴾[1] .

هذه الآية الكريمة من سورة النازعات وهي من السور المكية ، وفي الآية الكريمة خطاب لأولئك الذين قصروا فكرهم في المادة ، وحصروا همهم في الدنيا ، وغطّى الغرور على سلامة التفكير ، وصحة التدبّر لديهم ، فتوهموا أن حياة الإنسان تنتهى بالموت ، وظنوا أن الإنسان لم يُخلق للبقاء إما في جنّة وإما في سعير ولهب بعد البعث والحساب ، وفي سورة النازعات تنبيهٌ لأولئك الذين أعماهم ضلالُ سوءِ التفكير ، وغشّى على قلوبهم ظلامُ المعتقدات غير الصحيحة إما بسبب التربية الفاسدة كما يربّى الملاحدةُ الناشئةَ تربيةً تفسد حياتهم ، وتُضلّهم عن الحق ، وتُبعدهم عن نور الإيمان الصحيح ، وتهيئهم لكى يكونوا وقودَ جهنم وبئس المصير ، وإما بسبب الجمود على العقائد الموروثة دون أن يستقل الشخص بالنظر والتدبر والبحث ليصل بالتأمل الصحيح إلى أن هذه المخلوقات كالسماء والأرض وغيرهما تدل على قدرة خالقها وموجدها ، وإلى أن الانسان مُيز عن غيره من المخلوقات بالعقل والفكر والإدراك ليكون موضع اختبار وابتلاء ولابد إذن من الحياة بعد الموت ومن الحساب والجزاء لينال كل فرد منا

---

(١) الآية : ٢٧ .

جزاء ماقدمت يداه .

إن سورة النازعات بدأت بالقسم إذ أقسم الله بملائكته على أن البعث بأهواله آتٍ لاريب فيه : ﴿ والنَّازِعَاتِ غَرْقاً * والنَّاشِطَاتِ نَشْطَاً * والسَّابِحَاتِ سَبْحاً * فالسَّابِقاتِ سَبْقا * فالمُدَبِّراتِ أمْراً ﴾ [1] أى لَتُبعثُنّ ولتُحَاسبُنّ .

تأمُّل في بعض المعاني :

﴿ والنازعات غرقا ﴾ أى الملائكة تنزع أرواح الكفار من أقاصى أجسامهم كما يُغرِقُ النازع في القوس فيبلغ بها غاية المدّ ، والغَرْق من الإغراق وهو المبالغة في الأمر ، ويفسِّر لنا كلام ابن مسعود مايحدث للكافر عند نزع روحه فيقول : « يَنْزِعُها مَلَكُ الموت من تحتِ كلِّ شَعْرة ، ومن الأظافير ، وأصولِ القدمين ، ويردِّدها في جسده بعد ماينزِعُها حتى إذا كادتْ تخرجُ ردَّها في جسده بعدما يَنْزعُها فهذا عمل ملك الموت بالكفار » وقال غيره : « إن مَلَكَ الموتِ وأعوانَه يَنزِعُونَ روحَ الكافر كما يُنْزَع السَّفُّودُ الكثيرُ الشُّعَب من الصُّوف المبتلّ فتخرج نفْسُ الكافر كالغريق في الماء » .

أما المؤمن فإن الملائكة تَسلُّ روحه سلاً رفيقا فتقبضها كما يُنشط العقال من يد البعير أي يُحل رِباطه برفق وسهولة : ﴿ والناشطات نشطا ﴾ وعن ابن عباس هي نفس المؤمن تنشط للخروج عند الموت لما ترى من الكرامة ، لأنه تعرض عليه الجنة قبل أن يموت .

﴿ والسابحات سبحا * فالسابقات سبقا ﴾ أي الملائكة وُصفوا

---

(١) الآيات : ١ : ٥ .

بالسابح بالشيْء في الماء برفق وسهولة ولطافة وهم ينزلون من السماء بما كُلفوا به مسرعين كالفرس الجواد إذا أسرع في جريه يقال له سابح ، كما أنهم يسبقون بأرواح المؤمنين إلى الجنة ، ويسبقون ابن آدم بالطاعات وبالخير .

﴿ فالمدبرات أمرا ﴾ قال ابن عباس : هم الملائكة وُكِّلوا بأمور عَرّفهم الله عز وجل العمل بها ..

من أسرار القسم بالمخلوقات في القرآن :

ولله عزّ وجل أن يُقسم بما يشاء من خلقه لتنبيه عباده إلى فائدة المقسَم به أو إلى موضع العبرة فيه وتأمّل حكمة الله عز وجل في خلقه ، أو لقلْبِ الاعتقاد في قلب من أضلّه الوهم أو خانه الفهم فاعتقد في مخلوق أمراً ليس له ، كمن اعتقد في الملائكة أنهم بنات الله ــ سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ــ أو اعتقد في الشمس ونحوها أنها تنفع أو تضر فعبدها من دون الله ، فإذا أقسم الله بالملائكة وبالشمس وغيرهما من مخلوقاته فإنما لكى يتضح في أفهام الناس وعقولهم أن هذه كلَّها مخلوقاتٌ لله مسَخَّرة لأمره ، ليس لها شيْءٌ من صفات الألوهية ، بل إنها من المخلوقات التى تصرّفها القدرة الإلٰهيّة ، فلا إلٰهَ غيرُه سبحانه وتعالى ، ولا شريك له ولا ولد ولا نظير . .

وفي جواب القسم لفت الله عز وجل عباده إلى أمر البعث والقيامة ليتنبه أولو الألباب ، وليتوب أصحابُ العقول الراجحة عن الضلال ويرجعوا إلى الحق لكى يعدّوا أنفسهم للسعادة الأخروية بالإيمان الصحيح والعملِ الصالح واتباعِ الدين الحق الذي رضيه الله لعباده ، ولم يرض لهم غيره ، وهو دين الإسلام .

ولنتأمل : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴾[1] يعنى النفخة الأولى في الصور يتزلزل لها كل شيْء ويتحرك ، ويموت منها جميع الخلق ، ﴿ تتبَعُها الرادِفَةُ ﴾[2] يعنى النفخة الثانية ردفت الأولى وبينهما أربعون سنة : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرْضِ والسَّمٰواتُ وَبَرزُوا لله الواحِدِ القهّار * وَتَرى المُجْرمين يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنين في الأصْفَاد * سَرَابيلُهُم مِّنْ قَطِرانٍ وتَغْشَىٰ وُجُوهَهُم النّار * ليَجْزِىَ الله كلَّ نَفْسٍ مّاكسبتْ إنَّ الله سَريعُ الحساب * هَذَا بَلَاغٌ للنّاسِ وَلْيُنْذَرُوا بِه وَلْيَعْلمُوا أنّما هُوَ إلٰه وَاحدٌ ولْيذّكّر أولو الألباب ﴾[3] .

وفي هذا اليوم العظيم تكون القلوب خافقة قلقةً مضطربة ، وَيْظهر ذلُّ قلوب الكفار على وجوههم وأبصارهم الخاشعة ، هؤلاء الذين كانوا لا يُذعنون للدليل ، ولا ينتفعون بالموعظة إذا قيل لهم إنكم مبعوثون بعد الموت : ﴿ يَقُولُون أإنَّا لَمرْدُودُونَ في الحَافِرة ﴾[4] أى يستبعدون أن يُردّوا إلى الحياة بعد الموت كما كانوا أحياء قبله : ﴿ أإذَا كُنّا عِظَاماً نَّخِرة ﴾[5] أى يستبعد الملحدون الضالون أن يُبعثوا خلقاً جديداً بعد ماتَبلى عظامُهم أو تصيرُ مجوفة تمرُّ فيها الريح ، وياويل هؤلاء المنكرين للبعث الغافلين عن الحساب والجزاء يوم يعاينون أهوال القيامة ، ويرون مقاعدهم من الجحيم ، وياحسرتهم وياطول ندمهم بعد فوات أوان الندم : ﴿ قَالُوا تِلْكَ إذاً كَرَّة خَاسِرَة ﴾[6] والكَرّة هى الواحدة من الكر والمقصود الرجوع إلى الحياة بعد الموت ، وخاسرة أي يخسر أربابها ولا يربحون لكفرهم وعنادهم ، وهذه العودة إلى الحياة آتية لاريب فيها إذ يجد الناس أنفسهم على وجه الأرض

---

(١) النازعات : ٦ . (٢) النازعات : ٧ . (٣) إبراهيم : ٤٨ : ٥٢ .
(٤) النازعات : ١٠ . (٥) النازعات : ١١ . (٦) النازعات : ١٢ .

بعد ماكانوا في جوفها : ﴿ فإنّما هِىَ زَجْرَةٌ واحِدةٌ * فإذَا هُمْ بالسَّاهِرة ﴾[1] .

تسلية للنبي ﷺ :

إن النبي محمداً ﷺ كان يدعو الناس باللين ، ويقيم لهم الدليل ، ويقدم لهم الحجة ، ويرشدهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويحثهم على الإيمان الصحيح والعمل الصالح استعداداً ليوم البعث والحساب ، ولكن المخذولين من المشركين والملحدين عاندوه وآذوه ، وآذوا أصحابه ، كما أُوذى الأنبياء والرسل من قبل ، وكما فعل فرعون مع موسى عليه السلام إذ عاند وكابر وآذى موسى وقومه فكانت عاقبته الخسران والهلاك ، وعاقبةُ موسى وأصحابه الفوز والنصر ، ولذا جاء في سورة النازعات ذكرُ قصة موسى مع فرعون تسلية للنبي ﷺ ، وفيها وعد له بالفوز كما فاز موسى ، وفيها وعيد شديد وعبرة لأولئك الذين يكذبون ماجاء به الرسول ﷺ من التوحيد ووجوب الإيمان باليوم الآخر ، وإنذار للمعاندين والملحدين بأن من أهلك فرعون في عُتُوِّه وجبروته قادر على إهلاكهم : ﴿ فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخرةِ والأُولَىٰ * إنَّ في ذَٰلكَ لَعِبْرةً لِّمن يَخْشَىٰ ﴾[2] أى جعل الله عز وجل فرعون عبرة لغيره بأن عاقبه ، فأغرقه في الدنيا ، ويدخله النار في الآخرة .

ثم لفتت السورة أولى الألباب إلى أدلة ساطعة ، وبراهينَ قاطعةٍ بقدرة الله وحكمته وتفرّده بالإلٰهية ، وبأن أمر البعث لاينبغى لعاقل سليم العقل تامِّه أن يجادل فيه أويشكّ في وقوعه : ﴿ أأَنْتُم أشَدُّ خَلْقاً أم السَّمَاءُ بناها * رَفع سَمْكَها فَسَوَّاهاَ * وأغْطَشَ لَيْلَها وأخْرَج ضُحَاها * والأرضَ بَعْدَ ذَٰلكَ

(١) النازعات : ١٣ ، ١٤ .   (٢) النازعات : ٢٥ ، ٢٦ .

دَحَاهَا * أَخْرج مِنها مَاءَها وَمَرْعَاها * والجِبَالَ أَرْسَاها * مَتاعاًلَّكُم ولأنْعامِكم ﴾ (١).

التأمّل والإيمان بالبعث :

إن الإنسان إذا تأمل السماء التى رفعها الله بلا عمد وبما فيها من نجوم وكواكبَ وُضع كلٌّ منها على نسبة من الآخر مع مايُمسك كُلّا في مداره ، ومع مافي السماء من جمال وإحكام ، ومالها من عظمة ورَوعة ومنافع تجلّ عن الحصر ، ثم نظر الإنسانُ إلى صغر جسمه وضعفه إذا أضيف إلى خلق السماء مع عظمها وَعِظَمِ أحوالها لأدرك بالتأمل أن إحياءَ الإنسان بعد الموت أهونُ على الله تعالى ، وإن كان كِلا الأمرين بالنسبة إلى قدرة الله واحد ، ثم ليتأمل الإنسان الظلام يغطى الكون في الليل ، وضوء الشمس ونورَها في النهار ، مع مافي الليل والنهار من آيات القدرة وبراهين الرحمة بالعباد ، ثم ليتدبر الأرض المبسوطة أمامه مع ماأودع الله فيها من بركات وخيرات فمنها خُلق الإنسان ، وفيها مايحتاج إليه الإنسان والحيوان من الماء ، إلى جانب النبات والفواكه وما يتمتع به الإنسان والحيوان .. ليتأمل أهل العقل والحكمة ذلك وغيره من الآيات : أفلا يدلّ ذلك كله على قدرة الخالق ووحدانيته ؟ أفلا يكونُ خالقكم وواهبكم الحياة وما به تحيون ، ورافع السماء فوقكم ، وممهّدُ الأرض تحتكم قادرا على بعثكم ، وهل يليق بعاقل أن يقبل فكرةَ من يقول : إن الإنسان يموت ولا يحيا ولا يحاسب ، وكيف يُترك الإنسان سُدى بعد أن دبّره ربه هذا التدبير ، ووفر له هذا الخير الكثير ؟ ومكنه فى الأرض للابتلاء والاختبار ؟ .

---

(١) الآيات : ٢٧ : ٣٣ .

ثم تُنبه السورة الكريمة الناس إلى الاستعداد ليوم الهول الأكبر ، والطامة التي تفوق كل طامة ، اليوم الذي تُعرض فيه الأعمال على العاملين فيتذكر كل إنسان ماعمل في الدنيا من خير أو شرّ ، وتظهر الجحيم ودار العذاب فيراها الناس ، وفي هذا اليوم ينال كلٌّ جزاءه ، فالذين جاوزوا حدود الله ، ولم يعملوا بشرعه وفَضّلوا لذائد الحياة الفانية فمأواهم نار لا يجدون فيها إلا الآلام والمهانة .

وأما من خاف غضبَ ربِّه ووقوفَه بين يديه للحساب وعمِل للآخرة عملها ، وزجر نفسه عن هواها الباطل وأغراضِها المهلكة ، فإن الملائكة تستقبله وترحب به في جناتٍ لا يُملُّ نعيمُها .

﴿ فَأَمّا مَنْ طَغَىٰ * وآثَرَ الحياةَ الدّنيا * فإنّ الجحيمَ هِي المأْوىٰ * وأمّا مَن خافَ مَقامَ ربِّه ونهى النفسَ عن الهوىٰ * فإن الجنةَ هِي المأوىٰ ﴾[1] .

إن الساعة آتية لاريب ، وعِلْمُ قيامها عند الله وحده وإرسالُ النبي محمد ﷺ من علاماتها ، لأنه آخِرُ الرسل ، فطوبى لمن صدّقه واتبعه واقتدى به .

* * *

---

(١) النازعات : ٣٧ : ٤٠ .

تكريم العقل
بعدم جموده وضلاله

جاء في الأثر : « ماااكتسبَ المرءُ مِثْلَ عقلٍ يَهْدِى صاحِبَه إلى هُدى أو يَردُّه عن رَدَى » .

وسُمِّى العقلُ عقْلا تشبيها بعقْل الناقةِ ، فكما أن عِقال الناقةِ يمنعها من الشرود ، فكذلك العقلُ يمنع الإنسانَ من الإقدام على الشهوات إذا قَبُحت ، ولذا قال حكيم : إذا عَقَلك عقلُكَ عَمَّا لا يَنبغى فأنت عاقل .

والعقلُ يُعين صاحبَه على العِلْم وعلى الاعتبار بالآيات ، والحوادثِ ، وصروف الأيام ، وتقلُّبات الدهر والأنام ، ولنتدبر : ﴿ أَفلَمْ يَسيروا في الأرض فتكونَ لهُم قلوبٌ يَعْقِلُون بها ﴾[1] . أي يعلمون بها ، أو يعتبرون بها .

ولذا يندم أهلُ الغفلةِ أشدَّ الندم يوم لا ينفعهم الندمُ إذْ لم يَستخدموا عقولهم استخداما صحيحاً ، ولم ينقادوا لنور الدين الحق وهُداه . فلكثرة غفلتِهم طُمِس نورُ العقل ، وانقاد للهوى والشيطان وحين يُزَجّ بهم في جهنَّم يقولون : ﴿ لو كُنّا نَسمُع أو نعقِلُ ماكنّا في أصحابِ السَّعِير ﴾[2] .

فهم صَمُّوا آذانَهم عن سماع الحق ، وصُرِفت قلوبُهم عن النظر والاستدلال بآيات الله ، فلم يوحدوه ، ولم يتلقَّوا أوامره بالقبول والإذعان ،

---

(١) الحج : ٤٦ . (٢) الملك : ١٠ .

ولم يسعَوْا إلى العلم بما جاء به الوحْيُ لخيرى الدنيا والآخرة ، ولم يفكروا تفكيرَ طالبِ الحق الساعي إليه .

متى يكون العقل نوراً :

إن العقلَ يكون نورا في القلب إذا اهتدى بالدين ، واتخذ من آيات الوحْي مرشدا له ودليلا ، وجال حرًّا في ملكوت السموات والأرضِ وما فيهما من إبداع وجلال وروعة ونظام ليدلَّه ذلك على وحدانية الله ، وقدرتِه ووجوبِ طاعتِه سبحانه ، ولذا قالوا : العاقلُ هو مَن عقلَ عن الله أمرَه ونهيَه . وسُئلوا قديما : هل الشرِّيرُ الداهيةُ يُسمَّى عاقلا ؟ فأجابوا .. بأنه لا يسمّى عاقلا حتى يكونَ المرءُ خيِّرا ديِّناً ، فأمّا الشريرُ فيسمّى صاحبَ رَوِيّة وفِكر .

وقد رُوى عن أبي الدرداء وهو عويمر بنُ زيدٍ الأنصاري ، أن رسول الله ﷺ قال له : « ياعويمر، ازدَدْ عقلاً تزدَدْ من ربِّك قُربا ، قلت : بأبي أنت وأمى يارسول الله ، وَمَنْ لى بالعقل ؟ أي من يتكفّل ويضمنُ لى — قال عليه الصلاة والسلام : اجْتَنِبْ مَحارِمِ الله ، وأدِّ فَرائِضَ الله تكُنْ عاقلا ، ثم تنفَّلْ بصالحاتِ الأعمالِ تزدَدْ في الدنيا عقلا ، وتزددْ من ربِّك قُرباً ، وبه عِزّاً » .

وقد نفىٰ القرآنُ الكريمُ العقلَ عمَّن يُعرض عن التفكير في الدليل ليؤمنَ بالدين الحقّ ، كما نفاه عمّن يسخرون استهزاءً بالعبادات ، ولنتدبَّرْ قولَه تعالى : ﴿ وإذا قيلَ لهُم اتَّبِعُوا ما أَنزلَ الله قالُوا بلْ نَتَّبعُ ماألْفينْا عليه آباءَنا أوَلَو كانَ آباؤُهُم لا يَعقِلُون شيْئا ولا يَهْتَدُون ﴾[1] وقولَه سبحانه وتعالى :

---

(١) البقرة : ١٧٠ .

﴿ وإذَا نادَيْتُم إلىٰ الصلاة اتَّخَذُوها هُزُواً ولَعِباً ذَلٰكَ بأَنَّهُم قَوْمٌ لّا يَعْقِلُون ﴾[1] .

نفىٰ عنهم صفةَ العقل لأنهم إذا سمِعوا المؤذِّنَ يدعُو إلى الصلاةِ التى هي أفضل الأعمالِ لمَن يَعقِل ويعلم مِن ذَوي الألباب سَخِروا ، وهذه صفاتُ أتباع الشيطانِ الذي لا يَعقلون معاني العبادات والشرائع .

تكريم العقل والتفكير الحرّ :

إن الإسلام كَرَّم العقل ، وخاطبه ، وجعلَه مناطَ التكليف ، وفكّ عنه قيودَ الجمود على الموروثات والأغلال التى تربطه بمذاهبَ ضالةٍ وأفكارٍ أرضيةٍ منحرفة ، ودعا البشرَ إلى التفكير الحرِّ للوصول إلى الحق ، وأعلمهم أن كلَّ إنسان مسؤولٌ عن عمله ، مكلَّف بإنقاذِ مُهجته ونفسِه من شقاء أبديٍّ ، وإذا كان الآباءُ على ضلال وماتوا على الشرك والإلحاد فقد ماتوا على جهلٍ مابعده جهل ، ولو كانوا في دنياهم أهلَ مكرٍ ودهاء وقوةٍ وثراءٍ ونجاحٍ في أمور المعاش والعُمران ، لأن العاقل حقا هو الذي يُمهِّد لنفسه ويقدِّم الخيرَ لحياتِه الأبدية ، إذ جُعلت الدنيا لمن يأخذ بالأسباب لحكمة إلٰهية ، فليس النجاحُ في الدنيا دليلَ العقل الكامل السليم إذَا لم يقارنْه إيمانٌ صحيح ، وعقيدةٌ سليمة ، وانقيادٌ لأمر الربِّ سبحانه وتعالى ، ولنتدبر : ﴿ وإذا قِيلَ لهم تَعالَوْا إلى ماأنزل الله وإلى الرسُول قالُوا حَسْبُنا ماوَجَدْنا عليه آباءَنا أوَ لَوْ كانَ آباؤُهم لا يَعْلَمُون شيئاً ولا يَهْتدون ﴾[2] .

فهؤلاء الجاحدون الملحدون إذا دعُوا إلى دين الله وشرْعه وما أوجبه وإلى ترك ماحرَّمه ، قالوا : يَكفينا ماوجَدْنا عليه الآباء والأجدادَ من الطرائق

(١) المائدة : ٥٨ .   (٢) المائدة : ١٠٤ .

والمسالك ، فوبَّخهم القرآنُ الكريم على جمودهم وعدم احترامهم عقولَهم : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾ أي ولو كان هؤلاء الآباءُ لا يفهمون الحق ، ولا يَعرفونه ، ولا يهتدون إليه ، فكيف يتبعونهم والحالةُ هذه ؟ إنه لايتبعهم إلا من هو أجهل منهم ، وأضلُّ سبيلا لتعطيله قُوى التفكير ولعدم تدبُّره فيما يُصلِح نفسه ، ويعود عليها بالخير ، لذا أمر الله عباده المؤمنين أن يُصلحوا أنفسَهم ويفعلوا الخيرَ بجُهدهم وطاقتهم ، وأخبرهم أنه من أصلح نفسه وأطاع ربَّه لايضرّه فسادُ مَنْ فسد من الناس ، سواءٌ كان قريبا منه أو بعيدا ، ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ ياأيُّها الذين آمنُوا عليكُم أنفُسَكم لايَضُرُّكم مَّن ضَلَّ إذا اهْتَدَيتم إلى الله مَرْجِعُكم جميعاً فَيُنبِّئُكم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون ﴾(١) . أي فيجازى كلَّ عاملٍ بعمله إنْ خيراً فخَيرٌ وإن شرّاً فشرٌّ ، وجاء عن ابن عباس في تفسيرها ، يقول الله تعالى : إذا ماالعبدُ أطاعني فيما أمرتُه به من الحلال والحرام فلا يضرُّهُ من ضلّ بعده إذا عَمِل بما أمرتُه به .

العاقل البصير :

إن العاقلَ حقّا هو الذي يبحثُ عمّا ينفعُه ، ويسعىٰ إلى مافيه خيرُه ، ويبتعدُ عمّا يضرُّه ، لأنّ الإنسانَ لم يُخلقْ عبثا ، ولم يُوجد سُدى بلا وازع ولا رادع ، وكما وُجد الإنسانُ من العدم ، فإنه سيُبعث بعد الموت ، ويُسأَلُ عن كل ماعَمِله في دنياه ، وعَمّا اعتقدَه ، وآمن به ، وسيفِرُّ في هذا اليوم المرءُ من أخيه ، ومن أمِّه وأبيه ، ومن زوجه وبنيه ، كلُّ واحد سيكون مشغولا بنفسه ، ومن رحمةِ الله بالعِباد أَنْ أرسل لهم الرسل ، وأنزل عليهم الكتبَ ، وبيَّن لهم ماينفعُهم وما يضرُّهم ، ودعا العقلَ إلى التفكُّر ،

(١) المائدة : ١٠٥ .

والتدبُّر ، والتأمل مهتدِياً بنور الدين ، مسترشدا بتعاليمه حتى يطمئنَّ بالحق ، ويسكنَ إلى الهُدى ، لايقلّد أهلَ الضلال والشرك والإلحاد ، ففي ذلك هلاك وبوار .

قال عامر بن قيس : سمعْتُ غير واحد أو اثنين من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن ضياء الإيمان أو نورَ الإيمان التفكُّرُ .

وقال سفيانُ بنُ عيينةَ : الفكرةُ نورٌ يدخل قلبك ، وربّما تمثل بهذا البيت :

إذا المــرءُ كـانت لـهُ فِكْـرَةٌ ففــي كلِّ شيْء لـــه عِبْـرَةٌ

وروى عن عيسى بن مريم عليه السلام قوله : « طوبى لمن قِيلُه تذكّرا ، وصمتُه تفكُّرا ، ونظرُه عِبرا » .

وقد ذمّ الله عز وجل من لا يعتبر بمخلوقاته الدالّة على وجوده سبحانه وعلى كمال صفاته وعظمته وقدَره ، ووحدانيته . فقال : ﴿وكأيِّن مِّن آيةٍ في السمٰوات والأرْضِ يَمرُّون عليها وهم عَنْها مُعْرِضُون * ومَايُؤمنْ أكثرُهم بالله إلّا وهُمْ مُّشركون ﴾(١) ومدح سبحانه أهل التفكّر والتدبّر من عباده : ﴿ الذين يذكُرون الله قِياماً وقُعُوداً وعَلَىٰ جُنوبِهم ويتفكَّرون في خلْق السمٰواتِ والأرضِ ربَّنا ماخلقتَ هَذا باطِلا سُبحانك فَقِنا عَذابَ النار ﴾(٢) .

قال بشر : لو تَفَكّر الناس في عظمة الله لما عَصَوْه . سبحانه وتعالى : ففي كل شيْء له آية تدلُّ على أنّه الواحد .

* * *

---

(١) يوسف : ١٠٥ : ١٠٦ .
(٢) آل عمران : ١٩١ .

بل يريد الإنسانُ ليفجُرَ أمَامه

« سورة القيامة »

الإنسان والهوى والشيطان :

الإنسانُ إذا تسلّط عليه الشيطانُ ، وتمكَّن منه ، وسيطر عليه هواه غفل عَمّا ينفعُه ، وصُرف قلبُه عن الخير ، وانحرف عن الصراط المستقيم ، وانبعث في الشرّ والفساد ، وأمعَنَ فى الضلال ، ونفسُه الأمّارةُ بالسوء تُسوِّل له ، وتُغريه بما يَضرّه ، ويسهِّل له شيطانُه كلَّ قبيح ، ويفتح له أبوابَ الإساءة ، ويدفعه إلى الإصرار على الباطل ، ويُزيّن له ماهو عليه من زور وشرور ، ويتحكم فيه فيقوده كما يقود المرءُ دابته الذلول ، وكثيرا مايُوسوس له بالشكّ في البعث للحساب فالجزاء أو بإنكاره ، لينطلق في دنياه على عمى لا يَثْنيه عن باطله وشروره شيْءٌ ، ولا يخشى لذلك عاقبة ، اعتقاداً منه أنه إذا مات صار ترابا ، وأنه لا حياة بعد الموت ، وعلى أساسٍ من هذا الاعتقاد يفجُر المنكر الملحد مع الإصرار والتمادى ، ويسدر فى غيِّه وضلاله وآثامِه حتى آخرِ عمره . ولنتدبر : ﴿ بل يُريدُ الإنسانُ لِيَفجُرَ أمَامَه ﴾[1] .

تعطيل قوى الخير في النفس :

فهذا شأن منكر البعث ، يموت ضميره ، ويُطْمَسُ قلبُه ، وتَعْمى بصيرتُه ،

(١) آية ٥ .

ويبلغ به جهلُه إلى الحدّ الذى ينكر فيه أن يجمع خالقهُ عظامَه ، وأن يحاسبَه على أعماله ، وأن يجازيه على مااقترف من الآثام ، وعلى معتقداته الباطلة ، التى بها يكون خلودُه فى نار الجحيم ، إن الملحد ينكر البعث ، ويُعطِّل في نفسه قُوى الخير ، ولا يستخدم عقله استخداما صحيحاً في البحث عن الهدى والحق ، ولا يفتح قلبَه لنداء الوحْى السماوي ، ولا ينظر في الأدلة نظرَ المتدبِّر المتأمِّل ليصلَ إلى أن وجودَه دليلٌ على وجود الصانع الحكيم ، وأن هذا الكون العظيم خالقهُ واحد لا شريك له ، وهو قادر على كل شْيء ، وأنه سبحانه وتعالى يُحيى العظام وهي رَميم ، وأنه سبحانه يُثيب المحسنَ ، ويعاقبُ المسْيءَ في الدار الآخرة ، وأن إعادة الإنسان إلى الحياة بعد موته أهونُ من إيجاده من العدم .

الميل إلى الفساد سبب الهلاك :

إن الملحد لا يستخدم عقله في النظر والاستدلال لأنه يريد أن يَمْضي في فساده ، وأن ينطلق من قيود الفضيلةِ والقيم العالية الكريمة ، وأن يتفلّتَ من حدود الضوابط الأخلاقية والمبادىء التي جاء بها الرسلُ لتحقيق الخير للإنسان بما ينطبق مع أصل فطرته ، ويهيىء له حياة مستقرة مطمئنة في الدنيا ، ويعدُّه للنعيم الأخروى .

لماذا ؟

إن الملحد ينكر البعث ، ويَغفل عن العاقبة ، وينصرفُ قلبه عن التدبر والتأمل ليركب في غَمْط الحق ، واقترافِ الآثام رأسَه ثم لا يُقلعَ عن ذلك حتى يلاقي حتفه ، ويحينَ حَيْنُه ، يقول ابن القيم في تعليقه على قوله تعالى : ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ « ثم أخبر الله سبحانه عن سوء حالِ الإنسان وإصراره على المعصية ، والفجور ، وأنه لايرعوى ولا يخاف

يوما يجمع الله فيه عِظَامَه ويبعثه حيّا ، بل هو مُريدٌ للفجور ماعاش ، فهو يفجر في الحال ، ويريد الفجور في غد وما بعده ، وهذا ضدُّ الذى يخاف الله والدار الآخرة ، فهذا ــ أي الملحد ــ لا يندم على مامضى منه ، ولا يُقلع في الحال ، ولا يعزم في المستقبل على الترك ، بل هو عازم على الاستمرار ، وهذا ضدّ التائب المنيب »[1] .

ويقول ابن عباس عن هذا الضالّ : يُقدِّم الذنب ، ويؤخِّر التوبة . وقال غكرمة : قُدما قُدما في معاصي الله لا يَنْزِعُ عن فجوره .

إن هذا الضالَّ الفاجر المتعامىَ عن الحق ، المتمادِىَ في الضلالة ، كلما نصح له ناصح بالكف والرجوع عن القبيح ، وكلما سمع من يخوّف من عذاب الله ، ومحاسبته العبادَ على أعمالهم يوم القيامة سأل ناصحَه ومخوّفَه سؤالَ سُخرية واستهزاء وعنَت : متى وقتُ القيامة ؟ وقريب هو أم بعيد ؟ إن هذا الضالَّ يسأل مستبعداً البعثَ والحشر والحساب ، ولنتدبر : ﴿ يسأَلُ أيَّانَ يومُ القيامة ؟ ﴾[2] ولنتدبر : ﴿ أإذا مِتْنَا وكُنَّا تُرابا ذَٰلكَ رَجْعٌ بَعيدٌ ﴾[3] أي بعيد وقوعه .

الإيمان بالبعث وترقية الإنسان :

إن الإيمانَ بالبعث ، والخوفَ من الوقوف بين يدى علّام الغيوب للحساب ، والخوفَ من عذاب جهنم يبعث المؤمن صحيحَ الاعتقاد إلى تطهير نفسه ، وتزكية روحه ، وإلى الاجتهاد في الطاعة والبعد عما يدنّس القلب ، فالمؤمن الموحّدُ البصيرُ يفرّ من الحرام ، ويتحاشى مواطن

---

(١) لابن القيم من كتابه التبيان في أقسام القرآن .
(٢) القيامة : ٦ .
(٣) ق : ٣ .

الشبهة ، وينأى عن الرِّيَبِ ، ويشغَل نفسه بما يَعْنيه ، وبما يُعدّه للحياة الأبدية ، وإن أصفى الناس نفسا ، وأطيبهم عشرة ، وأعظمَهم أمانةً ، وأبرَّهم ، وأحلمهم ، وأنقاهم سريرة ، وأحسَنهم خلقا ، وأصدَقهم قولا ، وأعفَّهم ، وأرحمهم ، وأشجعهم ، وأسرعهم مبادرة إلى الخيرات والمبرات هم أولئك المؤمنون الموحدون الذين اتبعوا الرسول وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه ، وأطاعوه ، واقتدَوْا ، به ، فهؤلاء يؤمَن شرُّهم ، ويُرْجى خيرهم ، وهم للدنيا زينةٌ وجمال وبهاء ، وهؤلاء هم أهل الفلاح والفوز .

أمّا منكرو البعثِ ، والغافلون عن القيامة فهم مصدر الشرور ، ومنبعُ كلِّ انحراف عن مقتضى الفطرة السليمة : شرورُهم قريبة ، وخيرُهم بعيد ، يَعكِفون على الباطل ، وينغمسون في الآثام ، تموتُ ضمائرهم ، فيرَوْن الباطل حقًّا ، والفسادَ مدنيّةً ، كما يرون الانطلاق من قيود الفضيلة والخلق الكريم حُرِّية ، فمُسِخ لذلك معنى الإنسانية في نفوسهم ، وصارت هذه النفوسُ في صورة الخنازير والكلاب والقردة لاحَياءَ ، ولا احتشام ، ولا وقار ، ولا استقامة ، ولا ورعَ ، ولا انزجار عن قبيح .

مقارنـــة :

تأمّل وقارن ياصاحبَ اللُّبِّ ، ويااذا العقل المستقيم ، قارن بين الفضيلة والرذيلة ، وبين الخير والشر ، وبين النور والظلام ، وبين الهدى والضلال : بين من يخشى العاقبة فيندم على ماضى منه ويجتهدُ في تطهير نفسه وتزكيتها فيما بقى من عمره ، وبين من هو سادرٌ في غيّه كبهيم أعمى يُعطى جسمه الفانى مُتعاً زائلة تعقبها حسرةٌ دائمة وينسى روحه ، ويغفل عن المصير ، قارن وتأمل ملكوت الله ليزداد إيمانُك بربك ، وينمو الخوف من

البعث في نفسك ، ويعظمَ رجاؤك في رحمة ربك ، في أن يقبل توبتك ، وأن يُثَبِّتك على صراطه المستقيم ، حتى تحشرَ مع الزمرة الصالحة ، والأمة الصادقة في إيمانها وفي عملها .

شكر المنعم الوهاب :

كيف يجحد الإنسان فضل ربِّه ؟ كيف ينسى الإنسانُ إحسان مولاه جل شأنه ؟ أوجده من العدم ، وسخّر له الكون ، ومنحه العقل والفهم والإدراك ، ويسَّر له سبل العيش ، ورحمهُ بغير استحقاق فهو يُقيم على معصية خالقه ، وهو سبحانه يرزقه ، ويهيىء له الأسباب اختباراً وامتحانا ، إن العقل المستقيم ، والفكر السليم ليوجب على صاحبه أن يطيع ربه ، وأن يشكره على إحسانه وفضله ، وأن يُقرَّ له بنعمه عليه ، وأن ينقادَ لشرعه الذى أرسل به رسلَه ، وما أحسنَ ماقاله بعضُهم مستدلاًّ بنعم الله على العباد على وجوب طاعته سبحانه وتعالى ، ولزوم عبادته :

هَب البعثَ لم تأتِنا رُسلُه   وجاحِمَةُ النار لم تُضْرَم
أليْسَ من الواجِب المسْتَحَقّ   ثناءُ العبادِ على المُنْعِم

البعث :

ولنتدبر الآيات من سورة القيامة قبل قوله تعالى : ﴿ بَلْ يُريد الإنسانُ ليفْجُرَ أمَامَه ﴾ لنتدبر مافيها من برهان قاطع على البعث ، ونور ساطع للنفوس المتفتحةِ على الخير ، الراغبة في حياة مطمئنة يقول سبحانه : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ لا أُقسِمُ بيوْمِ القيامة * ولا أُقْسِمُ بالنَّفْس اللوَّامة * أَيحْسَبُ الإنسانُ أن لَّنْ نَّجمعَ عِظَامَه * بَلَىٰ قَادِرين على أن نُّسوِّيَ بَنَانه ﴾(١)

---

(١) الآيات : ١ : ٤ .

فقد أكدت الآياتُ أمْرَ البعث ، وبينت أن الناسَ لا يتركهم ربُّهم بلا حِساب ولا جزاء ، مؤكّداً ذلك بالقسم بالقيامة نفسِها وفي هذا القسم تَقْريرٌ لهذا اليوم العظيم الهول ، الكثير الفزع ، الجليل الخطب ، كما أقسم سبحانه بالنفس اللوامة التي تلوم ذاتها وإن اجتهدت في الإحسان والعمل الصالح لتزدادَ دوْما من الخير ، وتزدادَ بُعدا عن الشر ، ولقد أنكرت الآياتُ على الملحدين اعتقادهم أن عظامهم لن تُجمع بعد الموت ، ليحيَوْا من جديد للحساب والجزاء ، وغفلوا عن قدرة الله عز وجل الذي يقول للشيْء كن فيكون ... آمنا بالله .

* * *

أرميرو آيةٌ بيّنة .. فاتعظوا

الحادث وأين العظة ؟ :

أَرميرو مدينةٌ تقعُ وسطَ كولومبيا في أمريكا الجنوبية ، كان أهلها يزيد عددهم على ثلاثة وعشرين ألفَ نسمةٍ يغلب عليهم اللّهْو إلى جانب حركةِ الحياةِ اليومية ، ففيها المدارسُ والمصانعُ ودورُ اللهو والمصحات ، وتنطلق فيها وسائلُ النقل بأنواعها ، والناسُ يَمْضُون حسبما يُهيأ لهم من أسباب ماديةٍ ، كما هو الحال في مدنية عصرنا الحاضر التي جمعت أشتاتا من الشرور والمآثم إلى جانب ماحققته من تقدُّم مادىّ نلمسه في وسائلِ النقل ، وفي الصناعة ، وفي الزراعة ، والعمارة ، أمّا الآخرةُ فالناسُ عنها في غفلة ساهون ، وهي حياتُهم الأبدية ، وإليها مصيرهم ، وفيها السعادةُ الدائمة ، أو الشقاءُ الدائم .

إن ماوقع لأرميرو لمن الأدلة على ضَعف البشر ، وعَجْزهم ، وبُرهانٌ على أن لهذا الكون مُدبِّراً حكيما عليما قديرا يفعل سبحانه مايشاء ، لارادَّ لقضائه ، ولا شريكَ له ، ولا يقع في الكون إلا مايريده .

ففي صباح أحد أيام الربع الأول من عام ستة بعد الأربعمائة والألف من الهجرة النبوية الشريفة (النصف الثاني من عام خمسةٍ وثمانين بعد التِّسعِمائة والألف من الميلاد) انفجر بركانٌ فجأة ، وقذف بالحُمم

المصهورة من باطن الأرض فانشقّت الأرض ، وخُسف بالمدينة وبمَن فيها ، وما فيها ، ومُسِحت أرميرو تماما من على وجه الأرض ، وتحولت إلى بقعة من الطين ، وقد دُفن كلُّ شيْء تحت آلاف الأطنان من الطين ومع الدور والمصانع والمدارسِ ودورِ اللهو والأسواقِ والمتاجرِ دُفِن نَحْوُ ثلاثةٍ وعشرين ألفَ نسمة .

عبرة لكل ذى عقل سليم :

لاشك أنها كارثةٌ مُفْجِعةٌ تنبِّه في الإنسان مشاعرَ كثيرةً وعواطفَ متعددة ، ولكنها تلفِتُ الإنسانَ إلى التدبُّر وإلى العِظَة . والاعتبار ، ولابد لذوى العقولِ الراجحةِ من أن ينتفعوا ليزداد المؤمن إيمانا ، وليتنبّه الغافل ، ويفكرَ في المآل ، ويُعِدّ نفسَه لليوم الآخر ، فإن القادر العظيم الذي أحيانا ويُميتنا ، قادرٌ على أن يُحيينا بعد الموتِ للحساب والجزاء وليس بعد هذه الدارِ إلا الجنة أو النار .

إن ماحدث في أَرميرو يُحيي في النفس والشعور ويضعُ أمام العقلِ ماحدث لقومِ نوح عليه السلام حين غَفَلُوا عن ربّهم ، ولم يصدّقوا رسولَهم فَفُتِّحت أبواب السماءِ بماءٍ مُنهمر ، وفُجِّرت عُيونُ الأرض ، وغَرِق المعاندون ، وصاروا آية لمن يدَّكِر .

ولنتدبر : ﴿ قال رَبِّ إنّ قَوْمي كَذَّبون ۝ فافْتَحْ بَيْني وبَيْنَهُم فَتْحاً ونَجِّني وَمَن مَّعِيَ مِن المؤمنين ۝ فأنْجَينَاه ومَن مَّعه في الفُلْك المشحُون ۝ ثم أَغرَقْنا بعْدُ الباقِين ۝ إنَّ في ذلك لآيةً وَمَا كان أكثرُهم مُّؤمنين ﴾[١] .

---

(١) الشعراء : ١١٧ : ١٢١ .

ولما عتا قوم لوط عتوّاً كبيراً ، ولم يلتفتوا إلى البرهان والدليل ، وعاثوا في الأرض فسادا دعا عليهم نبيُّهم ، ولنتدبر ماوقع للقوم الذين غُرُّوا وخُدعوا بماهم فيه من قوة وبأس ، يقول الله تعالى : ﴿ فلمَّا جاء أمرُنا جعلنَا عالِيَها سَافِلَها وأمطَرْنا عليها حِجَارة مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُود * مُسَوَّمَةً عِندَ ربِّك وَمَاهِيَ مِنَ الظَّالِمينَ بِبَعِيد ﴾[1] .

ولنتدبر ماجاء في عادٍ قوم هود فإنهم عاندوا الحق ، وانصرفوا إلى الباطل ، واستكبروا في الأرض ، وكانت لهم قوةٌ وصولةٌ فغُرّوا ونَسُوا الله فأَنساهُم مصالحَ أنفسِهم حتَّى جاءهم الريحُ الصرصرُ في يوم نحس ، يقول الله تعالى : ﴿ فأمّا عادٌ فاستَكْبَروا في الأرض بغير الحقِّ وقالوا مَن أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أوَ لَمْ يَرَوْا أنّ الله الذِى خَلَقَهم هُو أشَدُّ مِنْهم قوةً ، وكانُوا بآياتِنا يَجْحَدُون * فأرسَلْنا عَلَيْهم رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّام نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهم عذابَ الخِزْى في الحياةِ الدنيا ، ولَعَذَابُ الآخرةِ أخْزَىٰ وَهُم لا يُنْصَرون ﴾[2] .

والريح الصرصر هي الشديدة السَّموم أو البرد أو الصوت ، وكم رأى الناسُ في عصرنا الحاضر عن طريق المِرْناةِ ـــ شاشة التلفاز ـــ الريحَ العاصفَ في مناطقَ من الأرض وهي تكسح المنازل ، وتقتلعُ الأشجارَ وتَفِيضُ مياهُ البحارِ أو الأنهار ، فتُغرِق كلَّ شيْء .

وأمَّا ثمودُ فقد أقام لهم نبيُّهم صالحٌ الأدلةَ البينةَ على وجود الله ووحدانيته ودعاهم إلى عبادة الله وتقواه ، ولفتَهم إلى نِعَم الله عز وجل التي يتقلّبون فيها ، وإلى ماأعطاهم الله من قدرةٍ على إقامة البيوت ينحتونها من الجبال ، دعاهم صالح إلى شكر النعمة ، وتوحيدِ الله ، ولكنهم أبَوْا ،

---

(١) هود : ٨٢ : ٨٣ .
(٢) فصّلت : ١٥ ، ١٦ .

وتكبروا : ﴿ فَعتَوْا عَن أمْرِ ربِّهم فأخذتْهم الصاعقةُ وهُم يَنْظرون * فَمَا استطاعُوا مِنْ قِيامٍ ومَا كانُوا مُنتَصِرين﴾[1] .

إنّ في قَصص الماضين لعبرةً لذوي البصائر ، وفي كل يوم يرى الناس آياتٍ بيناتٍ على ضَعْف الإنسان وعَجْزه وافتقاره ، وعلى أن الغُرور يدفع بالبشر إلى الهلاك ، فإذا عاش المرءُ كافرا ، ومات كافرا ، فقد شَقِي في الحياتين ، ولنتدبر : ﴿ إنّ الّذين كفرُوا وماتُوا وهم كُفّار أولٰئكَ عليهم لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعِين * خالِدينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ ولا هُم يُنْظَرُون ﴾[2] .

حاجة الناس إلى دين الإسلام :

إن العالمَ كلَّه في حاجة إلى دين الفطرةِ الموافِق لطبيعةِ الإنسان التي خلقَه الله عليها ، وهذا الدينُ هو الإسلام الذي يدل الإنسانَ على خالقه فيلجأُ إليه ، ويستعيذُ به ، ويحتمي بحمى الإيمان ، فيشعر بالطمأنينة ، وتصحُّ نظرتُه إلى نفسه وإلى الكون المُحيط به ، ويرى أنه دوما في حاجة إلى عوْن ربّه ، وأنه مُفتقر إلى رحمتِه في الدنيا وفي الآخرة .

الحوادث العامة وأهل النجاة :

إن الإيمان الصحيحَ ملاذٌ عند الشدائد والمحن ، ونورٌ للإنسان في حياته يرشده إلى الخير ، ويكفُّه عن الشر ، وفي الحوادث العامةِ يَهْلك البرُّ والفاجرُ ، والمكلَّف البالغُ من الرجال والنساء ، وغيرُ المكلّف كالأولاد دون البلوغ ، إذْ جَرت سنةُ الله عز وجل بأن النقمة لا تُصيب الذين ظَلموا أنفسَهم خاصة ، وفي يوم القيامة يُرَدُّ الملحدون والمشركون والمنافقون إلى

(١) الذّاريات : ٤٤ : ٤٥ .
(٢) البقرة : ١٦١ ، ١٦٢ .

أشد العذاب ، أما أهل النجاة فيرحمهم ربُّهم ، وَيشملهم بعفوه وإحسانه وجوده وكرمه .

الحوادث والتنبيه من الغفلة :

إن حوادث الخسف وفيضانِ الماء وهبوب الريح العاصف ، والبراكين والزلازل والصواعق ونحوها ينبغي أن تُوقظ الإنسانَ وَتلْفِته إلى ضعْف حيلته ، وإلى أنّ القيامة كائنةٌ لا محالة ، وإلى أنّ البعث آتٍ لا ريبَ فيه ، وإلى أنَّ الحساب حقٌّ والجزاءَ حق ، وإلى أنَّ العالم كلَّه إلى فناء ، وأن الدائم الباقيَ هو الله الواحدُ الأحدُ القادر على كل شيْء الذي بيده ملكوتُ كل شيْء .

ولنتدبر : ﴿ قُلْ هُو القادرُ علىٰ أن يبعثَ عليكم عذاباً مِّن فَوْقكم أو من تَحْت أرجلِكم أو يَلْبِسَكُم شِيَعاً ويُذِيقَ بعضَكُم بأْسَ بَعْض اُنْظُرْ كَيف نُصَرِّفُ الآياتِ نعلَّهُم يَفْقَهُون ﴾[1] أي لعلهم يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه .

أرميرو والطوفان وحوادث أخرى :

إن الخسف الذي حدث في مدينة أرميرو يُعَدّ أكبرَ حادثٍ مفزع في تاريخ كولومبيا ، وأمريكا الجنوبية ، ولقد ظلت الحُمم والأبخرة تندفع من البركان أياما بعد أن ابتلعت الأرضُ المدينةَ بمن فيها ومافيها .

إن بعض الناس كان قد اشتبه عليه أمر الطوفان الذي أغرق الكفار في عهد رسول الله نوح عليه السلام ، ولكنهم حين علموا بالحوادث الأرضية ،

---

(١) الأنعام : ٦٥ .

ووقفُوا على أخبارها كان ذلك منبِّها ذوى البصائرِ إلى قدرة الخالق ، وداعياً يهتفُ بكلِّ ذي لب أنْ آمِنْ بربِّك ، واعبُدْه ، وتوكَّل عليه ، ووجِّه وجهَك إليه في إخلاص وتضرُّع قبلَ فوات الأوان .

لقد قرأ الناسُ عن بركان « فيزوف » الذي وقع سنة تسع وسبعين بعد الميلاد فغمر مدينة بومبي برمَّتها ، وأباد أهلها جميعا وهم لاهون ، وفي عام عشرة بعد التسعمائة والألف وقع زلزال « مسينا » في إيطاليا فهُدمت الدورُ على أهلها ، وطغَى الماءُ على المدينة ، وهلك نحُو ربْع مليون نسمة ، وبعد ذلك بثلاثَ عشرةَ سنةً حدث زلزالٌ في اليابان كان لا يَقِلّ في شدته عن زلزال « مسينا » إذ طَغَىٰ الماءُ فأغرق ألوفاً مؤلفة من الأهلين ، وبعد ذلك بنحو إحدى عشرةَ سنةً وقع زلزالان في سنتين متواليتين في الهند غَيَّرَ كلٌّ منهما وجْهَ الأرض في إقليم واسع وهلك ألوفٌ من الناس والدوابِّ والأنعام ، كما هلك الأخضر واليابس .

إن ماحدث في أرميرو وغيرها من زلازلَ وبراكينَ غيَّرت وجه الأرض ، وأصبح المكان في غمضة عين غيرَ ماكان يألفه مَنْ زاره ورآه .. إن هذا كلَّه ليدعُونا إلى العِظة والاعتبار وتدبُّر مايكون عند انقضاء الدنيا : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمٰوات وَبَرزُوا لله الواحد القهار * وَتَرَىٰ المُجْرمين يَوْمئذٍ مُّقَرَّنين في الأصفاد * سَرَابِيلُهم مِّنْ قَطِرانٍ وَتغْشَىٰ وجُوهَهم النَّار * لِيَجْزِى اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّاكَسَبَتْ إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحساب * هَذَا بَلاَغٌ للنَّاس ولْيُنْذَروا بِه ولْيَعْلَموا أنما هُو إلٰهٌ وَاحدٌ وليذَكَّرَ أولو الألباب ﴾[١]

---

(١) إبراهيم : ٤٨ : ٥٢ .

إنما خلق الإنسان ولينت مفاصله لعبادة الله

سبحان اللهٰ العليِّ العظيم الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وركبه أحسن تركيب ، وكرّمه بالعقل ، وسخّر له الكون ، وجعله في أحسن صورة .

سبحان من زيّن الإنسان بالفهم والتمييز والمنطق ، وشق له سمعه وبصره ، وجعل له لسانا وشفتين ، وهداه وأرشده وبين له الخير والشر ، والنافع والضار .

لقد تأمّل مفكّر من السلف الصالح خِلْقةَ الإنسان ، واعتدال قامته ، وحُسن صورته ، وما رُكّب في جسمه من مفاصل ثم قال : إذا تفكّر الإنسان في خلْق نفسِه لعرف أنه ماخُلق وماأُلينت مفاصلُه إلا لعبادة ربه .

وهذا حقّ ، إذ الإنسانُ خُلق ليعبد ربه ، ويشكرَ المنعم ويُبتلى بالخير والشر ، والله عز وجل يقول لعباده : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ إلّا لِيَعْبُدون ﴾[1] .

تأمَّلْ مفاصِلَك واشكُرْ ربَّك :

إنَّ في جسم الإنسان ثلاثَمائةٍ وستين مِفْصلا ، وُزِّعت على أعضائه

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

بتدبير حكيم عليم ، ولينظر المرء منا إلى أصابعه ، وليتأمّل مفاصلها ، ثم ليفكّر في منافعها ليزداد المؤمن إيمانا بقدرة ربه ورحمته ووحدانيته ، وليخجل الملحد من نفسه ، ويعودَ إلى ربه تائبا من ذنبه ، نادما على ماكان منه مقرّاً بأن هذا التركيب العجيب لايمكن أن تأتي به المصادفة ، ويستحيل أن تتحقق في النوع الإنساني إلا بتدبير الخالق العظيم ، الذي يقول للشيْء كن فيكون ، انظر إلى التناسب بين مواقع المفاصل ، انظر إلى المواتاة التامة فيما يُطلب منها من الانضمام والانفراج ، والانقباض والانبساط ، وانظر إلى أطوالها ومابينها من تناسب مع مابين كل إصبع وآخر من فارق في الطول ، وهي بذلك تؤدى ماهُيئت له على أكمل وجه ، وهي لذلك نِعمت الآلةُ لتناول الأشياء ، ولمزاولة الأعمال المختلفة ، هلا تأمّلت نفسك وأنت تتناول كوب الماء وترفعه إلى فمك في سهولة ويسر ، ولو قارن الإنسان ذلك بتناول الحيوانات طعامها وشرابها بفمها مباشرة لرأى كيف كرّمَه الله ، ولعرف نعمة الله عليه ، ولاجتهد في شكرها ، ولكنّ قليلا من العباد هم الذين يتدبرون تدبُّر طالب الحق ، والساعى إلى الهدىٰ والخير .

وسبحان القائل ﴿ اعْمَلُوا آلَ داودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُور ﴾[1] والقائل : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ الناسِ ولو حَرصْتَ بُمؤْمِنين ﴾[2] والقائل : ﴿ أفلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُها ﴾[3] .

ولنتدبر قوله تعالى فى ردّ أوهام وأباطيل منكرى الوحى الإلٰهيِّ والبعثِ بعد الموت : ﴿ أَيحْسَبُ الإنْسَانُ أن لَّنْ نَّجْمَعَ عِظامَه * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ

---

(١) سبأ : ١٣ . (٢) يوسف : ١٠٣ . (٣) محمد : ٢٤ .

أن نُسَوِّيَ بَنَانَه ﴾(١) .

فكما خلق الله الإنسان في أحسن صورة ، فإنه سبحانه قادر على جمع عظام الإنسان ، وإعادة تركيب أعضائه كلِّها كما كانت أولا ، فيتمثل بشرا سوياً كاملا لاينقصه شيْء حتى أطرافِ أصابعه التي هي أصغر أعضائه ، ومنتهى أطرافه ليعود إلى الحياة تاما غير ناقص .

البنان والبصمات :

وتأمل قدرة الله عز وجل في البنان وببصماتها يتم التمييز بين إنسان وآخر في زمان واحد كانا أو في زمانين مختلفين ، من بلد واحد أو من بلدان متباعدة ، تأمّل وتدبّر ، وقُل : أيجوز لعاقل مفكر يحترم عقله ، ويحترم فهمه أن يقول إن هذا يحدث بالمصادفة ؟ أيجوز لذى لبٍّ وقلب حيٍّ أن يقبل لنفسه الإيمانَ بما ليس معقولاً ولا مقبولا ؟ إن بصمات الأنامل لمن دلائل القدرة ، وبراهين الوحدانية القاطعة بوجود الخلاق العظيم الذي أحسن كل شيْء خلقه ، وجعل خلق الإنسان من طين .

إن الخالق العظيم الذي خلق لنا الأصابع والمفاصل قادر على أن يجعلها مستوية قطعة واحدة ذات صفيحة جامدة كخفّ البعير ، فتضيعَ منافعها ، وتذهبَ فائدتها .. وقد لمح هذا المعنى بعض المفسرين لمعنى قوله تعالى : ﴿ بلى قادرين على أن نسوّى بنانه ﴾ ففسروا الأنامل بأصابع اليدين والرجلين ، وقالوا : أي نجعل أصابع يديه ورجليه شيئا واحدا كخف البعير ، أو كحافر الحمار فلا يقدر أن يرتفق بها بالقبض والبسط والأعمال ذات العلاقة بحياة الإنسان كالكتابة والحياكة ورفع الطعام والشراب إلى فمه

---

(١) القيامة : ٣ ، ٤ .

وغير ذلك .. وهذا المعنى الملموح يثير في النفس مقابلةً واضحةً بين مانحن عليه من نعمة المفاصل وجمالِ الصورة وبين ماعليه ذواتُ الخفِّ والحافر من الدواب من عدم القدرة على الانتفاع كما ينتفع الإنسان بيده بما فيها من المفاصل .. مما يدفع أصحاب القلوب الليِّنة ، والأفئدة المنيرة إلى المزيد من شكر المنعم واستخدام الجوارح فيما خُلقت له ، وجعْلها دوما في خدمة مولاها عز وجل وطاعته ..

المفاصل والسجود :

إنك أيها الإنسان إذا تأملت كيفيةَ السجود لله لأدركتَ أن الإنسان لم يهيأ بهذه المفاصل : في الكف وفيما بين الذراع والساعد ، وفيما بين الساعد والكتف ، وفيما بين القدم والساق ، وبين الساق والفخذ ، وبين الفخذ والعجز إلى جانب الظَّهر وتركيبه العجيب والعنق والرأس .. إننا إذا تأملنا ذلك وتدبرناه لأيقنا غاية اليقين أن الإنسان خُلق وهُيِّيء ليعبد الله ، كما أمر الله ، وأن الإنسان مخلوق لغاية ، ولم يوجد عبثا ، وأنه سيُبعث بعد موته ، ويحاسب ليميز الله الخبيث من الطيب .. فسبحان الخالقِ المدبرِ الحكيم الذي لا إلٰه إلا هو ، ولا شريك له ، ولا ولد ، ولا صاحبه .

ولنتدبر قول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُم اللهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لّا إِلٰه إلّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُون * كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الذِينَ كانُوا بآيَاتِ الله يَجْحَدُون * اللّهُ الذي جَعَلَ لَكُم الأَرْضَ قَرَاراً والسَّمَاءَ بِنَاءً وصَوّرَكم فَأَحْسَنَ صُوَرَكُم وَرَزَقَكُمْ مِّن الطّيِّباتِ ذَٰلِكُم الله رَبُّكُم فَتبارَكَ الله ربُّ العَالَمِين * هُوَ الحيُّ لا إِلٰه إلا هُو فادْعُوه مُخلِصِين لهُ الدِّينَ الحمدُ لله ربِّ العَالَمين ﴾[1]

---

(١) غافر : ٦٢ : ٦٥ .

سبحانه وتعالى خلق كل شيْء ، وهو ربُّ كل شيْء ، وهو الإله الواحد الذي لا شريك له في ملكه ، فكيف يجحد إنسان فضلَ ربِّه ، وكيف يَعْمى ذو لبٍّ عن آيات قدرته وبراهين رحمته ، وهو سبحانه الذي هيأ الأرض لحياة الإنسان وبنى السماء بناء محكما جميلا وأودع فيهما من البركات والخيرات مايجلّ عن الحصر ، وخلق الإنسان في أحسن صورة ، وجعل بين أعضائه من التناسق والانتظام والتعاون مافيه عبرة للعاقل ذي البصيرة ، ومن رحمته بالعباد أنه يرزقهم من الطيبات يرزق الكافر والمؤمن ، والعاصى والمطيع ، ابتلاء واختبارا ، وهو سبحانه الحي الباقي الدائم ، فكيف نعبد غيره ؟ كيف نجحد فضله ، كيف نعمى عن آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ورحمته بالعباد ، إن العاقل حقا هو الذي يعبد ربه مخلصا له الدين : ﴿ ذَٰلِكُم اللّهُ رَبُّكُم لا إِلَٰهَ إِلّا هُو خَالِق كلِّ شيْءٍ فاعبدُوه وهُو عَلَىٰ كلِّ شيء وَكيل ﴾[1] .

المستكبرون عن الطاعة في الموقف العظيم :

إن الذين استكبروا عن طاعة الله عز وجل ، ولم يُصلّوا مخلصين الطاعةَ لربهم ، ولم يسجدوا متذللين بين يدى الرب يرجون رحمته ويخافون عذابه ، سيندمون غاية الندم : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عن سَاقٍ ويُدعَوْن إِلَىٰ السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطيعُون ﴾[2] في الساعة التي يشتد فيها الكرب يوم القيامة ، ويعظم الهول ، ويُدعى العباد للسجود بين يدى الرب سبحانه وتعالى تشريفا لأهل الطاعة والإذعان الذين شكروا النعمة ، واستخدموا جوارحهم في الطاعة ، ومفاصلهم في الصلاة وكثرة السجود ، وتبكيتا وتقريعا

---

(١) الأنعام : ١٠٢ .   (٢) القلم : ٤٢ .

للمستكبرين الذين دعاهم المؤذنون للصلاة والفلاح فلم يجيبوا ، ووضحت أمامهم الآيات والبراهين فعموا وصمّوا هؤلاء يقفون في هذا اليوم : ﴿ خاشِعةً أبصارُهُم تَرْهَقُهم ذِلّةٌ وَقَد كَانُوا يُدْعَوْن إلىٰ السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُون ﴾ [1] .

وفي هذا الموقف العظيم يرفع المؤمنون رؤوسهم من السجود ووجوهُهم قد علاها النورُ والبهاء ، أما المستكبرون من الكفار والعصاة والملحدين والمنافقين فإنهم حين يُدعون إلى السجود تصير أصلابُهم كصياصي البقر مثل القرْن أو كصفيحة نحاس إذ تصير الفَقَراتُ طبقةً واحدة أو فَقَارة[2] واحدة ، فلا يقدر واحد منهم على السجود ، وتعلو الكآبة وجوههم ، ويغشاهم الذل والندامة والحسرة ، وقد كانوا يُدعون إلى السجود في الدنيا وهم سالمون أصحاء ، ومفاصلهم وفقرات ظهورهم لا خلل فيها ، ويسمعون حَيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح فلا يُجيبون ، فيُفضَحُون في يوم الهول الأعظم ، ويُشَرَّف أهل الطاعة والكرامة والتواضع .

فطوبى لمن تدبّر ووعى .

* * *

(١) القلم : ٤٣ .

(٢) الفقارة : بفتح الفاء والقاف واحدة من عظام السلسلة العظمية الظّهرية الممتدة من الرأس إلى العُصعص ، وعدّتها في الإنسان ثلاث وثلاثون فقارة ، سبع في العنق ، واثنتا عشرة في الظهر بين الأضلاع ، وخمسٌ في البطن ، وخمس في العجز ، وأربع في العصعص وجمعها فقار .

التفكّر الصحيح ضياءٌ وأمن وسعادة

جاء في الأثر : « تفكّر ساعة أفضل من عبادة سنة » ذلك لأن التفكُّرَ نورُ القلب ، وضياء الفكر ، يزيد أولى الألباب يقينا ، وينمّى في نفوسهم حب الطاعة ، وكراهية المعصية ، ويعينهم على تثبيت أقدامهم على طريق الاستقامة .

التفكّر في ملكوت السموات والأرض :

إن أولى الألباب أصحابَ العقول الراجحة والقلوب المضيئة إذا نظروا فيما خلق الله تعالى من السموات والأرض ، وطلوع الشمس من مشرقها ، وغروبها في مغربها ، ونظروا في اختلاف الليل والنهار ، وفي البحار والأنهار والعيون ، وفي السحب والمطر ، والرعد والبرق ، وفي الدواب ومافيها من عجائب الخلْق ، وفي الزروع والثمار ، والحبوب والفواكه ، وفي السهل والجبل .. وغير ذلك مما نراه في هذا الكون الجميل المتناسق ، إن أولى الألباب إذا نظروا في هذه الآيات ، وتفكروا فيها ، ازدادوا يقينا ومعرفة بعظمة الخالق المدبّر الحكيم : ﴿ إنّ في خَلقِ السَّمٰواتِ والأرضِ واختلافِ اللّيلِ والنّهارِ لآياتٍ لأُولِى الألباب ﴾[1] .

ولنتدبر : ﴿ إنَّ في اختلاف اللّيلِ والنهارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ في السمٰواتِ

---

(١) آل عمران : ١٩٠ .

والأرضِ لآيات لقومٍ يَتَّقُون ﴾(١) .

ولنتأمل : ﴿ أوَلَم ينظُروا في مَلكُوتِ السمٰواتِ والأرضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ من شيْءٍ وأَنْ عَسَىٰ أن يَكُونَ قَدِ اقْتَربَ أَجَلُهُم فبأيِّ حديثٍ بَعْدَهُ يَؤمِنُون ﴾(٢) .

أي أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآيات الله في ملك الله وسلطانه في السموات والأرض وما فيهما من العجائب والجمال والاتّساق فيتدبروا ذلك ، ويعتبروا به ، ويعلموا أن ذلك الخلْق إنما هو لمن لا نظير له ولا شبيه ولاندّ ، فيردَّهم ذلك إلى الإيمان الصادق بعظمة الخالق ووحدانيته وبحقّه في أن تكون العبادةُ والدينُ الخالصُ له وحده سبحانه وتعالى ، وبوجوبِ التصديق برسوله وبما أخبر به عن ربه ، ووجوب اتباعه ﷺ ، مع الإنابة والطاعة ، وخلْع الأندادِ والأوثان وسائرِ المعتقداتِ الباطلة ، خشية أن تكون آجالُ هؤلاء المكذبين قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه .

التفكُّر في آيات الوحي :

إن ماجاء به محمد ﷺ هو الحقُّ ، ومعجزتُه باقية ، تتحدى العقولَ والأفهام إلى يوم القيامة ، فلماذا لا يتدبر أهل الحكمة والعقل آياتِ الوحْى التى جاءهم بها محمد ﷺ لتنير لهم قلوبهم ، وتضيء عقولهم بنور العلم والحكمة والفهم الصحيح ، ولترشدهم إلى العقائد الصحيحة ، والأعمالِ الصالحة ، والفضائل العالية الثابتة ، ولتدلّهم على مايؤدى بهم إلى السعادة الأخروية ، وينجيهم مما يحذرون ويخافون من عذاب الله وسخطه وغضبه .

---

(١) يونس : ٦ .　　　(٢) الأعراف : ١٨٥ .

إن الذي لاينتفع بما جاء به محمد ﷺ من عند الله عز وجل ، ولا يصدق به فلن ينفعه علمٌ ، ولن تنفعه كتب ، ولن تنقذه من عذاب الله أحاديثُ أيا كان شأنها ، ولنتدبر : ﴿ فبأيّ حَديثٍ بَعْدَهُ يُؤمِنُون ﴾ .. أيْ فبأي تحذير وترهيب بعد تحذير محمد وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في آى كتابه يصدِّقون ؟ إن لم يصدّقوا بهذا الحديث الذي هو القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ؟ وماجاء فيهما من براهين دالة على صدق الداعى ﷺ فيما بلّغ عن ربه ، ومافيهما من حكم وأحكام ، ومواعظَ وعبر ، وتبصرةٍ وذكرى لكل من كان له قلبٌ يعى وعقلٌ سليم وفكرٌ مستقيم .

التفكُّر في آلاء الله ونعمائه :

وكما أن العاقل البصير من ذوى الألباب مطالَبٌ بأن يتفكّر فى ملكوت السموات والأرض ، وبأن يتدبر آيات الله في كتابه الحكيم ، فإنه مطالب أيضاً بالتفكر في آلاء الله ونعمائه ، بأن ينظر في نعم الله ومافيها من رحمة بالعباد ، قال تعالى : ﴿ وإنْ تَعُدُّوا نِعْمةَ اللّهِ لا تُحْصُوها ﴾[1] وإذا تفكر المرء في نعم الله ، وشكَر المنعمَ سبحانه وتعالى ، حفظ الله عليه نعمه ، وزاده ، وشرّفه في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ وإذْ تأذَّنَ ربُّكم لئِنْ شَكَرتُم لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[2] وإن إقرار العبد بنعم الرب يزيد في المحبة ، ويعين الإنسان على استخدام النعمة فيما خُلقت لأجله ، واستعمالها في طاعة ربه ، ولذا كان أهل الشكر والحمد أكثر الناس طمأنينة ، وأبعدهم عن المعاصى ، وأزكاهم نفوساً ، وأطيبهم عِشْرة ، وأحسنهم أخلاقا ، إذ

---

(١) إبراهيم : ٣٤ .   (٢) إبراهيم : ٧ .

عرفوا نعمة الله عليهم فأدَّوا حقه ، وأطاعوا أمره ، فتواضع القويّ ، وسخت نفس الغنيّ ، وعفا القادر عن زلة أخيه ، وعدل الحكَم ، وصدق اللسان ، وحُفظت الأمانة ، وصينت العهود ، وفشا الإحسان بين أهل الإيمان ، وحمدوا الله في السراء والضراء ، وفى الشدة والرخاء فعاشوا في أمن وسكينة مع الرضى والقناعة .

التفكُّر في الثواب والعقاب :

وكما ينبغى لذوى الألباب أن يفكروا فى الآلاء والنعماء فإنه ينبغى لهم أن يتفكروا في الثواب ، أن يتفكروا فيما أعدّ الله لأوليائه في جنة النعيم من الكرامة والرحمة ، اذ التفكر في ثواب الله ، وما أعده الله من منازل لأهل طاعته من الموحّدين الصادقين المخلصين يزيد المؤمن رغبة في الجنة ونعيمها ، واجتهاداً في طلبها ، وقوة في طاعة ربه ، كما يزيده بُعداً عن الرذائل والقبائح ومساوِىءِ الأعمال والأخلاق ، ولنتدبر قوله تعالى : ﴿والَّذينَ آمنُوا وعَمِلوا الصّالحاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْساً إلّا وُسْعَها أولٰئِكَ أصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فيها خَالدُون * وَنَزَعْنَا مَافِي صُدورهم مِّنْ غِلٍّ تَجْرى مِنْ تَحْتِهِمُ الأنْهارُ وَقَالُوا الحمدُ لله الَّذِى هَدَانَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لولا أنْ هدانا الله لَقَدْ جَاءَتْ رسُلُ رَبِّنا بالحَقِّ ونُودُوا أنْ تِلْكُمُ الجنّةُ أُورِثْتموها بما كنْتُم تَعْمَلُون ﴾(١) .

وكما يتفكر العاقل في ثواب الله ، ينبغى له أن يتفكر في عقابه ، أن يتفكر فيما أعده الله لأعدائه في نار جهنم من الهوان والمذلة ، والعذاب الأليم إذ التفكر في سوء المنقلَب يزيد المرءَ رهبة ويملأ قلبه خشية ، ويكون

---

(١) الأعراف : ٤٢ ، ٤٣ .

هذا التفكرُ قوة له على الامتناع عن المعاصى ، واجتنابِ الشبهات ، والفِرار من كل مايجلب غضبَ الله ، وبذلك يعيش الصالحُ بين الخوف والرجاء ، الرجاءِ في قبول العمل الصالح والطمعِ فيما عند الله من الثواب ، والخوفِ من عذاب الله .

ولنتدبر : ﴿ فإذا جاءت الطامَّةُ الكبرى * يومَ يتذكَّرُ الإنسانُ ماسعَىٰ * وبُرِّزت الجحيمُ لمن يرىٰ * فأمّا مَنْ طغىٰ * وآثرَ الحياةَ الدنيا * فإنّ الجَحِيمَ هي المأوىٰ * وأمّا مَنْ خاف مَقامَ ربِّه ونهىٰ النفسَ عن الهوىٰ * فإن الجنّةَ هِى المأوىٰ ﴾(١) .

وإن كلَّ مُقصِّر وكلَّ مسيءٍ إذا تفكر في إحسان الله إليه ، وفي أنه سبحانه لم يعاجله بالعقوبة في الدنيا ، وفي أنه سبحانه وتعالى ستر عليه ، وفي أنه سبحانه وتعالى دعا عباده إلى التوبة والإنابة إذا تفكر العبد في هذا الإحسان وفى جفاء نفسه وتقصيرها فإن التفكرَ يزيدُه حياءً ، ويحيى قلبه ، فإذا لبّى نداء ربه كان من سعداء الدارين ، والمرحومين في يوم يشقى فيه أهل الإنكار والجحود والعمى والضلال .

والله عزّ وجلّ ينادى عباده إلى ساحات كرمه وجوده ، ويفتح لهم أبواب رحمته ، ليبادروا إلى التوبة والإنابة قبل الحسرة والندامة ، ولنتدبر :

﴿ قُلْ ياعبَادِىَ الَّذِين أَسْرفُوا عَلَىٰ أَنْفُسهم لا تَقْنَطُوا من رحمة الله ، إنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إنّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحيم * وأنيبُوا إلىٰ رَبِّكُم وأَسْلِمُوا لهُ مِن قَبْلِ أن يأتيَكُم العذابُ ثم لاتُنصَرُون * واتَّبِعُوا أحْسَنَ مَا أُنزل إليكم مِّن رَّبكم من قَبْل أن يأتيَكُم العذابُ بَغْتةً وأنتُمْ لا تشعُرون * أن تقولَ نفسٌ

---

(١) النازعات : ٣٤ : ٤١ .

ياحَسْرَتا على مافرَّطْتُ في جَنْب اللهِ وإن كنتُ لِمنَ الساخرين * أو تقولَ لو أنّ الله هَداني لكنتُ مِنَ المتّقِين * أو تقولَ حِينَ ترىٰ العذابَ لَوْ أنّ لِي كرَّةً فأكونَ مِنَ المُحسنين * بَلَىٰ قدْ جاءَتْكَ آياتِى فكذّبتَ بها واستكْبَرْتَ وكنتَ من الكافِرين ﴾[1] .

نسأل الله عز وجل أن يرحمنا في يوم الهول الأكبر ، وأن يملأ قلوبنا أمنا وإيمانا .

* * *

(١) الزمر : ٥٣ : ٥٩ .

فما يكذّبك بعد بالدّين ؟

قال ابنُ الجوزي في تأملاته : إن الله عز وجل جعل لأحوال الآدمي أمثلةً ليعتَبِر بها ، وبراهينَ مِنْ حوله لتدلَّه على البعث بعد الموت :

فمِن أمثلة أحواله القمرُ الذي يبتدئُ صغيراً ، ثم يتكاملُ بدراً ، ثم يتناقصُ بانْمِحاق[1] وقد يطرأ عليه مايُفسده كالكسوف .

فكذلك الآدميُّ أولُه نُطْفةٌ ، ثم يترقَّى من الفساد إلى الصلاح[2] ، فإذا تمَّ كان بمنزلة البدر الكامل .

ثم تتناقصُ أحوالُه بالضعف ، وَرُبَّما هجم الموتُ قبل الشيخوخة هجومَ الكسوف على القمر ، قال الشاعر :

والمرءُ مثلُ هلالٍ عندَ طَلعتِه ... يبدُو ضئيلاً لطيفاً ثم يَتَّسِقِ

يزدادُ حتَّى إذا ماتَمَّ أَعقبَه ... كَرُّ الجَدِيدين[3] نقصاً ثم ينمحق

انتهى[4]

(١) انمحاق الشي وامتحاقه : نقصه وذهابُ بركته .
وانمحاق القمر : اختفاء نوره في آخر الشهر القمرى .

(٢) الترقى من الفساد إلى الصلاح إشارة إلى النطفة التى لا تبدو فيها حياة ثم تصير علقة فمضعة : وهكذا إلى أن يخرج المولود إنسانا سويا جميل الصورة .

(٣) الجديدان : هما الليل والنهار وتعاقبهما .

(٤) من كتابه صيد الخاطر .

أي إن الهلالَ يصير بدرا ، ثم يلحقُه النقصُ مع كرِّ الليالي حتى يختفي نورُه ، وكذلك الإنسانُ يولد ضعيفا ، وينمو مع الأيام جسمُه ، حتى يصيرَ شابا قويَّ البدَن ، في أحسن صورة ، وأعدلِ قامة ، ثم مع توالي الأيام بمَن يطول عمرُه يتناقص الإنسان ، ويضعف بدنُه ، ويَهْرَمُ ، والموتُ يأتيه فيُخلى مكانَه من الحياة الدنيا ، ليستقبلَ الحياة الأخرى ، وهي الحياةُ الباقية الدائمة ، التي تبدأ بنعيم القبر أو عذابه ، ثم يأتي البعثُ فالحسابُ فالجزاء ، ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنسانَ من سُلالَةٍ مِّن طِين * ثُمَّ جَعَلْنَاه نُطْفَةً في قَرار مَّكين * ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقة فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقنَا المُضغَةَ عِظَاماً فكسَوْنا العِظَامَ لَحْمَا ثُمَّ أنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فتبارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِين * ثم إنَّكُم بَعْد ذَلْك لَمَيِّتُون * ثُمَّ إنَّكُم يَوْم القيامَةِ تُبْعَثُون ﴾[1] .

فتأمَّلْ النطفةَ وهي أشبه بالميت ، ثم تصير إنسانا معتدلَ القوام ، أليس في هذا دليلٌ بيِّنٌ على البعث بعد الموت ؟

وتأمَّل إلقاءَ الحبِّ تحت التراب ، واختفاءَه في الأرض ، ثم تأَمَّلْه يهتزّ خَضِراً يسرُّ الناظرين بما في الخضرة من حياة ونضارةٍ وجمال .

إن المرء إذا تدبَّر ، وأَعْمَلَ عقلَه فيما يُحيط به وفي نفسِه ، لوجد في كل شيْء عِبرة تُزيل غشاوةَ الغفلة عن القلوب .

إذا المــرءُ كـانت لــه فِكــرة

فـفــي كلِّ شيْء لـــه عِـــبرة

---

(١) المؤمنون : ١٢ : ١٦ .

الإيمان بالبعث والفضائل :

إن الإيمان بالبعث والجزاء هو الذي يبعث الإنسانَ العاقل البصيرَ إلى تكميل نفسِه بالفضائل ، وإلى الوقوف عند حدود الحلالِ والحرام ، وإلى التبصُّر في العواقب ، وإلى السعي إلى تزكية النفس بالإيمان الصحيح ، والعملِ الصالح ، وطاعةِ الربّ ، والبعدِ عن الحرام ، وتركِ القبيح وكراهيةِ الشر والفسادِ ، كما أن الإيمانَ بالبعث والجزاء والخوفَ من الموقف بين يدي الله للحساب يدفع المرءَ إلى إحسان العمل ، والعفةِ ، والقناعةِ ، ويجعل الإنسانَ صبوراً على الآلام رجاءَ ثوابِها وثوابِ الصبرِ عليها ، ويجعله شكوراً لأنعُم الله عز وجل ، فيعيش مطمئنا ، هادئ البال ، لايُصيبه مايصيب الملحدين والغافلين من الأمراض النفسية أو العصبية أو حالات اليأس والقنوط ، إذ المؤمنُ يرجو رحمةَ الله دائما ، ويتعلق قلبُه بالثواب الأُخروي ، ويؤمن بأن العُسرَ يعقبُه اليسرُ بإذن الله ، وبأن الدنيا امتحانٌ ، وابتلاءٌ ، وبأن ماقُدِّرَ كائنٌ لا محالةَ .

لذا كان أهل الإيمان أكثرَ الناس جَلَدا وصبْرا وأشجعَهم في مواجهة الشدائد والمحن ، وأعظمَهم رجاءً وأملا في الرحمة والخير .

إن العجب كلَّ العجب أن يلجأ إنسان إلى التكذيب بالدين ، وأن يكفرَ بالبعث بعد الموت ، وأن يغفلَ عن الاستعداد للحياة الأبديةِ ، إن الإنسانَ إذا فكّر في صورة نفسه ، وفي مبدأ خلْقه ، وفي شبابه ، وفي هَرمه وشيخوخته ، إذا فكّر في هذه الأطوار وهو صادق مع نفسِه ، وقد محا من عقله كلَّ وهْمٍ يربطُه بالمذهب الماديِّ الذي ينتمي إليه ، وأزال من نفسه كلَّ عواملِ الغفلةِ التي دفعته إلى إنكار البعثِ أو الغفلةِ عن التفكُّر فيه ، إن

الإنسان إذا فعل ذلك وتدبَّر أطوار حياتِه لاعتبر ، وهتف من قلبه : إن الذي فعل ذلك لقادرٌ على أن يبعثني ويحاسبَني .

ولْنسمع الله عز وجل ينبِّه عبادَه ، وَيلفِتُهم إلى البراهين الناطقةِ بوحدانيته ، وقدرتِهِ على إحيائهم بعد الموت للحساب والجزاء : ﴿ لَقَد خَلَقْنا الإنسانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيم * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِين * إلّا الَّذِين آمنُو وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فلهُم أجرٌ غيرُ مَمْنُون * فَمَا يُكَذِّبُك بعْدُ بالدِّين * أليسَ الله بأحْكَمِ الحَاكِمين ﴾[1] .

تأمّل أيها العاقلُ البصيرُ جمالَ صورتِك ، وانظُر إلى سائر الحيوان من حولك ، لقد خلقك الله مديدَ القامِة ، حسنَ الصورة ، تتناول مأكولَك بيدك ، وزُيِّنْتَ بالعقل والفهم والتمييز والعلم ، وخلق الله الحيوانَ الذي تراه مُنكبًّا على وجهه يأكل بِفيه .

إن الإنسان الذي كرَّمه الله ، ومنحَه العقلَ ، وفطَره أحسنَ فِطْرة نفْسا وبَدنا ، وسخَّر له الكونَ مِن حوله ، وذلَّله له ، وأمدَّه بالقُوى المفكرةِ التي بها يستنبط ، ويُرقِّي حياته ، إن هذا الإنسان لاينبغي له أن يغفلَ عما كرّمَه الله به ، ولا يَليق به أن يجعلَ نفسَه كأنواع العجماوات يفعلُ كما تفعل ، لايمنعُه حياء ، ولا تردُّه حِشْمةٌ ، بل اللائق بالإنسان أن يعتصمَ بالدين الحق ، وأن يبحثَ عن الهدى والخير ، وأن يربأ بنفسه عن الدنايا ، وألا يكون عبداً للقبائح والرذائل .

إن الإنسان إذا لم يكن صحيحَ الاعتقاد ، صالحا في أعماله ، كريما في أخلاقه ، طاهرا في معاملاته فقد تدنَّى عن مكانته ونزل عن مقامه ،

---

(١) التين : ٤ : ٨ .

وبالمعتقدات الباطلة يصير أسفلَ من الحيوانات التي كانت أسفلَ منه قبل أن يُطمس نور الفطرة في قلبه ، إنّ الإنسان إذا فسدت معتقداتُه قبُحت أعمالُه ، وكان ظالما لنفسه ، ممتهنا لعقله إذ لم ينتفع بالدلائل ، والبراهين ، ولم يسْعَ لتخليص مُهْجَتِه ، ولم يعمل لسعادتها وراحتها الأبدية ، وهو بذلك ينقلب أرذلَ من سائر أنواع الحي : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاه أَسفلَ سافِلِين ﴾ هذا هو المرءُ الملحِدُ ، والإنسانُ الغافلُ عن البعث والحسابِ والجزاء ينحطُّ نفسا واعتقاداً وخُلقا وعملاً عمّا تَقتضيه الفطرةُ الإنسانيةُ السليمة ، ثم في القيامة يُرَدُّ إلى النار ودركاتِها .

ولذا استثْنَىٰ الله عز وجل أهل الإيمان ، الذي عمِلوا الصالحاتِ ، وأيقنوا بأن لهذا الكون إلها خالقا قادرا حكيما ، وبأنه أرسلَ الرسلَ وأنزلَ الكتُبَ لهداية الخلق إلى الحق ، فاستقاموا على منهج الخير ، وطريق الهدى ، وأعدوا أنفسهم بالأعمال الصالحة ، وتجنُّبِ الشرور والآثام ليومٍ لاينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم : ﴿ إلّا الَّذِينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصالحاتِ فَلهُم أجرٌ غيرُ مَمْنون ﴾ .

هؤلاء المؤمنون هم الأنبياء ، وأتباعُ الأنبياءِ الذين هداهم الله إلى الدين الحق ، ونظروا في الأدلة ، وانقادوا لوحي السماء ، فأيقنوا بالدين ، وصدّقوا بيوم القيامة ، وعملوا للآخرة ، وآمنوا بأن الله هو أحكمُ الحاكمين ، الذي لايجورُ ولا يظلم أحدا ، ومن عدْله سبحانه وتعالى أن يقيمَ القيامة فينصفَ المظلومَ في الدنيا ممّن ظلمه ، ويحكمَ بين أهل الإيمانِ وأهل التكذيب ، ويجازىَ كلَّ إنسان بعمله .

إن الإنسانَ أَحْسَنُ خلْقِ الله باطناً وظاهراً ، وجمالُ خِلقته يتمُّ بجمال روحه ، وطهارةِ قلبه ، ونقاءِ سريرته وبقائِه على فطرة التوحيدِ وصحة

العقيدة ، فإذا عرفتَ أيها الإنسانُ أن الله خلقك في أحسن تقويم ، وأنه يردك إلى أرذل العمُر ، وينقلُك من حال إلى حال فما يَحملك على أن تكذِّب بالدين ، وتكفرَ بالبعث والجزاء ، وقد أخبرك النبيُّ محمدٌ ﷺ بذلك : ﴿ فما يُكَذِّبُك بعْدُ بالدين ﴾ .

وقد علمتَ البَدْأة[1] ، وعرفتَ أن مَن قدر على البَدأة فهو قادرٌ على الرَّجعة بطريق الأولىٰ ، فأيُّ شيْء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا ؟

فسبحان اللّهِ أحكمِ الحاكمين .

* * *

(١) البدأة : أول الحال والنشأة .

الإيمان وصيانة الإنسان من الاضطرابات النفسية :

المؤمنون الصادقون أبعد الناس عن الأمراض النفسية

« الإيمان الصحيح خير عاصم من القلق والعقد النفسية »* .

المعتقد اعتقادا صحيحا تزول عن نفسه الأوهام والأباطيل :

لا إله إلا الله : يقولها المؤمن الصادق ، ويعقد عليها قلبه ،

---

* طبيب الأمراض النفسية والعصبية

إن خير مايقدمه طبيب الأمراض النفسية والعصبية أن ينصح مرضاه من المؤمنين والمؤمنات بتدبر آيات الله وتلاوتها ، وبإقامة الصلوات الخمس والتنافس في الطاعات : من ذكرٍ لله عز وجل ، وصدقةٍ ، وصوم ، وأن ينصح الذكور بحضور الجماعات في المساجد وَغِشْيان مجالس العلم ، وأن يزودهم الطبيب بالنصائح المتصلة بحُسن التوكُّل على الله ، وتفويض الأمور إليه وحده ، وأن الله يختبر عباده بالخير والشر امتحانا لإيمانهم وأن مايقع في الكون إنما هو قضاءُ الله وقدره ، وأن على المؤمن أن يصبرَ للبلاء ، ويشكر على النعماء .

وإن أطباء الأمراض النفسية والعصبية ينبغي لهم أن يدرسوا العقيدة الإسلامية دراسة واعية ، وأن تكون هذه الدراسة جزءاً من تحصيلهم العلمي بحيث تقوم على البحث ومعرفة الدليل ، لأن ذلك يكونُ خير عون لهم في أداءِ واجباتهم المهنية تجاه المرضى ، ذلك أن حالاتِ العُقد النفسية بأشكالها المتعددة وكذا كثير من حالات الاختلال العصبي إنما تحدث نتيجة لضعف الإيمان أو غياب الوعي بحقيقته ، وإن أهل الإيمان الراسخ الصحيح هم أهلُ الثقة التامة فيما عند الله ، واليقينِ الصادق بأن قضاء الله نافذ ولاراد له مهما كانت الأسباب التي بيد الإنسان أو التي تحيط به ، هؤلاءِ يندر أن تجد منهم من يُصاب بِهِزَّةٍ نفسية أو عصبية لأنهم يتلقَّون قضاءَ الله بالقبول فلا هبوطُ النعمةِ يُطغيهم ، ولا حلول المصيبة يَذهب بنفوسِهم كلَّ مذهب .

ومناط هذا الإيمان القويِّ الصادق هو معرفة حقوق (لا إلٰهَ إلا الله) .

وضميره ، حتى يصير معناها مستولياً على لُبابه وجَوْهره ، مستولياً على كلِّ مشاعره ، وعواطفه .

لا إلٰه إلا الله : يعقد عليها المؤمن فؤادَه ، وعقلَه ، فترسخُ في ضميره ووجدانه وقلبِه عقائدُ تتبعُها ، وتزولُ عن نفسه كلُّ الأوهام التي لا تتفقُ معها .

لا إلٰه إلا الله : من عقد عليها قلبه ، وضميره ، وفؤاده رسخَ في ضميره وفي وجدانه تيقُّنه بأن لا معبودَ إلا الله ، ولا مُحيِيَ إلا الله ، ولا مميتَ إلا الله ، ولا رازقَ إلا الله ، ولا حارمَ إلا الله ، ولا نافعَ إلا الله ، ولا ضارَّ إلا الله ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله .

التسليم بقضاء الله والإيمان بالقدر أعظم حماية للإنسان :

ومن وحَّد الله ، وقال : لا إلٰه إلا الله ، مستيقنا بها قلبه رسخ في عقله وفي فؤاده الإيمانُ بقدرة الله المطلقة ، وبعلمه المحيط الشامل ، وبإرادته التي لا تُحَدّ ولا تُرَدّ ، ورسخ في وجدانه وقلبه أن لو اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن ينالوا أحداً بخير فلن يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله ، وتقدير الله ، وإن اجتمعوا على أن يصيبوه بشرٍّ فلن يُطيقوه إلا بقضاء الله ، وحُكمِ الله ، ورسخ في ضميره أن كلَّ مادون الله وجودٌ حائل ، وظلٌّ زائل .

المؤمن الصادقُ الإيمانِ يعتقد أن كلَّ خير يصيبه إنما هو من الله ، وأن كلَّ شرٍّ يلحقُه إنما هو بإذن الله وبتقدير الله وإرادته .. ويعتقد أن كل البشر من حوله مملوكون لقدرة لا تُحَدّ ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا كسبا ، ولا يستطيعون لغيرهم شرًّا ولا ضراً .. فالبشرُ ماهم إلا أسباب إن أصابنا منهم خيرٌ أو لحقنا منهم أذى أو ضرٌّ .

إنَّ البشر في معترك حياتهم ، وفي تبادلهم المنافع وفي تعاونهم الضروري من أجل استمرار الحياة .. ماهم إلا أدواتٌ مسخَّرة ، فكلُّ مايتحقق على أيديهم من خير إنما يتحقق لأن الله قدَّرهُ ، وأراده ، وكلّ ماينبعثُ عنهم من أذى وشرٍّ إنما يحدُث لأن الله أراده ...

عَنْ أَبِي العَبَّاسِ عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله تَعالَى عَنْهُمَا قالَ : كُنْتُ خَلْفَ النَّبى صَلَّى الله عَلَيْهِ وآلِهِ وسَلَّمَ يَوْماً فَقَالَ « يَا غُلامُ ، إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمات : احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجاهَكَ ، إِذا سَأَلْتَ فاسْأَل الله ، وإِذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بِالله ، واعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ ، وإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلامُ وجَفَّت الصُّحُفُ » . رَوَاهُ التِّرْمِذِىُّ وقالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

وفي رِوايةِ غَيْرِ التِّرْمِذِى « احْفَظِ الله تَجِدْه أَمامَكَ ، تَعَرَّفْ إِلَى الله فى الرَّخاءِ يَعْرِفْكَ فى الشِّدَّة ، واعْلَمْ أَنَّ ماأَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، ومَا أَصابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخطِئَك ، واعْلَم أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْب ، وأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا »* .

---

* مناقب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أكثر من أن تحصر ، وقد دعا له النبي ﷺ فقال (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) ودعا له بأن يؤتى الحكمة مرتين ، وثبت عنه أنه رأى جبريل مرتين ، وهو بحر هذه الأمة وحبرها : وقد رآه رسول الله ﷺ أهلا للوصية مع صغره . فقال له (احفظ الله يحفظك) ومعناه : كن مطيعا لربك ، مؤتمرا بأوامره ، منتهيا عن نواهيه . وقوله (احفظ الله تجده تجاهك) أي اعمل له بالطاعة ولا يراك في مخالفته ، فإنك تجده تجاهك في الشدائد كما جرى للثلاثة الذين أصابهم المطر فأووا إلى غار فانحدرت صخرة فانطبقت عليهم ، فقالوا : انظروا ماعملتم من الأعمال الصالحة فاسألوا الله تعالى بها ، فإنه ينجيكم ، فذكر كل واحد منهم سابقة سبقت له مع ربه ، فانحدرت عنهم الصخرة فخرجوا =

إن الإنسانَ إذا عقد قلْبه على هذه العقيدة ، وأَبْعَدَ عن نفسه أوهامَ الضعف التى تأتيه من قِبَلِ الشياطين أو من حبِّ التعلُّق بالحياة ، لعاش مطمئنَّ النفس قريرَ العين لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله أبدا ، ولا تُبطره النعمةُ ، ولا تصدُّه عن غاياته الشريفةِ في الحياة أيةُ عقبة .. فالإنسان مع هذه العقيدة السامية يؤمن بأن اليأسَ من رحمة الله كفرٌ وضلال .. فالكافرون يتسلَّطُ الشيطانُ على قلوبهم وأهوائهم ، فهم متذبذبون ، يتهاوَوْن عند الصدمة الأولى من صدمات الحياة ، إن أصابهم الشرُّ جَزِعوا وطارت نفوسهم شَعَاعا ، وإن أصابهم الخير بَطِروا ، وتعالوا في الأرض فسادا واستكبارا ..

وما هكذا شأن المؤمن المعتقد اعتقادا جازما قاطعا :

= يمشون وقصتهم مشهورة في الصحيح . وقوله ﷺ (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله) أرشده إلى التوكل على مولاه ، وأن لايتخذ إلٰها سواه ، ولا يتعلق بغيره في جميع أموره ماقل منها وما كثر ، قال الله تعالى ﴿ وَمَن يتوكَّل علىٰ الله فهو حَسْبُه ﴾ فبقدر مايركن الشخص إلى غير الله تعالى بطلبه أو بقلبه أو بأمله فقد أعرض عن ربه بمن لايضره ولا ينفعه ، وكذلك الخوف من غير الله . وقد أكد النبي ﷺ ذلك فقال (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيْء لم ينفعوك إلا بشيْء قد كتبه الله لك) وكذلك في الضرّ ، وهذا هو الإيمان بالقَدَرِ ، والإيمان به واجب خيره وشره ، وإذا تيقن المؤمن هذا ، فما فائدة سؤال غير الله والاستعانة به ؟ وكذلك إجابة الخليل عليه الصلاة والسلام جبريل عليه السلام حين سأله وهو في الهواء : ألك حاجةٍ ؟ قال : أما إليك فلا . وقوله (رفعت الأقلام وجفت الصحف) هذا تأكيد أيضاً لما تقدّم : أى لايكون خلاف ماذكرت لك بنسخ ولا تبديل .

ثم قال (واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا) فنبه على أن الإنسان في الدنيا ـــ ولا سيما الصالحون ـــ معرّضون للمصائب ، لقوله عز وجل ﴿ ولنبلونَّكم بشيْء من الخوفِ والجوع ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ وبشِّر الصابرين * الذينَ إذا أصابَتْهُم مّصيبةٌ قالوا إنّا للّهِ وإنّا إليهِ راجعُون * أولٰئكَ عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمةٌ وأولٰئك هم المهتدون ﴾ وقال تعالى : ﴿ إنما يُوَفّىٰ الصابِرون أجْرَهُم بغيرِ حِساب ﴾ « ابن دقيق العيد » .

بأن الله واحدٌ ، ولا معبود بحق سواه ، وبأن قدرةَ الله مطلقة في هذا الكون العظيم ، وبأن الدنيا محلُّ اختبار وابتلاء ، وماقدّره الله لابدّ كائن ، وبأن الخير في الصبر عند الشدائد والمحن ، والشكر عند السراء والنعماء .

الإيمانُ الصادق طمأنينةٌ وراحة نفسية :

المؤمن الصادق تمتلئ نفسه بنور الأمل الذي لا يخبو ، وتنقشع عن قلبه ظلماتُ اليأس القاتل .. المؤمنُ الصادق يسعى لتحقيق غاياته الشريفة لنفسه ، أو لأمته ، أو للناس جميعا .. يسعى لتحقيق هذه الغايات في إطار قوانين الحقِّ ، وسُنَن الخير الشاملة وهو آمنٌ مطمئنُّ النفس ، مشرقُ الروح بالأمل الوضَّاء .. لا تُرْهِبُه أصنامُ الوهم التي يُقيمها أولياءُ الطاغوت ، ولا تُخِيفه ولا تُقلقه لإيمان المؤمن بأن كيدَ الشيطانِ كان ضعيفا ، وأن ماأصاب الإنسانَ لم يكن ليخطِئَه وما أخطأَه لم يكن ليصِيبَه .. فالأمر كلُّه بيد صاحبِ الأمر سبحانه وتعالى .

وعبرة من قصة الخليل عليه السلام :

ولنتدبر ياأخي القارئ ، جانبا من حوار نبي الله إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضلُ الصلاة والسلام ، لنلمس قبسا من هذا الإيمان الذي ينير سبل الحياة أمام المؤمنين .

يقول الحقُّ تبارك وتعالى على لسان إبراهيم : ﴿ إني وجَّهتُ وجْهِيَ لِلَّذي فَطر السمٰواتِ والأرضَ حنيفا وماأنا من المشركين * وحَاجَّهُ قومُه ، قال : أتحاجُّونّي في الله وقد هدَانِ ، ولا أخافُ ماتُشركون به إلا أن يشاءَ ربِّي شيئا ، وَسِعَ رَبِّي كلَّ شيْءٍ عِلْما .. أفلا تتذكَّرون ؟ ﴾[1] .

---

(١) الأنعام : ٧٩ ، ٨٠ .

فإبراهيم الخليلُ وجّه وجْهَه لخالق الكونِ وحدَه مستقيما على التوحيد الخالص وهو لا يقبلُ في ذلك جدلاً بل يحمد الله أن هَدَاه للإيمان .

الخوف من غير الله وَهْمٌ يقيمه الشيطان :

وهو لا يخاف شيئا بعد أن اطمأنَّ قلبه بالإيمان ، لا يخاف مايخافه المشركون والضالُّون من أصنام يُقيمها الوهم على أي شكل من الأشكال ، فقد يقيم الوهمُ صنماً من حَجَر أو من خشبٍ أو من شمسٍ وقمرٍ أو من قبرٍ أو من فردٍ وكلُّ ذلك من عملِ الشيطان .

وكل ذلك وأشباهه يَمثِّل القوةَ الماديةَ الملموسة التي يرهبُها أولياءُ الشيطانِ فيعيشون منها في هَمٍّ ورجاء فيما لا رجاء منه مادام الوهمُ الأخرق صوَّر لهم أن هذه الأمور الماديَّة هي مصدرُ أذى أو نفع ، ويُزيل إبراهيمُ عليه السلام عن النفسِ المؤمنةِ هذا الوهمَ الباطلَ بعبارة بليغة : ﴿ .. ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاءَ ربِّي شيئا .. ﴾[1] .

فمشيئةُ الله وحده هي النافذةُ ، وكل مايقيمه الوهمُ أمام الإنسانِ لا إرادة له ثم لنتدبر ياأخي القارئ قول الحق سبحانه وتعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ .. وكيف أخافُ ماأَشْركتُم .. ؟ ولا تَخَافون أنَّكم أشْركتُم بالله مالم يُنَزِّلْ به عليكم سُلطانا .. ؟ فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمنِ إن كنتُم تعلمون ﴾[2] .

مَنْ المستحقّون للأمن ؟

الله أكبر .. الله أكبر .. ماأحلىٰ الإيمانَ .. ماأجملَهُ .. ماأروعَهُ .. إنه

---

(١) الأنعام : ٨٠ .   (٢) الأنعام : ٨١ .

مصدرُ الأمنِ النفسيِّ الحقيقي .

أيُّ الفريقين أحق بالأمن .. ؟ .. أتجد جواباً أبلغ وأوضح وأقوى إقناعا من قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ الَّذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهُم بظُلم ، أولٰئك لهم الأمنُ وهم مُّهتدون .. ﴾(1) فالإيمانُ الراسخُ القويُّ الصادقُ إذا رسخ في النفس وظهرت ثِماره في مسالك الإنسان وأعماله وتطلعاتِه وأفكارِه ونظراتِه إلى الأمور جليلها وحقيرِها إن هذا الإيمانَ يدْعَمُ النفسَ بطمأنينةٍ أمام الحوادثِ ، ولذا فإن المؤمنَ لا يخرج عن هدوئه ووقارِه وسَمْته وتواضعِه ولينِه ورفقه وروحِه الطيبة في تَلَقِّي الأمورِ خيرِها وشرِّها حلوِها ومُرِّها .

إن عقيدَة التوحيد النقيِّ الخالص من كلِّ شائبةٍ من شوائبِ ظُلم الإنسانِ نَفْسَه أي من كلِّ شائبةٍ من شوائب الشّرك ، هذه العقيدةُ ، تَهَبُ الإنسان أمنايملأُ حياتَه طمأنينةً .. وأملاً يملأُ فؤادَهُ نوراً لا يخْبو .. هذه العقيدةُ تَهَبُ الإنسانَ قوةً تدفعُه إلى السعي والعملِ .. هذه العقيدةُ تدفعُ الإنسانَ إلى الجهادِ لعمارةِ الحياة ، ومقاومةِ الفساد .. ودفع الشرِّ والعدوان .. قوة لا تعرف اللينَ في الحق ، وأملاً لا يشوبُه يأسٌ ، وصبراً لا تثبتُ له المحنُ الجِسام ، وثباتاً يزلزلُ جبالَ الوهم التي يَصنعها الشيطانُ وجَلَداً يُزيل العقابَ والصعاب .

المعتقد اعتقادا صحيحا يَسْلَم من الأمراض النفسية :

صاحبُ العقيدة القوية .. لايعرفُ القلقَ النفسي ، ولا الاضطرابَ العصبيَّ صاحبُ العقيدة القوية .. يسعى ونورُ الأمل بين يديه ، ولا يضلُّ الطريق إلى الحق ، صاحبُ العقيدة القوية له من يقينه وإيمانه مايحميه من

---

(١) الأنعام : ٨٢ .

الفساد ، ويصدُّه عن كلِّ مايُغضب الله عز وجل .. فهو داعيةُ خيرٍ وبرٍّ وهُدى وصلاح .. وهو مجاهدٌ في سبيل إعلاء كلمة الله .

﴿ وتلك حُجَّتُنا ءَاتينٰها إبراهيمَ على قومِه نرفعُ درجاتٍ مَّن نَّشاء إنَّ ربك حكيمٌ عليم ﴾[1] .

رضينا بالله ربًّا ..

ورضينا بالإسلام ديناً .. فاللهم نسألك يقينا صادقاً ، وإيمانا راسخا وهذا هو الطريق الصحيح ، والسبيلُ الأعدل ، والصراطُ الأقوم ، لمن وعى وتدبَّر ، وأراد لنفسه خيرى الدُّنيا والآخرة ..

* * *

---

(١) الأنعام : ٨٣ .

من آيات القدرة على البعث للحساب والجزاء

قال الله تعالى من سورة الحج ..

﴿ وَمِنَ الناسِ مَنْ يُجَادِلُ في الله بغيرِ عِلْم وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْه أنَّهُ من تَوَلَّاهُ فأنّه يُضِلُّه وَيهْدِيه إلى عذابِ السَّعيرِ ﴾[1] .

اللّهُ عزّ وجلّ يَذُمُّ من كذَّب بالبعث ، وأنكر قدرةَ اللّهِ على إحياء الموتى ، مُعرِضا عما أنزل اللّهُ على أنبيائه ، متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كلَّ شيطانٍ متمردٍ من الإنسِ والجنِّ .

أسباب النزول :

وقيل نزلت في النضر بنِ الحارث وكان جَدِلاً يقول : الملائكةُ بناتُ الله ، والقرآنُ أساطيرُ الأولين ، واللّهُ غيرُ قادرٍ على إحياء الموتى ، وهو نفسُ مايقوله الملحدون في كلِّ عصر فَيَضِلُّون ، ويُضِلّون ، لهذا فهي عامةٌ في كل مَنْ تَعاطَى الجِدَالَ فيما يجوزُ على الله ومالايجوزُ من الصفاتِ والأفعالِ ، ولا يرجعُ إلى علمٍ ، ولا يستندُ إلى دليلٍ ، وليس فيه اتِّباعٌ للبرهان ، ولا نزولٌ على الحَقِّ والعدل ، فهو يَخْبِطُ خَبْطَ عشواء غيرَ فارِقٍ

---

(١) الحج : (٣ ، ٤) .

بين الحقِّ والباطل ، إنما مرادُه إثارةُ الشبهات ، وإضلالُ الناسِ ، وهذا حالُ أهلِ الضلالِ والبِدَع المعرضين عن الحقِّ ، المتَّبعين للباطل ، يتركون ماأنزل اللّهُ على رسولِه من الحقِّ المبين ، ويَتَّبعون أقوالَ رؤوس الضلالة ، الدعاةِ إلى البدع بالأهواء والآراء .

جدال بالهوى :

إن هؤلاء المكذبين بالبعث ، المنكرين قدرةَ اللّهِ على إحياء من بَلِيَ وصار ترابا ، المعرضين عَمَّا أنزل اللّهُ على أنبيائه ، إنما يُجَادِلون في أمورِ الألوهية بالهوى ، وبغير علم ولا كتابٍ مُنيرٍ ، ويتَّبعون أقوالَ وأهواءَ زعماءِ الضلالِ وخطواتِ كلِّ شيطانٍ مَّريد عَاتٍ من شياطين الإنس والجنِّ ممن لايُثمرُ اتباعُه إلَّا الإضلالَ عن طريق الجنة والهدايَة إلى النار .

﴿ .. وَمِنَ النَّاسِ من يُجَادِلُ في اللّهِ بغيرِ عِلْمٍ ﴾ أي علمٍ صحيح ﴿ ويتبع كلّ شيطان مّريد ﴾ أي متمردٍعاتٍ ﴿ كُتِبَ عَلَيْهَ أنه مَنْ تَولَّاه ﴾ أي اتبعه وقلده ﴿ فأنّه يُضِلُّه ﴾ أي يُضِلّه في الدنيا عن الحق ، ويُبعده عن طريق الصوابِ والهُدى ﴿ ويَهْدِيه إلى عذاب السعير ﴾ أي يقودُه في الآخرة بسببِ ماكان منه في الدنيا إلى عذاب السعير ، وهو الحارُّ المؤلمُ المزعجُ المقلق .

ضرورة استخدام العقل لطالب الحق :

وفي ذلك تنبيهٌ إلى أن العاقل ينبغى له أن يزنَ الكلام الذي يسمعُه وعليه أن يتدبَّره فإن كان حقًّا مستندا إلى دليل من كتاب الله والسنّة الصحيحة أخذ به ، وعضّ عليه بالنّواجذ ، وإن كان من كلام أهل الأهواءِ والدعاةِ على أبوابِ جهنمَ من الملحدين والزنادقةِ والهدّامين للفضائلِ والقيمِ الثابتةِ فعليه

أن يَنْبِذَ كلامَهم وأن يجاهدَهم ، كما عليه ماستطاع أن يبصِّرَ الناسَ بضلالاتهم وَبِدَعِهم وأهوائِهم ولا يترك لِسمومِهم السبيلَ تُنفث في جسم الجماعة الإسلامية وأمة التوحيد .

إن المجادلين في الله بغير علمٍ ولا هُدًى ولا كتابٍ مُنير صارت وسائلُهم في عصر المدنيةِ الماديةِ الحاضرةِ كثيرةً ، وللأسفِ الشديد فإن سمومَهم تجِدُ إلى كثيرٍ من الصحف في البلدانِ الإسلامية سبيلا ، ويستخدمون كلَّ وسائلِ الإعلام بل تعدَّى خطرُهم فاقتحم المدارسَ ومعاهدَ العلمِ في بلدانٍ دينُ أهلِها الإسلامُ ، وقد حمل أجدادُهم من قبلُ رايةَ الجهادِ مدافعين عن دينِ الله ، عاملين على نشرِهِ في أرجاءِ المعمورة ، فكيف يُتْرَكُ المجالُ لكلِّ شيطان مَّريد ليضلَّ الناشئةَ ، والمسلمون مفروضٌ عليهم أن يحفظُوا دينَهم وأن يحمُوا عقائدَهم بل وأن يعملُوا على هدايةِ الناسِ إليها .. وأن يجاهدوا في سبيلها حتى تكونَ كلمةُ الله هى العليا ، وكلمةُ الذين كفروا السفلى .

نسألُ الله أن يُثَبِّتنا على المُعْتَقَد الصحيحِ الذى رَضِيه لملائِكَتِه في سمٰواتِه ورَضِيَه لأنبيائِه في أرضِه ، وأَدْخِلْنَا ياربِّ برحمتك في عبادك الصالحين .

الله قادر وآيات قدرته على البعث واضحة :

لما ذكر اللّهُ تعالى المكذبَ للبعث ، المنكر للمعاد ، ذكر تعالى الدليلَ على قدرته سبحانه على المعاد بما يشاهَدُ من بَدْئِهِ للخلق فقال :

﴿ ياأَيُّهَا الناسُ إن كُنْتُم في رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فإنَّا خَلَقْناكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ منْ عَلَقَةٍ ثُمَّ منْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وغيرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ

لَكُم .. ﴾(١) .

أي ياأيُّها الناسُ إن كنتم في شك من المعاد وقيام الأرواحِ والأجسادِ يومَ القيامةِ فَمُزيلٌ رَيْبَكُم أن تنظروا في بدْء خلقِكم ، فاللّهُ خلق أباكم الذي هو أصلُ البشر ـــ يعنى آدم عليه السلام ـــ من ترابٍ ثم جعل نسله من نطفةٍ أي من ماءٍ مَّهِينٍ ثم تستحيلُ النطفةُ فتصيرُ عَلَقَةً أي دماً جامداً ـــ والعَلَقُ الدمُ الشديدُ الحُمرة ـــ ثم تَسْتَحيل فتصير مضغةً أى قطعةً من لحم لا شَكْلَ فيها ولا تخطيط ، ثم يأتى التشكيل والتخطيط بقدرة اللّهِ وإذنه ، حتى تظهر الأعضاء والجوارحُ من رأسٍ ويدين وصدْرٍ وبطْنٍ وَفَخِذَيْن ورِجلْين ، وسائرِ الأعضاء ، فتارةً تُسْقِطُها المرأةُ قبل التشكيل والتخطيط ، وتارةً تُلقيها وقد صارت ذاتَ شكلٍ وتخطيط ، ولهذا قال الله تعالى ﴿ ثُمَّ منْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وغَيرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ فالمخُلّقة هي التامةُ الخلْق الواضحةُ المعالم ، وغير المخلقة السِّقْطُ أو التى لم يُخلق فيها شيْء ، كما هو مشاهَدٌ للناس ، أى وإنما نقلناكم من حال إلى حال ، ومن خِلْقَةٍ إلى خلقة ﴿ لنبين لكم ﴾ ...

أي لنبيَن لكم بهذا التدريج قدرتَنا وحكمتَنا وأن مَنْ قَدَر على خلقِ البشرِ من ترابٍ أولا ثم من نطفةٍ ثانيا ولا تناسبَ بين الماءِ والترابِ ، وقدر على أن يجعلَ النطفةَ علقةً وبينهما تباينٌ ظاهر ، ثم يجعلَ العَلَقَةَ مُضغةً والمضغةَ عظاماً قَدَرَ على إعادةِ ما أبدأه ، بل هذا أدْخَلُ في القدرة من ذلك وأهْوَنُ في القياس .

ثم لنتدبر قوله تعالى : ﴿ ونُقِرُّ فى الأرحامِ مانَشاءُ إلى أجل مُّسَمًّى ثم

---

(١) الحج : ٥ .

نُخْرِجُكُم طِفْلاً ثُم لِتَبْلُغوا أشُدَّكُم وِمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفّى وَمِنْكُم مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العُمُر لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وترى الأرضَ هَامِدَةً فإذَا أَنْزَلنا عَلَيْهَا الماءَ اهتزَّتْ وَرَبَتْ وأَنْبَتَتْ من كُلِّ زَوْجٍ بَهِيج ﴾(١) .

وهذه بعضُ آيات قدرته سبحانه وتعالى مما هو مشاهَدٌ معلومٌ ، فاللّهُ عزّ وجلّ يُقِرُّ مايشاء أن يُقِرَّه في الأرحام إلى وقتِ الوضع ومالم يَشَأْ إقرارَه مَجَّتْه الأرحامُ ، وأسقطته ، وحياةُ الإنسانِ بعد الوضع تبدأ بالطفولة بما فيها من ضعف وحاجة إلى حنان الوالدين ، ثم يتدرجُ في النمو حتى تكتمل قواه ، ويصيرَ مكلفاً ، ومن آيات القدرة الإلٰهية أن الإنسانَ لايدرى متى يَحينُ حَيْنُه ، ويأتى أجلُه ، فمن الناس من يُتَوَفَّى في حال شبابه وقواه ، ومنهم مَنْ يُمهله الأجلُ حتى يَصِلَ إلى مرحلة الشيخوخةِ والهَرَم مع مايصاحبُها من ضعفٍ ووهن .

ومن آيات قدرته سبحانه وتعالى :

ومن آيات قدرته سبحانه على إحياء الموتى مانشاهدُه من حال الأرض الميتة اليابسةِ القحلة التي لانَبْتَ فيها إذا أنزل اللّهُ عليها المطر تحركت بالنبات ، وحَيِيَتْ بعد موتها ، وارتفعت ، ثم أنبتت مافيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتاتِ النباتات في اختلاف ألوانها وطعومِها وروائحِها وأشكالِها ومنافعِها ، ومن كل مايَحْسُنُ منظرُه ويطيبُ ريحُه .

ولنتدبر قوله سبحانه ﴿وذٰلِكَ بأنَّ اللّهَ هُوَ الحقُّ وأنَّهُ يُحْيِي المَوْتَىٰ وأنه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ * وأَنَّ السَّاعَةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فيها وأن اللّهَ يَبْعَثُ مَنْ في القُبور ﴾(٢) .

---

(١) الحج : ٥ .　　(٢) الحج : ٦ ، ٧ .

أليس ماتراه من خَلْقِ بنى آدمَ وإحياءِ الأرضِ مع مافي ذلك كلِّه من الآياتِ والعِبَرِ والحِكَم حاصلٌ بسببِ أنّ الله هو الحقُّ ، أي الثابتُ الموجودُ الخالقُ المدبِّر الفعَّالُ لما يريدُ ، وأنه يُحيي الموتَى كما خلقنا من العَدَم وكما يُحْيى الأرضَ المَيْتة ، ليحاسِبَ كُلَّ امرئ ، ويُجازِيَ العبادَ بأعمالهم .

سبحانه وتعالى له كمالُ القدرة وكمالُ العظمة والسلطان : ﴿ وهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰواتِ والأرْضَ بالْحقِّ ويوْمَ يقولُ كُنْ فَيَكُونُ ، قَوْلُهُ الحقُّ ، ولَهُ المُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّور ، عالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادةِ ، وهو الحكيمُ الخبيرُ ﴾[1] .

* * *

(١) الأنعام : ٧٣ .

رابعًا : القسم الثالث

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ
وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ
وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ
مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ
مُسْلِمُونَ ۝ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ
وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ .

آل عمران : ٨٣ : ٨٥

٢٤- حقيقة الإنسان وحاجته للإسلام
٢٥- أبناء المدنية الحاضرة حيارى ولا هداية لهم إلا بالإسلام
٢٦- الحجّة الباقية الدائمة
٢٧- أوجب الله على الناس جميعًا الإيمان بالنبى محمّد صلى الله عليه وسلم
٢٨- انظروا إلى الإسلام لا إلى حال المسلمين . يامَنْ تبحثون عن الحق .
٢٩ - الإسلام هو طريقنا إلى الكمال الإنساني .
٣٠ - رضينا بالإسلام دينًا .

حقيقة الإنسان وحاجته للإسلام

الروح والبدن :

إن عظمةَ الدين الإسلامي تتضح للباحث حين يجد أن تعاليمه مطابقة لطبيعة البشر ، وحين يلمس أنه دينُ الفطرة السليمة إذ الإنسانُ مادةٌ ومعنى ، جسم وروح ، ولكل منهما مطالبه ، وأسمى مطالبِ الإنسان هي حاجاتُ روحه ، ومطالبُ نفسه ، إذ هو بالنفس لا بالجسم إنسان ، وإن جسمَ الإنسانِ ـــ لحْمَهُ وأعصابَه وعظامَه ـــ ماهو إلا غُلاف لجوْهره الذي به حياتُه الحقيقيةُ وإحساساتُه ومشاعرُه ، وجوهرُه هو روحُه ، والروحُ غيبٌ لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ ، ونحن نحيا ونسعى مادامت الروح قائمة في البدن ، أما حقيقتُها فعِلْمُها عند بارئها :

﴿ ويسألُونَك عن الرُّوح قُلِ الرُّوحُ مِن أمْرِ ربِّي وما أُوتِيتُم مِّن العِلْم إلا قَلِيلا ﴾[1] .

إن جسم الإنسانِ طين ، ومصيرُه أن يعودَ تُرابا ، حتى يُجْمَعَ بأمر الله ويعودَ حيّا للحساب والجزاء ، أما الروحُ فهي سرٌّ إلٰهيٌّ به كَرَّم الله الإنسانَ ، وأرسل له الرسل ، وأنزل الكتب لِتظَلَّ الروحُ مُحلِّقةً في عالمها النّوراني ، لا تَطغىٰ عليها مطالبُ الجسد الماديِّ فيفقد الإنسانُ أَعْظَم

---

(١) الإسراء : ٨٥ .

خصائصِه وأفضلَ ميزاته ومحاسنه ، يقول مفكر : « إن الإنسانَ وإن كان مخلوقا من الطين إلا أنه مُنح من شرف الروح ماتَقصُر دونه الخواطر ، وتعيا عن إدراكه المدارك ، وحسبُك أن الروح نسبها الله إلى نفسه ، وأسْجَد لحاملِها ملائكتَه » فقال تعالى : ﴿ فإذا سوَّيتُه ونَفخْتُ فيه من رُّوحي فَقَعُوا له ساجدين ﴾[1] .

فالعجبُ كلُّ العجب للإنسان حين يُعجب بصورته ، وتخْدَعُه قُواه العقليةُ ، وتغرُّه قدرتُه البدنية ، ويَنسى جوهره وحقيقتَه ، ويغفل عن التفكير في مبدأ أمرِه وعاقبته .

كيف ينسى الإنسان أن أباه خُلق من تراب ؟ وأن أولاد آدمَ خُلقوا من نُّطَفٍ مَهينة ، تكاملت صورُها في ظلام الأرحام ؟ وخرج الواحد منا طفلا لاحول له ولا قوة ، فوجد الشفقة والحنان ممن حوله بفضل الله ورحمته ، أما المصير فإن الإنسان يُلقى في التراب ويصير رُفاتا تَسفيه السوافي إلى أن تُزلزل الأرضُ ، وتُبعثر القبورُ ويعود الإنسانُ إلى الحياة للحساب والجزاء ثم إلى جنة أبدا أو إلى نار أبدا .

وإذا لم تكن الروح مُعدَّة للنعيم فياويْلَها ، وياطولَ حسرتها ، إذ الإنسانُ لاينفعُه في آخرته جمالُ صورته ، ولاعراقةُ نسبه ، ولا قوةُ بطشه ، ولا غرورُ عقله ، ولا نجاحُه في إشباع حاجات جسمه ، إنما ينفعه تواضعُه ، وتدبرُه ، وحكمتُه في الأمور ، وتلقِّيه أوامرَ الله بالقبول ، واستقامتُه ، وفضائلُه ، وكمالُ مَحبَّته لخالقِه وكمالُ خوفه منه ، وكمالُ خضوعه لأمره سبحانه وتعالى .

---

(١) ص : ٧٢ .

يقول ابنُ الجوزى في تأملاته : « هذا خبرُ البدنِ أي من تراب ثم يُلقَى في التراب ، ويصيرُ رُفاتا ، ثم يعود فيُجمَع ، إنما الروح عليها العمل ، فإن تجوهرت بالأدب ، وتقوَّمت بالعِلم ، وعَرفت الصانع ، وقامت بحقه ، فما يضُرّ نَقصُ المَرْكبِ .

وإن بَقِيَتْ الروحُ على صفتها من الجهالة شابهت الطينَ بل صارت أخسَّ حالة منه .

الإنسان كرّمه الله :

إن الإنسانَ أكرمُ الكائنات ، خلقه الله في أحسن تقويم ، وهداه وأرشده ، وبيَّن له سبحانه الخيرَ والشر ، وسبل السعادة وأسبابَ الشقاء والتعاسة ، وحلاه ربُّه بالعقل الكريم ، والقلب السليم .

ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ وإذْ قالَ ربُّك للمَلائِكةِ إنِّي جاعِلٌ في الأرض خليفةً ، قَالوا أَتَجْعَلُ فِيها مَن يُفسِد فيها وَيَسْفِكُ الدِّماءَ ونحنُ نُسَبِّحُ بحمدِكَ ونُقَدِّسُ لك ، قَال إنِّي أعلَمُ مَالا تَعْلَمون ﴾[1] .

والإنسان إذا لم يُعطِ روحَه مطالبَها فهو ظالمٌ لنفسه ، وإذا انطلق وراء مطالبه المادية غير عابئ بالأديان ، فهو شقيّ تعس لأن للمادة غايةً إذ الدنيا فانية ، والآخرة باقيةٌ ، وإن كل مايحققه المرء من مطالب الجسد ينقضي بانقضاء عمره ، فإذا خرج من الدنيا بغير عقيدة صحيحة شقِيَ شقاء أبديا في عذاب أليم : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمٰواتُ وَبَرزُوا لله الواحِدِ القهَّارِ * وَتَرى المُجْرِمينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنينَ في الأصفَادِ * سَرَابِيلُهم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وجُوهَهُم النَّار ﴾[2] .

---

(١) البقرة : ٣٠ .　　(٢) إبراهيم : ٤٨ : ٥٠ .

ولنتدبر : ﴿ إنَّ الذينَ كفرُوا بآياتنا سوْفَ نُصْليهم ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلودُهم بَدَّلناهُم جلُوداً غَيْرَها ليذوقُوا العذابَ إن اللّهَ كان عزيزاً حَكيما ﴾[1] .

يقول مفكر[2] : « إن الإنسان بين أمرين : إما أن يَجنحَ إلى مادته ، ويَقِف مواهبَه على عبادة شهوته ، فيكلَهُ الله إلى نفسِه ، ويأسرَه لبشريته ، فتنقلبَ مزاياه شراً ، وتنعكسَ خصائصهُ وبَالًا ، فيصبح نهِما بالمطالب ، شرِهاً بالرغائب ، حَشْوُ إهابِه مطامع ، وملِءُ جوانحِه حوائج ، يبيتُ أسيرَ آماله ، ويُمسي عابدَ أهوائه ، فينسى ربَّه ، ويغفلُ عنه ، ويَتْبعُ ذلك جهلُه لروحه ، وحَبْسُه لها في دائرة جسمانه ، فينقلبُ هذا الإنسانُ الملحدُ الجاحدُ حيوانا وليس بحيوان ، ويعيشُ في تناقض يَعود عليه بالوبال ، يعيش بين اليأس القاتل ، والأمل الذي يقيمه ويُقعده ، وبين الشُّحِّ الشديد والإسراف والسَّفَه ، ويكون جبانا لحبّه الحياةَ ، أو مُتهوّرا يُقدِم على الهلاك بلا روية ، هذا إلى جانب مايتصف به الملحدون وعُمْيُ القلوبِ من البَطر وكُفرِ النعمة والغفلةِ والحمقِ والعنادِ وغير ذلك من الصفات السافلة ، حتى يُمكنَ القولُ بأن الملحدَ الجاحدَ في أحطِّ منازلِ الخليقة ، وأدنى مراتبِ الكائنات ، لأنه ظلوم جهولٌ ، ظلم نفسَه بجهلِه حقوقَ ربه ، وبفساد عقيدتِه وظلامِ نفسه » .

الإسلام يصحّح نظرة الإنسان إلى الأمور :

إن الإنسان إذا مال إلى جانب روحه ، والتفت إلى سِرّ ذاته ، وعرف

---

(١) النساء : ٥٦ .

(٢) فريد وجدى في مقدمة صفوة العرفان في تفسير القرآن (بشيْء من التصرف) إذ اقتضى المقام تليين العبارة .

مكانه في هذا الوجود ، وصحَّت عقيدتُه ، وأدرك أنه إنسان ضعيف فقير إلى ربه دوما ، محتاج إلى عون خالقه ، وأنه لاحول له ولا قوة ، وأنه في حاجة إلى نور الدين الحق ، وإلى هداية السماء .. إن الإنسان إذا لجأ إلى الله ، وفوض أموره إليه ، وأحسن التوكل عليه ، وأخذ بالأسباب وأطاع ربّه ، واتبع نبيّه ، فإن الله عز وجل يضمُّه إلى حزبه وينصرُه بفضله على الشيطان وجندِه ، ويُعينه على هواه ، ويثبِّته في الدنيا والآخرة ، بفضل الكلمة الطيبة ، التي هي أصدق الكلام ، وأحلاه ، وهي كلمة التوحيد « لا إلٰه إلا الله » فمن اعتقد معناها وعمل بمقتضاها ، وعاش عليها ، ومات عليها ، ملأ الله قلبه سكينة وطمأنينة ، وعاش بنور الأمل الذي لايخبو ، واعتدلت نظرتُه إلى الأمور ، واستقام في تفكيره ومسالكه ، فهو لايكون جبانا ولا متهوّرا ، وإنما يمتاز بالشجاعة في مواجهة الحوادث ، وهو لايكون شحيحا ولا مسرفا وإنما يكون سخيا جوادا يضع الأمورَ في مواضعها الصحيحة وهو لايكفر النعمة ، ولا يعرف البطَر ولا الغرور ، وإنما هو حامد شاكر صابر دوما ، يتواضع عند النعمة ، ويصبر على البلاء والشدة ، إذ المؤمنُ يعلم أن مايُصيبه من خير فهو من الله ، وما يعتريه من ضرّ فهو بقضاء وقدر .

إن الدينَ الحقَّ ، دينَ الإسلام يحققُ للإنسان توازنه ويصحح نظرته إلى الأمور ، ويجعله مستقيما في عقيدته وعمله وقوله وخلقه ، وبالإسلام يحقق المرء معنى إنسانيتِه ، ويفوز بالطمأنينة والسعادة في الدارين .

* * *

أبناء المدنية الحاضرة حيارى ولا هداية لهم إلا بالإسلام

الحاجة إلى الدواء والنور :

إننا نحن البشرَ في أشد الحاجة إلى الإسلام وهدايته إذ إن العالم في عصرنا الحاضر تعصفُ به رياحُ المبادىء المتناقضة ، وتكاد تدمرُ أركانَه المذاهبُ المتضاربة ، وشاع فيه الفسادُ عُلوا وسُفلا ، ويُخيِّم عليه جوٌّ هو أسوأ مما كان عليه الناسُ في جاهليتهم قبل ظهور الإسلام ، إذ أشاعت المدنيةُ الأوروبية من الإلحاد والإباحة والفوضى الأخلاقية مايدفع بأصحابها إلى الضياع والهلاك .

لقد جاء الإسلامُ في القرن السابع الميلادى والمجتمع الإنسانيُّ فى أركانه من أسباب الهلاك والانحلال عواملُ متفشية لا فرق في ذلك بين مجتمع عربى في بداية نشوئه ومجتمع فارسى أو رومى في أوْج قوته ، إذ كانت في ذلك الزمان العقولُ مغلولةًبالجهالة والوثنية ، وكانت العصبيةُ الدينية بين أهل الكتاب تصبُغ الأرض بالدماء ، فقد تسلط على الناس رؤساء المذاهب والديانات وصدّوهم عن روح الشريعة السماوية إذ ابتدعوا في الدين ماليس منه ، وحرّفوا وبدّلوا وغيّروا حسبما يُملى عليهم الهوى ، وكانت الوثنية تنحط بمستوى البشر إلى أدنى درجات الحيوانية ، وكان العداءُ يتفاقم بين أصحاب المعتقدات المتناقضة ، والمذاهب المتخالفة

المتضاربة ، وأُهدرت حقوقُ المرأة وصارت كأنها متاع أو سلعة ، وعُطّل الفكر عن النظر ، والاستدلال ، وسيطرت الأباطيلُ والأوهام على العقول فغشّاها الجهل والعمى .

لقد جاء الإسلام والفطرة البشرية لامهذبَ لنزعاتها ، ولا منظم لها ، إذ إن الأديان السابقة قد حُرِّفت نصوصها ، وبُدّلت ، ودخل عليها ماليس منها بسبب الأهواء ، وقد أدّى ذلك إلى ظهور مذهب التسليم وسيطرة رجال الدين على نفوس الناس ، فتوارت أنوار الشرائع الصحيحة بمفاسد الرهبان والأحبار ، وانتشرت عبادة الأشخاص والأحجار والحيوان ، وهضمت الحقوق ، وجُحدت الأمانة ، وقَوِيَ التشابُه بين حياة الإنسان والبَهائم إذ صارت الروح حبيسة في مضايق المطالب المادية للإنسان الذي لم يعُد له همٌّ سوى إشباع غرائزه الحيوانية ، ومطالبه الجسدية .

الإسلام وإصلاح النفوس :

كان الإسلام أعظم نعمة أرسل الله به نبيَّه محمداً ﷺ ، ليهدىَ الناس بعد الحيرة ، وليرشدَهم بعد الضلال ، ويوجهَهم إلى حياة اجتماعية راقية تلائم جِبِلَّتهم ، وتناسب طبيعة فطرتهم ، وتتَّسقُ تعاليمُه مع حاجات الناس ، وتكوينهم النفسيِّ والعاطفيّ والعقلى ، فنظم بشرائعه معاملاتهم ، ونظم بآدابه وفضائله علاقاتهم الاجتماعية ، وهذَّب بعباداته من حيوانيتهم ، وصقل ضمائرهم ، ووجه قواهم وِجهة الخير والنفع ، وحقق للإنسان توازنه بين الروح والمادة ، إذ ارتقى الإسلامُ بوساطة العبادات بالجوانب الروحية والمعنوية في الإنسان ، لقد حقق الإسلام للإنسان كلَّ ماتنشده الفطرة البشريةُ السليمة من وسائل الطمأنينة الاجتماعية ، والسلامة النفسية ، وبيّن لهم المعالمَ التى تَقيهم الزلل ، وتحفظُهم من الدمار والهلاك ، وقد نشّط

الإسلام الفكر ، وبعث العقل على البحث والتفكير والتأمل ، ولم يصدّ البشر عن علم نافع أو عملٍ صالح ، أو حكمة تَهْدى ، أو صناعةٍ تنفع ، إذ نظر الإسلام إلى الإنسان على أنه مخلوق كرَّمه الله ، ووهبه عقلا طموحا ، وفكرا جَوّالا ، كما منحه قوىً معنويةً ومشاعرَ بها يرتقى عما عداه من سائر الحيوان ، فنمّى الإسلام كلَّ قوى الخير في طبيعة الإنسان وجبلته .

عوامل فساد متفشّـية في عصرنا :

إن المتأمل في حال البشر في عصرنا الحاضر يرى أن الناس قد مزّقتهم الأهواء ، وفرّقتهم المذاهبُ والمبادىء والفِكَرُ المتعارضة المتناقضة المتخالفة ، كما يرى المطامع تدفع بالقوى المتصارعة إلى حافة الهاوية إذ الأحقادُ تغلى وتفور في الصدور وتوشك أن تندلع في هيئة حرب نووية أُعدَّ لها كلُّ ماتفتّق عنه ذهنُ شياطين الإنس من أسباب الدمار والهلاك والخراب ، هذا إلى مايعيش فيه الناس من حيرة وضلال ، إذ فسدت التربية ، وانحلّت الروابط الأسرية في المجتمعات التى شاع فيها الإلحاد ، وفوضى الأخلاق ، أما المفاسدُ فقد صارت حقيقةً واقعة على نحوٍ أبْشَعَ مما كان عليه الحال في عصور الجاهلية الأولى ، فقد نزلت مدنية العصر الحاضر بمكانة المرأة إلى الحضيض تحت أسماء براقة إذ استخدموا لفظ الحرية في غير موضعه ، ووضعوه في غير محلّه ، وشتان بين المعنى الحقيقي للحرية التى منحها الدين الحق للإنسان ، وبين الرذيلة والفساد ، وهدْم أركان الأسرة ، والعبثِ بكرامة الإنسان .

أما المساواةُ الحقةُ ، والعدالةُ ، والإخاءُ فقد صارت في عصرنا الحاضر شعاراتٍ يختلف تطبيقها من بيئة إلى بيئة حسبما تقضى المذاهب

والأهواء ، كما صارت شعاراتٍ تُعلَن في المجتمع الدولى ، وواقع الحياة يؤكد أن السيطرة مازالت للقوىّ ، وأن التسلط الدموىّ يبرز بأنيابه في كثير من بقاع الأرض مثل فلسطين ، وجنوب أفريقيا ، وأفغانستان كما أن الإنسان مُحيت شخصيتُه في الدول التي تخضع للأخطبوط الشيوعى ، وضاعت كرامته في المجتمعات المنحلة التى طغت عليها مبادئ الإباحية التي تعشِّشُ في الدول الأوروبية .

الإسلام هو المنْقذ الوحيد :

إن الإسلام هو المنقذ ، وهو السبيل لتحقيق حياة إنسانية راقية ، يتحقق فيها للإنسان توازنُه النفسيُّ والعقلي والجسدي والروحي ، ويجد فيها الإنسان طمأنينته وسلامته في ظل الحرية الحقة ، والعدلِ ، والإخاءِ الإنساني الكريم ، والمواساة(١) بين البشر ! إذ الإسلامُ هو الدينُ العام للبشر جميعا ، فلا امتياز فيه لجنس على جنس ، ولا عصبية فيه ، وقد أعلن الإسلام أن البشر كلَّهم عائلةٌ واحدة أبوها آدم ، وأمُّها حواء ، وأكد الإسلام أن البشر ماصاروا شعوبا وقبائل لكى يتنازعوا ويتقاتلوا بل صاروا كذلك للتعارف والتعاون وتبادُل المنافع ، ولنتأمل قوله تعالى : ﴿ ياأيها الناسُ إناخَلَقْناكم مِّن ذَكَر وأُنْثى وجَعَلْناكم شعُوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرَمَكم عند الله أتقاكم ﴾(٢) .

إن الإسلام يربِّى أبناءَه على أن ينظروا للإنسان نِظرةَ مودّةٍ ومحبةٍ ورحمة ، وإلى أن تكون علاقاتُهم مبنية على أساس من التسامح والبر

(١) المواساة : من آسىٰ بينهما يؤاسي ويواسي مؤاساة ومواساة : سوّىٰ ، وآسىٰ فلانا بماله : أنا لهُ منه .

(٢) الحجرات : ١٣ .

والسلام ، فلا أحقاد بسبب اختلاف الدين إذ المسلمُ يدعو إلى الخير وإلى الحق والهدى ، ويبين للناس مزايا الإسلام ، ولكنه يؤمنُ أنه لن يستطيع أن يهدىَ إلى دينه أحداً إلا بإذن الله ، والله عز وجل يقول : ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النّاسَ حتى يكونُوا مُؤمنين * وماكان لنفسٍ أن تُؤمِنَ إلا بإذْنِ الله ﴾(١) .

إن الخلل الاجتماعي الذي أصاب البشر في عصرنا الحاضر ، وإن الجهل الذي شاع وجعل الناس تتفرقُ بهم السبلُ فكثرت الآلهة وتعدّدت ، وصار للإلحاد قوى تعصف بالإنسان عصفاً ، وتبدد قواه ، وتستخدمُه استخدام الآلة التى لا حسّ لها ولا شعور ، كما أن شيوع الفوضى في الأخلاق باسم الحريةِ والحريةُ من ذلك براء .. إن ذلك وغيرَه ينبغى أن ينبه الناسَ جميعا إلى الالتفات إلى الإسلام ومزاياه في العقيدة والعبادة والفضائل والأخلاق والمعاملات ، وإن الله عز وجل خاطب به الناس جميعا ولم يخص به أمة بعينها ، ولنتدبر ﴿ ياأَيُّها الناسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهانٌ مِّن رَّبِّكم وأَنْزَلْنا إليكم نوراً مُّبينا * فأمّا الذينَ آمنُوا بالله واعْتَصَمُوا به فسيُدْخِلُهم في رحْمَة مِّنه وفَضْلٍ ويَهْدِيهم إلَيْه صِرَاطا مُّسْتقيما ﴾(٢) .

إن المسلمين في عصور الإسلام الأولى كانوا هم القوةَ العاقلة الهاديةَ المرشدة ، وكانوا بفضل تعاليمِ الإسلام رحماءَ متعاطفين ، نشروا العلم وَبَدَّدُوا ظلام الجهل ، ودعَوا إلى التآلف والتآخى ، وعاش الناس في ظلال حضارتهم آمنين مطمئنين .. فما أشدّ حاجةَ عصرنا إلى الإسلام وهدايته ونوره .

* * *

---

(١) يونس : ٩٩ ، ١٠٠ .   (٢) النساء : ١٧٤ ، ١٧٥ .

الحجّـة البـاقيـة الدائـمة

أَيَّد الله عز وجل رسلَه الكرامَ عليهم الصلاةُ والسلام بالمعجزات الدالةِ على صدقهم فيما دَعَوا الناسَ إليه ، والشاهِدَة بأنهم يُوحى إليهم ، وأنهم مكلَّفون بتبليغ ماأُنزِل إليهم من ربهم لهداية الناسِ .

وكانت معجزاتُ الأنبياءِ قبل النبيِّ محمدٍ ﷺ حسيةً مناسبة لزمن النبي ، وللقوم الذين أُرسل إليهم ، ولنوع الثقافةِ الشائعةِ فيهم ليكونَ التحدِّى أوضحَ ، وذلك مثلُ إلانةِ الحديد لداودَ عليه السلام ، وتسخير الريح لسليمانَ ، وقلبِ العصا حيةً لموسى ، وإحياءِ الموتى وإبراءِ الأكمهِ والأبرصِ لعيسى عليهم جميعا وعلى نبينا الصلاةُ والسلام ، ذلك أن الرسلَ قبل محمد ﷺ كانوا يُبعثون لأقوامهم خاصة ، وكانت الرسالةُ لزمن معين ، فموسى — مثلا — رسولٌ إلى بنى إسرائيلَ وعيسى كذلك ، أما رسالةُ النبيِّ محمدٍ ﷺ فهي خاتمةُ الرسالاتِ السماوية ، وهي أيضاً رسالةٌ عامةٌ لكل الناسِ من كل جنسٍ ولسانٍ ولغة ، وإن جميعَ الأنبياءِ بُشِّروا بالنبي محمد ﷺ ودعَوا أقوامَهم إلى الإيمان به عند ظهوره ، وتصديقِه ، ونَصرِه .

أعظم معجزات النبي محمد ﷺ :

لهذا كانت معجزةُ النبي محمد ﷺ الكبرى هى القرآنَ الكريمَ ،

وكانت معجزةً عقليةً باقية إلى أن يرث الله الأرضَ ومَنْ عليها تتحدَّى عقولَ الناسِ ، ليرىٰ المتأملُ أن القرآن لايمكن أن يكونَ كلامَ بشرٍ ، وأن محمداً ﷺ لايُمكنه أن يأتِي بشيْء منه من عند نفسه ، وإنما هو كلامُ الله عز وجل نزَل به الروحُ الأمينُ على قلب خاتمِ النبيين ﷺ باللفظ والمعنى ليَهْدِيَ الناس ، ويُخرِجَهم من الظلمات إلى النور ، ومن الضلالِ إلى الهدى ، أمَّا معجزاتُ غيرِه من الأنبياء فتنتهي بانتهاءِ زمنِ كلِّ نبي .

قال بعضُ المفكرين الأوربيين في الرد على مَن زعم أن محمداً ﷺ لم يُؤتَ مثلَ ماأُوتي موسى وعيسى عليهما السلام من الآياتِ المعجِزة فقال مامعناه : إن محمداً كان يتلو القرآنَ مُولّها مُدلَّها خاشعاً متصدِّعاً ، فيفعل في جذب القلوبِ إلى الإيمان به فوقَ ماكانت تفعل جميعُ آياتِ الأنبياءِ من قبله .

والمقصود بكلمة مولّه أي أنه ﷺ يكون في حالة يُؤثر فيها الكلام في نفسه وفي نفسِ سامعه تأثيرا يَملِك عليهما أمرهما ، فيكون هاديا مهديّا ، والمقصود « بالمدله » هنا المنصرف بعقله إلى التدبر فيما يقرؤه فيشغله التدبر عن الناس وعمّا يحيط به لشدة حُبِّه لكلام الله ، وإقبالِه عليه .

إن ماأيّد الله تعالى به رسلَه الكرامَ من الآيات الكونية كان مناسباً لحال زمان كلٍّ منهم وأهله ، وقامت بها حجتُهم على مَنْ شاهد تلك الآياتِ في عهد كلِّ نبي ، فآمن بها المستعدّون ، وكابرها المعاندون المتكبرون ، وأعرض عنها المقلّدون الجامدون ، كما فعل فرعونُ وأعوانُه من المخذولين بعد أن رأوا معجزةَ موسىٰ عليه السلام ، ولكنهم مع ذلك كابروا وعاندوا ، ثم ندم فرعونُ عند موته ، وبعد فوات الأوان فصار هو وأعوانُه من

الهَالِكين ، أمَّا السحَرةُ الذين حَشدهم فرعون في موقف التحدى فإنهم حين رأوا عصا موسى تنقلب حية وتلقف وتبتلع ما يأفكون ، وما يموّهون به على الناس ، حين رأى السحرةُ المعجزةَ الخارقة للعادة أدركوا أنها ليست من صنع بشر ، ولا من قدرة أحد من المخلوقات فخروا لله سُجّدا ولنتدبر : ﴿ قال لهم مُّوسىٰ أَلْقُوا ماأنتم مُّلْقُون * فألقَوْا حِبالَهم وعِصيَّهم وقالُوا بعزَّة فرعونَ إنَّا لنحنُ الغالِبُون * فأَلقىٰ موسىٰ عَصاه فإذا هِيَ تَلْقَفُ مايَأْفِكُون * فأُلقِيَ السحرةُ ساجِدين * قالُوا آمَنَّا بربِّ العالَمين * ربِّ موسىٰ وهارون ﴾[1] .

الكِبْر هلاك لأصحابه :

وفي هذا الموقف مايُؤكد في النفوس أن الكِبر يُهلِك صاحبَه ، ويُؤدِّى به إلى الجحيم ، لأن ماراَه السحرةُ من المعجزات قد رآه فرعونُ وأتْباعُه ، ولاشكّ أنهم في قرارة نفُوسِهم يُدركون عجْزَ البشرِ عن الإتيان بمثل ماجاءَهم به موسى عليه السلام ولكنّه الخِذْلان الذى يجرُّ صاحبه إلى الخُسْران ، أما الذين شايعوا فرعون من الأتباع وصغارِ النفوس فهم صورة للمقلِّدين في كل عصر وزمان يسيرون وراء كل ناعق ، ويَجرون وراء كلِّ صيحة ، ويؤلِّهون كبراءهم وزعماءَ الضلال فيهم ، مع أن الإنسانَ العاقلَ البصير ينبغي له أن يسعىٰ لإنقاذ مُهجتِه ، وأن يعمل لإسعاد نفسه ، وألا يُشايع أهل الضلال ، وألا يُتابعَ مَن يدعوه إلى شرٍّ وفساد ، وأن يفِرّ من الدعاة إلى الإلحاد والشرك كما يَفِرُّ من النار المُحرقة ، أو من الأوبئة الفتّاكة ، لأن متابعة الأشرار فيها الضياعُ والبوار .

---

(١) الشعراء : ٤٣ : ٤٨ .

ولنتدبر موقفاً من مواقف الخزى والندامةِ للتابعين الّذين صَمُّوا آذانهم عن سماع كلمةِ الحق ، وأغلقوا عيونَهم عن التدبر في آيات الله الكونية ، وساروا على عمىً وضلال وراءَ شياطين الإنس .. يقول الله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لله جميعاً فقال الضعفاءُ لِلَّذِين استكْبَرُوا إنّا كنّا لكُم تَبَعاً فهل أنتم مُّغْنون عنّا مِن عَذَابِ الله من شيْءٍ ، قَالُوا لوْ هدانَا الله لَهدينَاكُم سواءٌ علينَا أجَزِعْنا أم صَبَرْنا مالَنا مِن مَّحِيص ﴾(١) .

وفي موقف الحسرةِ والندامةِ يتبرأُ زعماءُ الضلال وهم الدعاةُ على أبواب جهنّمَ من متبوعيهم ، فتزدادُ حسرةُ الإمَّعَات الذين أَلغَوْا عقولَهُم ومَشَوا وراءَ أهلِ الضلالِ ، ولم يُفكِّروا في العواقِب ، ولنتدبر : ﴿ إذْ تبرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِن الّذين اتَّبعُوا وَرَأَوُا العذابَ وتقطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب * وقال الّذين اتَّبعُوا لو أنّ لناكَرَّةً فنتبرَّأَ مِنهم كمَا تَبرءُوا منّا كَذَلك يُريهم الله أعمالَهُم حَسَراتٍ عليهِم وماهُم بِخَارِجين من النَّار ﴾(٢) .

الحجةُ الباقيةُ :

ولقد منح الله عز وجل الإنسان العقلَ والبصيرةَ وأرسل إليه الرسلَ وأنزل عليهم الكتب ، وأمدَّهم بالمعجزاتِ كيلا يكونَ للناسِ حجةٌ بعد الرسل ، وفي هذا تنبيهٌ للشباب والشابات ، ولكل الناس أن يقيسوا دائماً مايُدْعَون إليه بمقياس الدين الحق ، وأن يستخدموا عقولهم استخداما صحيحاً ، وأن ينظروا في الأدلة ، ونحن والحمدُ لله بين أيدينا القرآنُ الكريم وهو الحجةُ الباقيةُ ، والمعجزة الدائمة ، وقد تضمن الوحْيُ الإلهيُّ مافيه صلاحُ العقول والنفوسِ ، وما يحققُ لكل الناس حياتَهم الآمنةَ المطمئنةَ ، ويهيىء نفوسَهم

---

(١) إبراهيم : ٢١ .

(٢) البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧ .

للسعادة الأخروية ، وإن كلَّ الناس يطالبُهم القرآنُ الكريم بالإيمان به ، ويحثّهم على طاعةِ الله وتوحيدِه ، واجتنابِ مانهى عنه ، والاقتداءِ بنبيه محمدٍ ﷺ ، والأخذ عنه ، والإيمانِ بكل ماأخبر به عن ربِّه ، ومن حقِّ القرآنِ على أمةِ الإسلام أن يأخذوا أنفُسهم بتعاليمِه ، وأن ينفِّذوا أحكامه ، ويطبقوا حدودَه ، وان يتحلَّوْا بفضائله ، لأن القرآنَ حياتُهم ، وهو وروحُ الجماعةِ المسلمة .. وهل تستطيعُ أمةٌ أن تحيا حياةً حقيقيةً بغير روح ، وإن واجبَ جميعِ الناس من كل جنس ولغةٍ أن يُؤمنوا بالقرآن وبكل ماجاء به النبيُّ محمدٌ ﷺ .

مقارنة بين حال العرب قبل الإسلام وبعده :

وهيا نعودُ إلى صدر الإسلام ونرى ماصنع القرآنُ في العرب ، وهم كانوا أمةً أمّية ، تعيشُ قبائلُهم على الغارة والثاراتِ ، وإثارةِ العداوات ، وإن كانوا قد بلغوا أوْجَ الفصاحةِ والبلاغةِ ، وقد نبغ منهم الشعراء والحكماءُ ، وظهر فيهم الخطباءُ الفصحاء .. هيا نتأمل حالَهم حين جاءهم القرآنُ الكريم ، وأخذ بمجامع قلوبِهم ، وبهر عقولَهم ، واستولى على ألبابهم بفصاحتِه وبلاغتِه مما أعجز فصحاءَهم عن الإتيان بمثل سورة أو آيةٍ منه ، إن معجزة القرآن الكريم في تغيير أمة العربِ وخَلْقِها خلقاً جديداً وكأنّما بُعثت من جديد لمن أوضحِ الأدلّة الواقعيةِ التي لا يُنكرها إلا مُكابر على أن القرآنَ كلامُ الله ، وأن محمداً رسولُ الله وأن الخيرَ والهدايةَ والسعادةَ والنجاةَ في اتباعِه والعملِ بشريعته ، ونبذِ كلِّ دين سِوى دينِ الإسلام ، وتركِ كلِّ ملّةٍ وكلِّ مذهبٍ يُناقض ماجاء به محمدٌ ﷺ .

يقول باحث : « لم يُعرف في تاريخ البشرِ أنَّ كلاماً قاربَ القرآنَ في

قوة تأثيرِه في العقول والقلوب ، فهو الذي قلبَ طباعَ الأمةِ العربيةِ وحوَّلها من عقائدها وتقاليدِها ، وصرفها عن عاداتها وعداواتِها ، وَصَدَفَ بها عن أثَرَتها وثَاراتها ، وبدَّلها بأميتها حكمةً وعلما ، وبجاهليتها أدباً رائعاً وحلِما ، وألَّف من قبائلهَا المتفرقة أمةً واحدةً سادت العالم بعقائِدهٰ ، وفضائلِها ، وعدلها ، وحضارتها ، وعلومها ، وفنونها » .

لقد صارت الأمةُ العربية بفضل القرآن الكريم في أقلَّ من ربع قرن من الزمان أمةً حيةً بفضائلها العالية ، وبآدابها الكريمة ، وبفقه رجالها ، وبطهارة الرجالِ الذين آمنوا وأخلصوا لله ، لقد صارت بفضل إيمانها بالقرآن وتطبيقها لتعاليمه كالبنيان المرصوص يشد بعضُه بعضا ، وتآخي الكبير والصغير ، والقويُّ والضعيف ، وصاروا أمة متعاطِفة متعاونةً ، وساد فيها العدلُ والرحمة والبِرُّ ، وتساوت القلوب ، وتواضع الناسُ بعضُهم لبعض ، وحرصوا على طلب العلم ، وجاهدوا في سبيل الله لا لدنيا ولا لِهَوى ، إنما كان عملهم لخلاص الناس من المهانة والذلِّ والعبودية لغير الله لايبتغون إلا وجْهَ الله ، حتى دخل الناسُ في دين الله أفواجا ، وعَمَّ نور الإسلام أرجاءَ الدنيا ، وآمن به الملايين من غير العرب .

إن القرآن الكريم هو المعجزةُ الكبرىٰ الباقية ، وهو الحجةُ الدائمةُ على الناس جميعا ، وهو الذي أخرج المؤمنين من الظلام إلى النور ، ومن الحيرة إلى الهُدى ، ومن الجهل إلى العلم ولنتأمل : ﴿ قَدْ جاءَكُم مِّن الله نورٌ وكتابٌ مُّبينٌ * يَهْدى به الله من اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السلامِ ويُخْرِجُهم مِّن الظُّلماتِ إلى النُّورِ بإذنِه ويَهْديهم إلى صِراطٍ مُّسْتَقِيم ﴾(١) .

* * *

(١) المائدة : ١٥ ، ١٦ .

أوجب الله على الناس جميعًا الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم

الله عز وجل دعا الناس جميعا إلى الإيمان بالنبي محمد ﷺ والدخول في دينه لأن رسالته ﷺ هي خاتمةُ الرسالات السماوية ، وجاءت جامعةً للأصول التي جاءت بها الأديان السماوية السابقةُ كرسالة موسى وعيسى عليهما السلام ، كما أن رسالة محمد ﷺ تضمنت من الشرائع والفضائل والأحكام ماتستقيم به مصالح الناس ، وتَصْلح به أحوالُهم ، ويحققون به الخير لآجلهم وعاجلهم ، فهي رسالة عامة وشاملة لأنها لكل الناس في كل زمان وفي كل مكان ، وليست لقوم بأعيانهم كما كانت الديانةُ التي جاء بها موسى وعيسى عليهما السلام ، ولهذا كانت المعجزة الكبرى للنبي محمد ﷺ هي القرآنَ الكريمَ ، وهي معجزةٌ قائمة أمام كل جيل من أجيال البشر منذ ظهور النبي محمد ﷺ إلى أن تقوم الساعة ، بها يتم التحدِّى ، وتقوم الحُجَّة على المخالفين .

قال الله تعالى من سورة يونس : ﴿ وما كان هذا القُرآنُ أن يُفْتَرىٰ مِن دونِ الله ولكِن تَصْديقَ الّذي بينَ يديْه وتفصيلَ الكتابِ لا ريْبَ فيه مِن ربِّ العالمين * أم يقولونَ افتراه قُلْ فأتوا بسورةٍ مِّثلِه وادْعوا مَنِ استطعتُم مِّنْ دونِ الله إنْ كُنْتم صادِقين ﴾[1] .

---

(١) الآيتان : ٣٧ ، ٣٨ .

وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن ينادِى في الناس جميعاً من كل جنس ومن كلّ لسان أنْ آمِنوا بالنبي الذي بعثه ربُّه للناس كافةً ، وجعل رسالتَه رحمةً للعالمين ، وقد نَسَخَت رسالتُه جمِيعَ الرسالاتِ السماويةِ السابقةِ ، ولنتدبر قوله تعالى من سورة الاعراف :

﴿ قُلْ يَاأَيُّها الناسُ إنِّى رسُولُ الله إليكُم جميعاً الَّذِي لهُ مُلكُ السمٰواتِ والأرضِ لا إلٰه إلا هو يُحْيي ويُميتُ فآمنُوا بالله ورسُولِه النبىِّ الأُمِّىِّ الّذى يُؤْمِنُ بالله وكلِماتِه واتَّبعُوه لعلَّكم تَهْتدون ﴾(١) .

الرسالة العامة :

فالله عز وجل الذي قامت الأدلةُ على أُلوهيته ، وبيده وحده الإحياءُ والإماتةُ هو الإلٰه الواحدُ لا شريكَ له في مُلكه يأمر الناسَ جميعا من كل جنس ـــ عربَهم وعجمَهم ـأن يؤمنوا به سبحانه إلٰها واحدا لا معبودَ بحقٍّ سِواه ، وأن يؤمنوا بالنبي الأمّى العربي الذي يُؤمن بربّه ، ويؤمن بجميع الكتب السماويةِ التي أنزلها الله على الرسل من قبله ، ولا اهتداءَ بعد ظهوره ﷺ إلا باتّباعه ، ونُصرةِ دينه ، وطاعتِه ، والعملِ بشريعته ، وترْكِ كلِّ ماسِواها من الأديان السماوية السابقة ، فما بالُك بمن يكون على مجوسية أو جحود أو إلحاد ، ونحو ذلك من أنماط الكفر والنكران : ﴿ واتَّبِعُوه لعلّكم تَهْتَدون ﴾ .

قال السيد / رشيد رضا في تعليقه على قوله تعالى : ﴿ فآمِنُوا بالله ورسوله النبىّ الأمى ﴾ أي فآمنوا أيها الناسُ من جميع الأمم بالله الواحد في

---

(١) الأعراف : ١٥٨ .

ربوبيته وألوهيته ، الذي يُحيى كلَّ ماتَحِلّه الحياةُ في العالم ويُميت كلّ مايَعْرِضُ له الموتُ بعد الحياة ، وهذا أمر يتجدَّد كلَّ يوم فتشاهدونه ، وَمِثْلُه البعث العامُّ بعد الموتِ العام وانقضاءِ هذا العالم ... وآمنُوا برسوله المطلقِ الممتاز بأنه النبيُّ الأميُّ الذي بَعَثَه في الأمّيّين ــ العرب ــ رسولاً إلى الخلقِ كافةً يعلّمهم الكتاب والحِكمة ويُزكّيهم ويطهّرهم من أباطيل الشركِ وأوهامِه ، ومن الرذائل والجهلِ ومن التفرق والتعادى بعصبيات الأجناس واللغات والأوطان ، ليكونوا بهدايته أمةً واحدة يتحقق بها الإخاءُ البشريُّ العام ، وقد بشَّر بهذا النبي الأمى الأنبياءُ الكرام عليهم السلام لأنه المتمّم المكمّل لما بُعثوا به من هداية الأقوام » . انتهى كلامه من تفسير المنار .

إن نزول الوحى على نبي أمِّى لم يَقرأ كتابا ، ولم يذهب إلى معلم وحياتُه قبل بعثته تناقلها الناسُ وكتبُ السير جيلا بعد جيل فهو لم يتعلم شيئا عن تاريخ الأمم الماضية ، وما وقع لها ، إن نزول الوحى عليه ليعلِّم الأمم ، وليبصرَها من العمى ، وليردَّ الناسَ إلى الطريق الصحيح في العقيدة والعبادةِ والفضائلِ والمعاملات وهو الرجل الأمّى لمِنْ أعظم المعجزات ، ولمن أوضح الأدلةِ على صِدْقه ، وعلى صِدْق ماجاء به ، ولذا كان الإيمان به واتّباعُه وطاعتُه أمرا واجبا وفرضا لازماً على كل رجل وامرأة ، وشاب وشابة في كل الأمم : العربىِّ منها وغير العربي ، لأن برهانه واضحٌ ، ودليلَهُ قوىٌّ ساطع ، وحجَّتَهُ قائمةٌ أمام العقول والأفهام ، ولا عذرَ لأحد يعتنق دينا من الأديان غير الدين الذي جاء به النبيُّ محمدٌ ﷺ ، لأنه خاتم النبيين ورسولٌ إلى الناس كافة .

ولنتدبر ماجاء من الأدلَّة القطعية على عموم رسالته لعموم الجنس البشري وللجنِّ أيضاً ، قال تعالى : ﴿ تَبارك الذي نَزَّلَ الفُرقانَ على عبدِه

ليكونَ للعالَمينَ نذيراً ﴾[1] . وقال سبحانه : ﴿ ماكان مُحمّدٌ أبا أحدٍ مِّن رِّجالِكم ولكن رّسولَ الله وخاتَمَ النّبيِّين ﴾[2] . وقال عز وجل : ﴿ وَمَا أرسَلْناك إلّا كافةً للناسِ بشيراً ونَذِيرا ﴾[3] . وقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ﴾[4] .

وقد جاءت الأحاديثُ الصحيحةُ الناطقةُ باختصاصه ﷺ بالرسالة العامة ، منها حديثُ أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : « والذي نَفْسُ محمدٍ بيده ، لايسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمّةِ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثم يموتُ ولم يُؤمن بالذي أُرسِلتُ به إلّا كان من أصحابِ النار » .

وإنما خصّ في الحديث اليهوديَّ والنصرانيَّ وإنْ كان الحكم عامّا يتناول غيرَهما كالمجوس والملحدين وسائر أجناس غير الموحدين لأنهم جميعا مدعوون للدخول في دين الإسلام الذي جاء به محمدٌ ﷺ ، ومطالَبون بذلك .. خص الحديثُ اليهوديَّ والنصرانيَّ لأن لهم كتاباً سماويّاً فإذا كان هذا شأنَهم مع أن لهم كتاباً سماويا فإن غيرهم مِمَّن لا كتابَ لهم أوْلى .

الرسالة الخالدة إلى يوم القيامة :

والمراد بالأمة في الحديث الإنسُ والجنُّ ، فكل من عَلِم بمبعثه ﷺ سواءٌ كان موجوداً في زمنه أو وُجد بعده إلى يوم القيامة وجب عليهم الدخولُ في دينه وطاعته ، والإيمانُ بكل ماجاء به ﷺ .

وإن كل من يموت ولم يُؤمن بالنبي محمد ﷺ ، وبقى متمسكا

---

(١) الفرقان : ١ .
(٢) الأحزاب : ٤٠ .
(٣) سبأ : ٢٨ .
(٤) الأنبياء : ١٠٧ .

بدينه وشريعته التي نُسخت بمبعثه ﷺ إذ الأديانُ السماوية السابقة كلُّها نُسِخَت بالإسلام ، فكل مَنْ يموت متمسكا بدين غير الإسلام أو بَقِيَ بلا دين فقد أوجب لنفسه النارَ خالداً فيها ، لأنه لم يدخل في الدين الصحيح الذي ارتضاه الله دينا للناس جميعهم حتى يوم القيامة .

وفي حديث جابر : أُعطِيتُ خمساً لم يُعطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلى : « نُصِرْتُ بالرُّعبِ مسيرةَ شهر ، وجُعِلَتْ لي الأرضُ مسجِداً وطَهُورا ، فأيُّما رجلٍ من أُمّتى أدركتْه الصلاةُ فليُصَلِّ ، وأُحِلّت لي الغنائمُ ولم تَحِلّ لأحد قَبلى ، وأعطِيتُ الشفاعَة ، وكلُّ نبى يُبعَث إلى قَومه خاصَّةً وبُعِثْتُ إلى الناس عامَّة ﷺ » .

اللهم ارزقنا حسن اتّباع نبيّك الأمين ﷺ .

* * *

انظروا إلى الإسلام لا إلى حال المسلمين يامَنْ تبحثون عن الحَق *

سؤال من شاب مسلم :

سأل شاب يتلقى تعليمه في بلد أوروبي : وكان سؤاله بدافع الغيرة على دينه ، والرغبة في إزالة شبهة يثيرها بعض الحانقين على الإسلام .. إمّا بدافع الحقد ، أو بدافع الجهل .

وكان السؤال : إن الناظر أو المتأمل في أحوال المسلمين اليوم قد يسيء الظن بالإسلام .. ويقول : إذا كان الإسلامُ قوةً بانيةً ، تدفع إلى الترقّي في مدارج الكمالِ الإنساني والحضاري السليم ، وتبعث على القوة في جميع ميادين الحياة .. الاقتصادية .. والعلمية .. والسياسية .. والعسكرية ، إذا كان الإسلام كذلك ، فلم وَصَل الحالُ بالمسلمين إلى أن يكونوا قطعا مُبعثَرة يُخْضِعُهم الأجنبيُّ عنهم لسلطانه فترةً من الزمان .. حتى إذا ماتخلَّصوا من نِيرهِ وتحرّروا من قيوده .. فإنهم مازالوا في كثيرٍ من بقاع الأرض أقلَّ قوةً من غيرهم ، وأدْنىٰ تقدُّما من الشعوب الأوروبية ؟ .

ثم قال الشاب : وتلك الشبهةُ يُثيرها في وجوهنا بعض الناس .. فلا ندرى بم نجيب ؟ .

---

* هذا حديث إذاعيّ من سلسلة أحاديث للمؤلّف بعنوان « رضينا بالإسلام دينا » أُذيعت من نداء الإسلام بمكة المكرمة في القرن الرابع عشر من الهجرة ، هو ومايليه في هذا الكتاب .

ولا نعرف كيف ندافع عن الإسلام ، وأهلُه على ماهم عليه من تمزُّق وتشتُّت وضعْف بالقياس إلى الأمم التي قطعت أشواطا في مضمار المدنية والقوة المادِّيّة ؟ .

مثال أول :

فقلت لمحدثي : وأنا بدورى أسألك سؤالا .. وأطلب إليك الجواب عنه .. لو أن إنسانا ترك له أبوه ثروة عظيمة .. ثروة من المال الحلال الطيب .. وثروة من المجد والجاه وحسن السيرة .. إلى جانب المكانة بين أبناء مجتمعه .. ولكن الوارث كان أحمق ، فأساء التصرُّف : بدَّد المال في غير وجوهه المشروعة .. وانحرف سلوكه عن الجادَّة .. حتى أساء إلى نفسه بين الناس فانحطت منزلتُه وخمَلَت مكانتُه .. أترى حينئذ أنَّ اللوم تُسَدَّد سهامُه إلى الأب الذي رحل نَقِيَّ السيرة ، عظيمَ الشأن أم إلى الابن الذي انحرف عن جادَّة أبيه ومنهجه في حياته ؟ .

رغبة في المزيد من الإيضاح :

ولمحت في محدِّثي الشاب .. رغبة في المزيد من الإيضاح وإن كان بدا مقتنعا معي بأن العيب هو عيب الابن الوارث الذي لم يُحْسِن التصرف في ثروة المال والجاه والخُلق والمجد .

الإسلام نظامٌ كامل للحياة الراقية :

فقلت : إنني أود أن يكون واضحا في عقلك وشعورك .. أن الإسلام في نقائه وصفائه ، وفي عظمة مبادئه وسمو أحكامه وروعة تشريعه وبعقيدة التوحيد الصافية النقية من كل شائبة لا ينبغي أبدا أن يكون مقياسَ الحُكْم على مبادئه ماآل إليه حالُ المسلمين في العصور المتأخرة ، لأن ضعْفَ

المسلمين وهوانَ شأنهم ماحدث إلا بسبب بُعْد المسلمين عن روح الإسلام ، وتخليهم عن جوهره ولُبابه ، فالدين الإسلامي عبادةٌ وقيادةٌ وتشريعٌ مُحْكَم ومنهاجٌ كاملٌ للحياة الفاضلةِ الراقيةِ ، لم يغادر صغيرةً ولا كبيرةً مما ينفعُ الناسَ في أمور الدنيا ، أو شئون الآخرة إلا أحصاها .. فهو دستورُ حُكم ، ومنهجُ سلوك وأخلاق ، وتنظيمٌ كاملٌ ودقيق ورائعٌ لشئون الحياة في أدق تفاصيلها : عُني الإسلام بالفرد ، وبالجماعة وبالأسرة وبالحكم ، وبالعمل وبالعِلْم والأخلاق ، وعُني بالجانب الماديِّ في الإنسان عنايتَهُ بالجانب الروحيّ فيه لتتكاملَ حياةُ الإنسان ويعيشَ في أسعد حالتيه ، والإسلامُ بعد هذا كلِّه دينُ أخوة بنى صرح الأخوة الإنسانية على أساس متين من المساواة والعدالة والرحمة والرفق ، وفي ظلاله الرحيمة تزدهِر عراقة النسب ، ويرتفعُ الخامل ، ويأمنُ الخائف ، ويستقرُّ المضطرب ، ويطمئنُّ صاحبُ الحق ، ويتساوى البشر جميعاً أمام قانونه العادل الرحيم ..

لايجوز الحكم على الإسلام بأحوال المسلمين اليوم :

فهل بعد هذا كله يجوز لعاقل أن يحكم على الإسلام مستندا إلى ماعليه حال المسلمين ؟ وهل المسلمون اليوم على ماأراد لهم الإسلام ؟ وأين هم من الإسلام تشريعا وأخلاقا ونظامَ حياة ؟ بل أين هم اليوم من جوهر عقيدته ؟ ومن روحه البنَّاءة القوية ؟

كيف نحكم على الإسلام ؟

إن الذي يريد أن يحكم حكما صائبا على عظمة الإسلام وسمو مبادئه .. ليس أمامه إلا طريقان : إمَّا أن يعود إلى الإسلام في منابعه الأصيلة باحثا ودارسا ومدققا .. يرجع إلى كتاب الله .. وإلى سنَّةِ نبيِّه ﷺ ويُعينه على الفهم والوضوح اللجوءُ إلى ماقدَّمه الأعْلامُ الثِّقاةُ من

علماء العقيدة والفقهاء والمحدِّثين .. وغيرهم .

وإما أن يرجع إلى التاريخ دارسا مدقّقا .. يدرس حال العرب وغيرِهم قبل بزوغ فجر الإسلام .. ثم يدقِّق النظر .. ليعلم إلى أي مدى نقل الإسلامُ العربَ .. وغيرَ العربِ من عصور الهمجية والتمزُّقِ والانحلالِ والضعفِ والجهلِ والظلم إلى حياةٍ لا تتصلُ بما قبلها بسبب ، ومن خلال هذه الدراسة يتضح للدارس أثر العقيدة الإسلامية والمبادىء الإسلامية في الحياة الإنسانية .. وكيف أن تلك العقيدة النقيّةَ وهذه المبادىء العالية الكريمة جعلت من معتنقيها قوة بانية هادية وكأنهم خُلقوا خلْقاً جديداً .

العرب قبل الإسلام :

إن أحدا لا يخفى عليه أن الأمَةَ العربيةَ في شبه الجزيرة العربية كانت قبل بزوغ فجر الإسلام .. قبائل مُشتَّتةً .. لا تجمعُهم صلةٌ دينيةٌ ولا مصلحةٌ اقتصاديةٌ ولا توحِّد بينهم رابطةٌ سياسية .. وأن هذه القبائلَ في جاهليتها كانت تشغَلُهم الحروبُ والغاراتُ ودَيْدنُهم توارُث العداواتِ والأحقادِ ، وكانوا على أبسط درجاتِ الاجتماع الإنساني .. استقلت كل قبيلة عن الأخرى وثارت بينهم الحروبُ المدمرة لأتفه الأسباب .

وإذا تأمّلْنا حَالَهُم من الوجهة العلمية .. لوجدنا الجهلَ كان متفشيا فلم يُؤْثَر عنهم عُلومٌ مدوَّنة ، ولا فلسَفةٌ مشروحة بل لم يهتموا بتعليم القراءةِ والكتابةِ ، ولم يلتفتوا إلى مايبعد بهم عن العِلْم بما يقع تحت الحواسِّ مما هو قريبٌ منهم .. فلم يُؤثر عنهم أنهم تفوقوا في فنٍّ من الفنون ــ اللهم إلا الشعر ــ فقد كانت لهم فيه مَلَكةٌ عاليةٌ ، أما العلوم .. كالرياضيات والطبيعيات والطبِّ .. فإنّ أحدا لا يخفى عليه أن العرب قبل إسلامهم لم يبرزوا في فرع من هذه الفروع العلمية .. كما لم تكن هناك رابطة سياسية

تجمعهم في جبهة واحدة .

هذا هو شأنُ الأمة العربية من سحيق العصور إلى حين بعْثة محمدٍ ﷺ إليها ..

والعرب بعد الإسلام :

ونزل القرآنُ الكريم على محمد ﷺ .. وهو النبيُّ الأميُّ الذي لم يجلس إلى معلم ، ولم يذهب إلى مدرسة ، ولم يتعاط الشعر طوال حياته ، ولم يقع في يده عِلْمٌ من علوم الأمم القديمة .. فلم يكن يعلمُ شيئا عن فلسفة اليونان ، ولا علوم الهند ولم يتصل بأهل كتاب سماويٍّ سابق قبل بعثته ﷺ ، وتاريخُ نبيِّنا الكريم وسيرتُه العطِرةُ قبل بعثته متواترةٌ مشهورة يعلمها المسلمُ وغيرُ المسلم .

نزل القرآن الكريم على النبي الأمّي ﷺ فلم تلبث أمةُ العربِ إلا سنين قلائل حتى رأيناها نهضت نهضة الأسد تتلألأ نوراً وتمتلىء حياةً وحيوية ، وتتجلّى أخلاقا وشعورا .. توحدت بعد فُرقة ، واهتدت بعد ضلال ، وآمنت بعد شِرْكٍ ووثنية ، وتعلَّمت بعد جهل ، وعدلت بعد ظُلم ، وتآخت بعد أن مزَّقتها العصبيةُ وعنجهيةُ الجاهلية .. ثم خرجت من الجزيرة العربية وجالت في العالم جولةَ القوى العادل ، وصالت صولةَ القادر العاقل فإذا بها أمةُ الحضارةِ ، وصاحبةُ العِلْم ، وربَّةُ السيف والقلم ، ومحققةُ العدلِ والمساواة ، وكاشفةُ الظلم والظلام .

بأيِّ واسطة حصل هذا التغيير الفجائي الذي أدهش العالمين ، إنه بالإسلام الذي رضيه أهلُ الصلاح والإصلاح لأنفسهم دينا ، واتخذوه منهجا ودستورا ، فسادوا وعزوا ، وصعدوا في مدارج الكمال الإنساني حتى بهروا العالم بعلومهم وآدابهم الراقية وبفضائلهم وبرعايتهم للضعيف والبائس

والعاجز واليتيم والأرملة .

إنها أمة الإسلام التي أقامت أعظم حضارة في تاريخ بنى الإنسان ، وفي ظلها عاش كلُّ الناس من كلِّ دين ولغةٍ ولون في سلام وأمن ينعمون بحقوق الحياة بعد أن بسط عدلُ الإسلام جناحيه الرحيمين على كل الناس .

والمسلمون اليوم .

وعلى المسلمين في عصرنا الحاضر أن يعودوا للمصدر الحقيقي لبناء حضارتهم المؤسسة على العلم والإيمان وعلى مبادىء الخير والحبِّ والعدل والمساواة .. ويكون ذلك بالرجوع إلى الإسلام دينا ودولة وحياة كاملة ولنسمع ربَّنا ينادينا :

﴿ ياأيُّها الناسُ قَد جاءكُم بُرهانٌ مِّن رَّبكم وأنزلْنا إليكم نُورا مُّبينا * فأمَّا الذين آمنُوا بالله واعتَصمُوا به فسيُدْخِلُهم في رحمة مِّنه وفضلٍ وَيهدِيهم إليه صِراطاً مُّستقيما ﴾[1] .

* * *

(١) النساء : ١٧٤ ، ١٧٥ .

الإسلام هو طريقنا
إلى الكمال الإنساني .

— الإيمان الصحيح يبعث على الطمأنينة أمام الحوادث .
— الإيمان بالبعث يدفع إلى تهيئة النفس للسعادة الأخروية .
— الإلحاد شرّ وفساد ويناقض فطرة الإنسان .

لماذا الإسلام :

رضينا بالإسلام دينا لأنه دين الحياة الحرة العزيزة الكريمة ، دينٌ يسمو بالإنسان ، ويُعلي من قدره ، ويرفع مكانته ، ويربأ به أن يكون في منزلة لا تليق به ، فالإنسانُ مخلوق كرمه الله ، ووهبه عقلاً طَموحاً وفكراً جوّالا ، كما منحه إحساسا وشعورا يرتقى به عما عداه من مخلوقات تدب على الأرض .

الإنسان مادة وروح :

والإنسان بحالتيه المادية والروحية وبطبيعته العقلية والشعورية ، يعيش على الأرض يفكر ويسعى ، ويستنبط ويوفّر لنفسه مايحتاج إليه من ضرورات الحياة وكمالياتها .. وهو في الوقت نفسه يحلّق بروحه في آفاق عليا ويرتبط بوجدانه بما وراء المحسوسات لأنه يعلم — أو ينبغى له أن يذكر دائما — أن حياته المادية ماضية في طريقها نحو الفناء .. ويذكر دائما أن الذين ذهبوا عنه ورحلوا عن الدنيا لم يعودوا إليها .. كما يذكر دائما أن هناك قدرة أعلى من قدرته .. وسلطانا أقوى من سلطانه .. وأن للكون

العظيم مدبّراً قديراً عليماً حكيماً يصرف الأمور بحكمته ، وتخضعُ قوانينُ الكونِ لحكمه وإرادته ، وأن الإنسان مهما أوتى من علم ، أو مهما بلغ من درجات التفوق العقلي في مضمار المحسوسات التي تحيط به .. أنه ــ أي الإنسان ــ مهما بلغ من ذلك كله .. فإنه لايستطيع أن يردَّ عن نفسه آفاتِ المرض ، أو كوارثَ الطبيعة ، أو أن يدفع عن نفسه غائلةَ الموت حين يأتى أوانه .

الإنسان في حاجة إلى الإيمان الصحيح :

وحسبنا ذلك من الأدلة على ضعف الإنسان ، وعجزه وعلى حاجته إلى الإيمان .. والإيمانِ الصادق المخلص بالمهيمن على أمور الحياة القادر على كل شيْء الباقي إذْ لابقاءَ لأحد سواه ، الواحد الذي لا يشاركه أحد في تدبيره .. وهذا الإيمان الوثيق يوفر للإنسان الطمأنينة .. ويجعله أقوى على مجالدة خطوب الزمان ، وأثبتَ أمام المحن حين لايقوى على دفعها .. فهو يصبر في البأساء والضراء ، وهو يتجلد حين البأس ، وهو يرفع رأسه عزيزا يأبى الذل ، ويرفض المهانة إن سِيم خِطة خَسْف لأن إيمانه .. يقول له .. « .. ماقُدِّر يكون .. » ولأن إيمانه يقول له : لو اجتمعت الإنس والجن على أن يضروك بشيْءٍ فلن يبلغوا ماأرادوا .. مالم يُرد ربّك ذلك ..

ولو أرادت الإنس والجن أن ينفعوك بشيْءٍ فإنهم لم يحققوا لك إلا ماكتبه الله عليك أو لك ، فهؤلاء الذين أرادوا نفعا قَدَّره الله ، أو أرادوا ضُرا كتبه الله ، هؤلاء ماهم إلا أسباب ووسائل .

هذا الإيمان هو نداء الفطرة السليمة .. وهو الذي جاءت به الأديان السماوية ، وهو الأساس الذي قام عليه بناء الإسلام ..

ماقيمة الإنسان بدون الإيمان :

من تخلى عن هذا الإيمان هبط بإنسانيته إلى حضيض البهائم والسوائم وسائر مايدبّ على الأرض من حشرات وهوامّ .. لأن الإنسان الذي يطمس في قلبه نور الله يعطل في نفسه جوانبها الروحية .. وينطلق وراء حاجاته المادية ، ويسعى لإشباع غرائزه البهيمية وحدها .. الإنسان الذي يفعل ذلك .. هو غير جدير بالانتساب إلى الإنسانية .. فليس له من سبب يربطُه بالإنسانية إلا جمالُ الخِلْقة واعتدالُ القوام ، والقدرة على التفكير العقلي فيما تُبصره عينُه ، أو تلمسُه يدُه ، أو يتناوله ذوقُه أو شمُّه .

وهل خُلق الإنسان كذلك فحسب ؟

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاها * فألْهَمها فُجُورها وتَقْواها * قَد أَفْلَح مَن زكَّاها * وقَد خَاب مَنْ دَسَّاها .. ﴾[1] .

الفطرة تنادينا :

فقد خُلق الإنسان مستعدا لقبول الحق ، مُهيَّأً للاستقامة على منهج الخير ، ومعَدًّا للتحليق في آفاق الروحيةِ الصافية ليعدَّ نفسه للحياة الباقية بعد الفانية .. كما رُكِّبت فيه الغرائزُ والشهواتُ امتحانا وابتلاء .. فإذا شدَّتْه غرائزه إلى عالمه الطينيِّ ودنياه الأرضية فقد انحرف عن فطرته ، وطمس قُوى الخير في أصل جِبِلَّته ، وهو بذلك يَخيبُ ويَشقىٰ .. لأنه يقول كما قال الضالّون الهالكون : ﴿ .. ماهى إلا حَيَاتُنا الدُّنْيا نَموتُ ونَحْيا وما يُهْلِكُنا إلّا الدَّهرُ .. ﴾[2] .

---

(١) الشمس : ٧ : ١٠ .   (٢) الجاثية : ٢٤ .

وعلى هؤلاء وأشباههم .. يردُّ القرآنُ الكريم بالدليل الشافى الناصع القويِّ : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرون بالله وكنتُم أمواتاً فأحْياكُم ثُمّ يُمِيتُكم ثُمّ يُحْييكُم ثم إليه تُرْجَعُون .. ﴾[1] .

ويقول عز وجل : ﴿ وهُوَ الَّذِى أَحْياكُم ثُمَّ يُمِيتُكم ثُمّ يُحْييكُم إنَّ الإنْسانَ لَكَفُور .. ﴾[2] .

لقد رضينا بالإسلام دينا .. لأنه دينُ التوحيد .. التوحيدِ النقيِّ الخالص .. توحيدِ الربوبية ، وتوحيدِ الألوهية .. وبمقتضى ذلك التوحيدِ فنحن نُؤمن بأن للكون خالقا رازقا ، وهّابا ، عليما ، حكيما ، ونؤمن بأن العبادةَ لله وحده ، وأن الذلَّ للخالق وحده .. وبمقتضى هذا الإيمان تخضعُ نفوسُنا لكلّ ماأخبرنا به سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، وعلى ألسنة رسله عليهم السلام فنحن نؤمن بأن هناك حياةً باقيةً خالدةً نُعِدّ أنفسنا لها بصالح الأعمال ، ونهيِّئُ لأنفسنا زادا من التقوى والإخلاص والرجاء ، ينفعنا يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أَتَىٰ الله بقلب سليم .

احذروا الملاحدة :

لا تشغَلُنا عن هذه الحقائق العلويةِ ضلالاتُ المضللين ولا فتنة الملاحدة التى تهبُّ مُنْتنةً كريهة ، أو كقِطَع الليل المظلم على النفوس المظلمة فتزيدها ظلاما ونتنا .. لإيماننا بأن مسئولية الفرد عن نفسه هي محورُ نجاته أو هلاكه .. ولهذا أرشد الله نبيه بأن لايشغل فكره بهؤلاء الذين لا يرون إلا الحياة الدنيا ، وصار مبلغُ علمهم ماتقع عليه حواسُّهم فضلُّوا وأرادوا أن يُضِلّوا .. يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ فأعْرِضْ عَمّنْ تولّىٰ

---

(١) البقرة : ٢٨ .

(٢) الحج : ٦٦ .

عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إلَّا الحياةَ الدُّنيا * ذَلِكَ مَبْلَغُهم مِّنَ العِلْم إنَّ ربَّك هُو أعلَمُ بِمَنْ ضَلّ عن سَبيِله وهُو أعلمُ بمَن اهتَدىٰ .. ﴾ [1].

أعمت الضالين الدنيا ، وخدعتهم زينتُها عن الحق الخالد فضلوا سواء السبيل .. وفيهم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ .. زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفُروا الحياةُ الدُّنيا ، وَيسْخَرون مِنَ الَّذِينَ آمنُوا والَّذين اتَّقَوا فوْقَهُم يَوْمَ القيامة ، واللّهُ يرزُق من يَشَاءُ بِغَيرِ حِسَاب .. ﴾[2] .

ثم قد يقول قائل .. إذا كان الملاحدة قد باءوا بغضب الله .. فمالنا نرى لهم التسلط المادي على البر والبحر ، ومالنا نرى لهم التفوق في مضمار الحياة العقلية والمادية ؟

وهذا من حكمة الله ، ونزولا على مقتضى إرادته .. فالدنيا ميدان عمل .. ومجال العقل فيها مُتَّسَع أمام الجميع .. ولا يعنى ذلك الخروج على نواميس الكون وقوانينه ، وبذلك يبصرنا كتاب الله عز وجل : ﴿ .. مَنْ كان يُرِيدُ الحياةَ الدُّنيا وَزِينتَها نُوَفِّ إليهم أعمالَهُم فِيها وهُم فِيها لا يُبْخَسُون * أُولٰئِكَ الَّذِين لَيْسَ لَهُمْ في الآخرةِ إلَّا النارُ وحَبِطَ ماصَنَعُوا فِيها وباطِلٌ مَّا كانُوا يَعْمَلون .. ﴾[3] ويقول : ﴿ .. مَنْ كَان يُرِيد حَرْثَ الآخرةِ نَزِدْ لَه في حَرْثِه وَمَنْ كان يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِه مِنْها وَمَالَهُ في الآخرةِ من نَّصِيب .. ﴾[4] .

وهذه الآياتُ تبصِّر من العمى ، وتنادى أهل العقل والحكمة والسداد ألا يَقْصِروا همَّهم على الدنيا وحدها ، بل عليهم أن يُقبلوا على العمل

(١) النجم : ٢٩ ، ٣٠ .
(٢) البقرة : ٢١٢ .
(٣) هود : ١٥ ، ١٦ .
(٤) الشورى : ٢٠ .

للآخرة ، لأنها الدارُ الباقية ، وألا ينسَوْا مع ذلك حظّهم من الدنيا ، يَسْعَون لعمارتها ويسيرون بخطى ثابتة نحو التقدم المادىِّ الذى يساعدهم على ترقية حياتهم ، وإرهابِ أعداء الحق ، فالدنيا طريقُنا إلى الآخرة ، والعاقلُ من عمل للحياتين ، وأحْسَن النية والقصد والتوجّه ليكون سعيُه للدنيا من أعمال آخرته أيضاً ، وهذا من فضل الله ورحمته .

والله عز وجل يقول : ﴿ مَنْ كانَ يُريدُ ثَوابَ الدنيا فعندَ الله ثوابُ الدُّنْيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيرا ﴾ (١) ويقول سبحانه : ﴿ وابْتغ فيما آتاكَ اللّهُ الدارَ الآخرةَ ولا تَنْسَ نَصيبَك منَ الدُّنيا وأحْسِنْ كما أحْسَنَ الله إليك ﴾ (٢) .

---

(١) النساء : ١٣٤ . (٢) القصص : ٧٧ .

رضينا بالإسلام دينًا .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيما فاتَّبِعُوه ، ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيله ، ذَٰلكُم وَصَّاكُم بِهِ لعلَّكُم تَتَّقون ﴾[1] .

ويقول عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبلَ مِنْه ، وَهُو في الآخِرةِ مِنَ الخَاسِرين ﴾[2] .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وجْهَهُ للّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ، واتَّبَعَ مِلَّةَ إبْراهيمَ حَنِيفاً واتَّخَذَ الله إبراهيمَ خَليلا ﴾[3] .

في معنى الإسلام :

الإسلام هو أن تبرأ إلى الله من علمك ، وحوْلك ، وموروثاتك ، وما علمتَ ، وما تخيلتَ ، وما أمّلتَ .. مُسلِما وجهَك إلى الله وحده ، مُجرِّدا روحَك له ، تاركا العادات ومآخذها ومبادىء البشر وتخالُفها ، وتناقُضَها ، وأفكارَ الأمم وتنابُذَها ، وأهواءك ، والوجودَ ومافيه ، ثم تتوجه : بقلب خاشع وضمير صافٍ ، ونفسٍ نقية إلى قيوم السمٰوات والأرض فارا إليه ، وملتجئا

---

(١) الأنعام : ١٥٣ . (٢) آل عمران : ٨٥ . (٣) النساء : ١٢٥ .

إلى جنابه ، ومعتصما بحبله من التلوثات البشرية ، وراغبا إليه وحده أن يوفقك ، ويهديك لما يحبه ، ويرضاه ، من أمور الدنيا والآخرة .. هذا هو معنى الإسلام الذي قال الله تعالى عنه ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن .. ﴾

هذا هو الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياءِ والمرسلين ، هذا هو الإسلام الذي أرسل الله به خاتم أنبيائه ، محمدَ بنَ عبدِ الله ﷺ .

وهو دين الفطرة ، لأن الله عز وجل لا يكلف عباده إلا بما ينطبق على طبيعتهم ، ويناسب حالَ جِبلَّتهم ﴿ .. لا يُكلِّفُ اللّهُ نَفْساً إلّا وُسْعَها .. ﴾ (١) .

هو دينُ الفطرةِ الذي أرسل الله به رسلَه من قبل : ﴿ .. شَرَعَ لكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ماوَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِىٓ أَوحَينَا إِلَيكَ وَمَا وَصَّينَا بِهِ إِبْرٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَن أَقِيمُوا ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشرِكِينَ مَاتَدعُوهُم إِلَيهِ ٱللَّهُ يَجتَبِى إِلَيهِ مَن يَشَآءُ وَيَهدِىٓ إِلَيهِ مَن يُنِيبُ ﴾(٢) .

هو دينُ الفطرة الذي نادى به محمد ﷺ في الناس قائلا عن ربه : ﴿ .. يأيها النَّاسُ قَدْ جاءكم بُرهَانٌ مِّن رَّبِّكم ، وأَنْزلنَا إليكُم نوراً مُّبينا * فأمّا الّذين آمنُوا بالله ، واعتصَمُوا به ، فسَيُدْخِلُهم في رحمةٍ مِّنْه وفضْلٍ ويَهْدِيهم إليه صِرَاطاً مُّسْتقيما .. ﴾(٣) .

نادى محمد ﷺ في الناس .. فدخل الناس في الإسلام أفواجاً لأنهم : كانوا قد سئموا الخيالات المضلة التي فرقتهم أحزابا ، وسئموا الأفكار البشرية التي مزَّقتهم شيعا .

---

(١) البقرة : ٢٨٦ .   (٢) الشورى : ١٣ .   (٣) النساء : ١٧٤ ، ١٧٥ .

الإسلام دين ينطبق على طبيعة البشر :

نادى محمد ﷺ في الناس ، داعيا إلى الله ، والناسُ في لهف شديد ، إلى نور جديد .. يبدِّد ظلماتِ المعتقدات الباطلة ، والأفكارِ المضلة ، والنظمِ الأرضية الجائرة ، فدخل الناس في دين الله أفواجا .. ولم يرتضوا غير الإسلام دينا ، لخلوّه من الخيالات ، وارتكازه على الدليل والبرهان ورفضه الوساطة بين الله وعباده ، فليس لمخلوق حقُّ الوساطة بين الخلق والخالق .

دخل الناس في دين الله أفواجا ، وارتضَوا الإسلام دينا هاربين من الأوهام ، متحررين من الأفكار البشرية التي هي داعيةُ الخلاف ، مثيرة التنابذ والأحقاد .

أما الإسلام فهو دين الفطرة .. والفطرةُ واحدةٌ في عموم النوع الإنساني ، فلا يُعْقَل نزاعٌ بالاستقامة عليها ، ولا يُتَصَور شقاق بالانصياع لمقتضياتها ولنتدبر : ﴿ إنّ الدّينَ عِنْدَ اللّهِ الإسلامُ ، وماختلفَ الَّذِين أُوتُوا الكتابَ إلا مِنْ بَعْدِ ما جَاءَهُم العِلْمُ بَغْياً بينَهُم ، ومَن يكْفُر بآياتِ الله فإنَّ الله سَريعُ الحساب * فإنْ حاجُّوك فَقُلْ أسلمتُ وَجْهِيَ لله ومن اتَّبعَنِ وَقُلْ للّذِين أُوتوا الكتابَ والأمِّيينَ أأسلمْتُم فإنْ أَسْلَموا فَقَدِ اهتَدَوْا ، وإن تولَّوْا ، فإنّما عليْكَ البلاغُ واللّهُ بصيرٌ بالعِباد .. ﴾(١) .

الإسلام يهدينا إلى الحق الخالد :

دخل الناس في دين الله أفواجا ، وارتضوا الإسلام دينا : لأنه صراط الله المستقيم : صراط مستقيم في العقيدة : أرشدهم بالدليل إلى وجود الله

---

(١) آل عمران : ١٩ ، ٢٠ .

الخالق .. ثم التفت إلى الملحدين والمنكرين ، ونعى عليهم ضلالهم .. مقدما الدليل والحجة القاطعة على فساد تفكيرهم : ﴿ .. أم خُلِقوا من غيرِ شيْء أم هُم الخَالقون .. ﴾(١) .

وأرشدهم إلى وحدانية الله ، فهو سبحانه الخالق ولا يعبد سواه ، ثم التفت إلى أولئك الذين استعبدوا أنفسهم للأهواء ، وخضعوا لسلطان الأوهام ، وحصروا عقولَهم في مضايق الباطل ، فنعى عليهم تعلّقَهُم بمعبودات لا تنفع ولا تضر قائلا : ﴿ .. إنْ هِيَ إلا أسماءٌ سَمَّيتُموها أنتم وآباؤُكم مّاأنزلَ الله بها من سُلْطان ، إنْ يَتّبِعُونَ إلا الظنَّ ، وما تَهْوى الأنفسُ ولقد جَاءَهُم مّن رَّبِّهم الهُدَى .. ﴾(٢) .

ثم أين الدليل أيها المشركون على ماحملتموه عقولكم من هذه المعتقدات الفاسدة ، ولنتدبر : ﴿ .. ائتُونى بكتاب مِّن قَبْلِ هَذَا أو أَثَارَةٍ مِّن علْم إن كُنتم صَادِقين .. ﴾(٣) ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكم إنْ كُنْتُم صَادِقين .. ﴾(٤) .

ثم سجّل على هؤلاء الضالين أنهم أسرى الوهم ، وعبدةُ الظن فقال : ﴿ .. وَمَالَهُم بِه منْ عِلِمٍ إن يَتّبِعُون إلا الظنَّ وإنَّ الظنَّ لا يُغْنِى مِنَ الحقِّ شَــيئا .. ﴾(٥) .

ثم بين لهم الفرقَ بين المعتقد بالدليل والبرهان ، وبين المستسلم لأوهام الخيال ، الخاضع للسراب الكاذب فقال : ﴿ .. أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بيِّنةٍ مِّن ربِّه كَمن زُيِّن لَهُ سُوءُ عَمَلِه ، واتّبعوا أهواءَهم .. ﴾(٦) .

---

(١) الطور : ٣٥ .　(٢) النجم : ٢٣ .　(٣) الأحقاف : ٤ .
(٤) البقرة : ١١١ .　(٥) النجم : ٢٨ .　(٦) محمد : ١٤ .

أما الذين هداهم الله إلى الحق ، فأقبلوا على النور الباهر ، ونفضُوا عن نفوسهم غبار الذلِّ لغير الخالق ، ففيهم يقول : ﴿ .. وَمَن يُسْلم وجْهَه إلى الله وهو مُحْسِنٌ فقد اسْتَمْسَكَ بالعُرْوةِ الوُثْقَى وإلى الله عاقبة الأمور .. ﴾[1] ويقول : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنَ أَسْلَم وجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبع مِلَّة إبراهيمَ حنيفاً واتَّخذَ الله إبراهيمَ خليلا .. ﴾[2].

رضينا بالإسلام دينا ، لأنه دينُ الفطرة ، دينُ العقيدة الصحيحة ، دينٌ مستقيم في العقيدة ، ومستقيمٌ في الأخلاق ، ومستقيم في المعاملات ، ومستقيم في الأحكام : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَك للدِّين حنيفاً فِطْرَةَ اللّهِ التي فَطَر النَّاسَ عليها .. ﴾[3].

* * *

---

(١) لقمان : ٢٢ .　　(٢) النساء : ١٢٥ .　　(٣) الروم : ٣٠ .

١٣ إلى البرهان ياأولى الألباب

خامسًا : خاتمة

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾

آل عمران : ٢

٣٠- عقيدة التوحيد والتنزيه وأثرهما في حياة الفرد والجماعة .

٣١ - تذييل بعد الخاتمة :
الحضارة التى أقامها أهل القرآن :
الثراء الفكري والنمو العلمي ودقة البحث فى ظلال الحضارة الإسلامية
وواجب المسلمين فى عصرنا .

عقيدة التوحيد والتنزيه وأثرهما في حياة الفرد والجماعة .

حقيقة الإسلام :

قال الله تعالى لنبيه وخاتم رسله ﷺ من سورة الأنبياء : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنا مِن قَبلِكَ مِن رَّسولٍ إلّا نُوحِي إليْهِ أنّه لا إلٰهَ إلّا أَنا فاعْبدونِ ﴾[1] .

وفي هذه الآية بيان لحقيقة الإسلام أي الدين الحق الذي أرسل الله الرسل لدعوة عباده إليه ، وبيان حقيقته لهم ، ويعني التسليم لأمر الله ، وإظهار الخضوع التام لما جاء به الدين ، والقبول لأحكامه ، والإيمان بكل ماأخبر به الوحي عن عالم الغيب ، وإخضاع كل رغبة ، وكل ميل للعبد ، وكل فكرة لمقتضيات هذه العقيدة ، واستسلامِ الجوارح والاتجاه للحدود التي يضعها الله لعباده ، فينزجر المؤمن بحق عما عنه زجر ، وتبرز الآثار العملية لأوامر الله في مسلكه ، وفي منطقه ، وفي عبادته ، وفي عامة حياته وخاصتها .

هذا هو الدين الذي من أجله خلق الله الإنسَ والجن ، وهو نفسُه الرحمة الإلٰهية بالعباد لأنهم بدونه يَشْقَوْن غاية الشقاء ، وإنْ وَهِمَ غيرُ المؤمنين إيمانا صحيحا أنهم على طرف من السعادة ، لأن مقياس السعادة الحقيقي هو المعنى قبل المبنى ، والجوهر قبل العَرَض ، وشعور النفس

---

(١) آية : ٢٥ .

بالرضى لا الجرى وراء حاجات الجسم ، وكان كل نبي يُرسل رحمة لمن يُرسل إليهم ، كما قال تعالى من سورة مريم في شأن عيسىٰ ابن مريم عليهما السلام : ﴿ قالَ كَذٰلِكَ قالَ ربُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ولنجْعَلَه آيةً للناسِ ورحمةً مِّنا وكان أمراً مَّقْضيّا ﴾(١) .

فهم رحمة من الله عز وجل بالرسالة والدعوة إلى التوحيد والتنزيه فبهما تتحقق السعادتان ، ويفوز المعتقد اعتقادا صحيحا من أهل الصلاحِ والإصلاح بالحسنيين في الدنيا والآخرة .

ولما كانت رسالة محمد خاتم الأنبياء ﷺ عامة كانت الرحمة بها للناس كافة إلى يوم القيامة ، ولنتدبر قوله تعالى من سورة الأنبياء : ﴿ ومَا أَرْسَلْناكَ إلّا رحمةً للعَالَمين * قُلْ إنَّما يُوحَىٰ إليَّ أنما إلٰهُكُم إلٰهٌ واحدٌ فهلْ أنتُم مُّسْلِمون ﴾(٢) . فالرحمة الربانية التي بها الطمأنينة ونور القلب في الدنيا ، وبها يتحقق الفوز والنجاة في يوم يشتد كربه ، ويعظم هَوْله إنما تكون بكلمة « لا إلٰه إلا الله » عقدا ، ونطقا ، وعملا .

الاعتقاد الصحيح فياض بالخير دائما : كانت عقيدة التوحيد كالشجرة الطيبة ، أصلها ثابت لاتميل مع الريح حيث مالت ، ولا يلعب بها الهواء مهما اشتد ، وفرعها في السماء لأنها موصولة بالملأ الأعلى لذا فهي تُظِلُّ الناسَ بالخير ، وتجود عليهم بكل بر ، وعلينا أن نطيل التأمل في المعاني التي تضمنها قول الحق تبارك وتعالى من سورة إبراهيم : ﴿ أَلَمْ ترَ كيفَ ضَرَبَ الله مثلًا كلمةً طيبةً كشجرة طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وَفَرْعُها في السَّماءِ * تُؤْتي أُكُلَهَا كلَّ حين بإذنِ رَبِّها ويضرِبُ الله الأمْثالَ للناس لعلهم

---

(١) آية ٢١ .

(٢) الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .

يَتَذَكَّرُون ﴾[1] .

إنها كلمة التوحيد وآثاره في نفس المؤمن إذ تبعث فيه الحياةَ اللائقةَ بمن اختاره الله لعمارة أرضه ، وتُنعِشُ في فؤاده كلَّ نوازع الخير ، لهذا كان أهل الإيمان الصحيح هم مصدر الخير في كل حين ، وهم المؤيدون بنصر الله وتأييده في الدنيا ، والمشمولون برحمته في الآخرة : ﴿ يُثَبِّتُ اللّهُ الذينَ آمنُوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة ﴾[2] .

والتوحيد : معناه الإيمان بأن الله هو المنفرد بالألوهية لجميع الخلائق ، وأن الجميع عبيده ، وخلقه ، وفقراء إليه ، وأنه سبحانه الغني عمَّن سواه ، وكل ماسواه في احتياج إليه ، وأنه المعبود بحق ، ولا معبود بحق سواه .

والتنزيه : هو تقديس الله عز وجل فهو المتصف بكل كمال ، والمَنزَّه عن كل نقص ، لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، ليس كمثله شيْء ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وكل ماخطر ببالك فهو بخلاف ذلك ، سبحانه وتعالى جل شأنه ، وعظم سلطانه لامثيل له ، ولا شبيه بل هو سبحانه كما وصف نفسه في كتابه وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿ شَهِد الله أَنَّه لا إلٰهَ إلا هُوَ والملائكةُ وأولُوا العلمِ قائِماً بالقسطِ لا إلٰهَ إلا هُوَ العزيزُ الحَكيم ﴾[3] .

وقال جل شأنه ﴿ اللّهُ لا إلٰهَ إلا هو الحيُّ القيُّومُ لا تأخذُه سِنَةٌ ولا نومٌ ﴾[4] .

---

(١) الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) إبراهيم : ٢٧ .
(٣) آل عمران : ١٨ .
(٤) البقرة : ٢٥٥ .

وقد أمرنا بتنزيهه عن كل سوء فقال عز وجل : ﴿ سبِّح اسمَ ربِّك الأعلىٰ ﴾ (١) ﴿ فسبِّح باسم ربِّك العظيم ﴾ (٢) وعقيدة التوحيد الخالص والتنزيه الكامل أساس كل سمو وعزة ، وأصل كل رقي في المدارج السليمة الصحيحة للكمال الإنساني بناحيتيه الجسدية والروحية ، وهي مفتاح الرقي في حياة المسلمين .

أثر عقيدة الإسلام في حياة العرب :

والمتأمل في حياة العرب قبل الإسلام ، وبعده تتجلى له بوضوح هذه الحقيقة ، ويلمس أثر العقيدة النقية في حياة الفرد وفي حياة الجماعة .. فإن أحدا لاينكر أن العرب كانوا في جاهليتهم على حال من الخلل الاجتماعي والخلقى لم يمكنهم من الصعود في مراقى العمران والحضارة درجة واحدة ... وإن أحداً لاينكر أن العرب أصبحوا فجأة بواسطة الروح التي بعث الله بها رسوله محمداً ﷺ أصبحوا أمة دانت لها الأمم ، وآلت إليها خلافة الأرض قرونا طويلة كانت أمة العرب في خلالها حاملة لواء العدل والحرية والإخاء والمساواة ، وكانت لها في خلالها السيادة في العلم والخُلق والحضارة .

وإذا تقرر هذا فلا مناص من التسليم بأن هذا الرقى الفجائى إنما تحقق لأمة العرب بواسطة الروح العالية الكاملة التى جاءهم بها الإسلام .. ولما كان التوحيد والتنزيه هما أكبر ماجاء به محمد ﷺ لتقريره للبشر .. فلا شك في أنهما العنصران الفاعلان في رسالة الإسلام من بين سائر عناصره ومبادئه الأخرى التى هى بمثابة الآثار العملية التي تدل على

---

(١) الأعلى : ١ . (٢) الواقعة : ٩٦ .

الإيمان ، وعلى سلامة العقيدة ، ونقائها وقوة أثرها في حياة المؤمنين الصادقين .

للإيمان الصادق آثاره العملية :

فالإيمان ليس دعوى يدعيها المرء دون أن تظهر آثارها العملية ، وإنما المؤمن الصادق الإيمان هو الذى يجد حلاوة الإيمان تخالط صميم فؤاده ، وتنفذ إلى أعماق نفسه ، ويعقد على التوحيد الخالص والتنزيه الكامل قلبه ، ويُوقف عليهما عقله ولبه ، حتى تسرى أنوارهما في أعماق وجدانه ونفسه وسرائره .. ثم تأتى أقواله وأعماله مطابقة لما تقتضيه تلك العقيدة الكريمة ، ولنتدبر قول الحق تبارك وتعالى من سورة الأنفال :

﴿ إنَّما المؤمنُونَ الّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجلَتْ قلوبُهُمْ ، وإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِم آيَاتُه زَادَتْهُمْ إيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقنَاهُم يُنْفِقُونَ * أولٰئك هُمُ الْمُؤمِنُونَ حقّاً ﴾(١) . ويقول الحق تبارك وتعالى من سورة التوبة ﴿ والْمُؤمِنُونَ والمُؤمِناتُ بَعْضُهم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يأمُرونَ بالمَعْروفِ وَيَنْهَونَ عن الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاة ويُؤتُونَ الزَّكَاةَ ويُطيعونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولئك سيرحمُهمُ اللّهُ إنّ اللّهَ عزيزٌ حكيم ﴾(٢) .

ويقول سبحانه وتعالى من سورة الأنفال : ﴿ والذِينَ آمنُوا وهَاجَروا وجَاهَدوا في سبيلِ اللّهِ والذِين آوَوْا ونَصَرُوا أولٰئك هُمُ المُؤمِنونَ حقّاً ﴾(٣) .

فالإيمان الذي يطالب به الإسلام هو الإيمان القوى الصادق .. الإيمان الذي تترتب عليه آثاره من عبادة وطاعة واستقامة على طريق الخير

---

(١) ٢ : ٤ .　　(٢) ٧١ .　　(٣) ٧٤ .

والصلاح ، الاستقامة على منهج الخلق الكريم والفضيلة ، وتظهر آثاره في التوكل الصادق على الله عز وجل والتعاون على البر وفعل الخير والتقوى .. وفي الجهاد الصادق في سبيل الله ، والحب والإيثار ونصرة الحق .. حبّ المؤمن أخاه المؤمن ومؤازرته والوقوف بجانبه وقت الحاجة والدفاع عنه إن أصابه ظلم أو حَيْف .

تِلْكُم بعض الآثار العملية للإيمان الذي يجد صاحبُه حلاوتَه في أعماق فؤاده .

من صفات المؤمن الصادق :

إن المؤمن على هذا النحو يجد في نفسه سموّا عن الدنايا ، وترفُّعا عن سفاسف الأمور ... وتزكو روحه ، ويتطهر قلبه .. ويصعد في مراتب الكمال الإنساني درجات ودرجات تعجز عن تحقيقها للناس فلسفات البشر .

الرقيب الداخلي يهيمن على مسالك الفرد :

وهل قَويت أو تقوىٰ فلسفاتُ البشر على أن توقظ في داخل الإنسان رقيبا من الإيمان القوى والخشية من الله .. وهذا الرقيب الداخلى تكون سلطته على نفس صاحبه أقوى من سلطة القانون ؟ هل تقوى فلسفات البشر على تحقيق ذلك ؟

لقد رسم فلاسفة اليونان القدامى مُدنا مثالية ووضعوا مبادىء للأخلاق وللفضيلة على حسب تصورهم للفضيلة والرذيلة .. ولكن هؤلاء الفلاسفة عجزوا عن أن يُخْرِجُوا هذه المبادىء وتلك الصور المثالية للمدن التي تخيلوها ، عجزوا عن أن يُخرجوها من بطون الكتب إلى واقع الناس ،

وظلت أفكارهم ومبادئُهم سطوراً على الورق تُدرس ، وتقرأ ولم يكن لها أي أثر في حياة الناس قديما أو حديثاً .

أما الإسلام فإنه بفضل عقيدته القوية الصالحة قد استطاع أن يغير جوهر الإنسان ولُبابَه فتبدل الإنسان بعد إيمانه شيئا آخر فنفع نفسه ، ونفع أمته ، ونفع الناس أجمعين في وقت وجيز من ظهور الإسلام . ﴿ وَيَأْبَىٰ اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَه ﴾[1] .

تفسير لسرعة تطور العرب :

يقول باحث فاضل : وبهذا ــ أي بفضل العقيدة الصحيحة ــ يستطيع الباحث أن يفسر سرعة تطور العرب من الجاهلية الجهلاء إلى المدنية الأدبية العلياء ، في أقل من ربع قرن ، وهي مدة لو كانوا قلبوا البيوت فيها مدارس وأتوا للعرب بكبار فلاسفة الرومان واليونان والفرس ، فما كانوا يستطيعون أن يُبطلوا ماكانوا مغرمين به من شرب الخمر وهو أقل مصائبهم خطراً ، فما بالك بتلك القوة التي كرَّهتهم (بدون مدارس أو فلاسفة) في الخمر والميسر وطلب الثأر ، وحب الانتقام ، والغارات ، والانقسامات والتفاخر بالآباء ، وعدم المساواة ، وهضمهم حقوقَ النساء ودفن البنات الأحياء .. إلى غير ذلك من المصائب الاجتماعية ، والمساوىء الأخلاقية .

ونحن إذا أضفنا إلى ذلك ماتلاه من رقيّ العرب السريع ، وقيامهم بخلافة الأرض قياما أدهش العلماء ، وحير الفلاسفة وحينئذ كان العرب أقل من الأمم المحيطة بهم عددا لأدركنا من ذلك كله أن سرّ عظمة هذه الأمة وسرَّ نهوضها بأمانة تحضير العالم ، وإنقاذه من الذل والجهل والانحطاط

---

(١) التوبة : ٣٢ .

والتأخر وإخراجه إلى نور الحياة الحرة الكريمة بما فيها من عدل ومؤاخاة ومساواة ورفق وبر وهدى وعلم .. لأدركنا أن سر ذلك يرجع إلى تلك العقيدة النقية الصافية التي جاءهم بها الإسلام .

المؤمن الصادق لا يلعب به الهوى :

إن صاحب العقيدة النقية الخالصة تنبعث منه الفضائل انبعاثا ، وينفر من الرذائل ، بطبعه وبوحْي من إيمانه لايتكلّف ولا يتصنّع لأنه يراقب قيُّومَ السموات والأرض ، وعالِمَ السرِّ والنَّجْوىٰ ، وهؤلاء هم أصحاب النفوس المطمئنة التى وثقت بما عند الله ، وخضعت لمقتضى أمره ونهيه فلم يعد لهوى النفس سلطان عليها لأنهم رضوا بالإسلام دينا فرضى الله عنهم ، وتولى ظاهرهم وباطنهم ..

فاللهم اجعلنا منهم بمنِّك وفضلك ياأرحمَ الراحمين .

* * *

تذييل بعد الخاتمة :
الحضارة التى أقامها أهل القرآن :
الثراء الفكريّ والنموّ العلميّ ودقة البحث فى ظلال الحضارة الإسلامية وواجب المسلمين فى عصرنا .

الإسلام أعظمُ موجِّه للطاقات الفكرية :

عُنى الإسلام عناية كبيرة بالعلم وأهله ، وفي إطار هذه العناية حرص المسلمون على طلب العلم وتحصيله والاتصال بمصادره قدْرَ الجُهد والطاقة ، وحَظِى الفكر في ظلال دولة الإسلام بثراءٍ ونماءٍ وازدهار مِمّا لم يحظَ به في عصر من العصور ، ووجد طلاب العلم وعلماؤه وجميعُ الفئات المشتغلة به غاية الدعم والرعاية من الخلفاء والأمراء وذوى الشأن في الدولة الإسلامية الناهضة ، فكثر لذلك النسَّاخُ والورَّاقون كما كثرت مجالس العلم ، وانتشرت في جوانب بلاد المسلمين ، وعمرت المساجد في الحواضر الإسلامية بحلقات العلم ، ولم يقتصر الأمر على مكة والمدينة وبغداد ودمشق بل تلألأت المراكز العلمية والأدبية في القاهرة وفاس والبصرة والكوفة وتونس وقرطبة وإشبيلية ومَرْو وغيرها ، وأَنَّي توجَّه طالب العلم شرقي البلدان الإسلامية أو غربيها سيجد المدارس والجامعات والمساجد التي تتلقاه ليدرس مايرغب فيه من العلوم الكونية أو الدينية وما يتعلق بها من علوم اللغة والبلاغة أما الأدب فكان له دولةٌ عاليةُ البنيانِ عظيمةُ الرجحان .

* مقال للمؤلف نشر في مجلة التوعية الإسلامية العدد الحادي عشر لعام ١٤٠٦ من الهجرة .

كان العلم والعلماء زينةَ دولة الإسلام الكبرى :

وفي هذه العهود الزاهرة من تاريخ المسلمين كانت المدن الإسلامية تزدان بألوف من طلاب العلم وعشراتٍ من العلماء في التوحيد والتفسير والحديث ورجاله والفقه وأصوله وفي التاريخ والسيرة وفي الطبّ والكيمياء والزراعة والفيزياء إلى جانب الفلسفة والمنطق والرياضيات ، وما يتصل بمعظم هذه العلوم من فروع منها علومٌ ابتكرها المسلمون ولم يكن للدنيا عهدٌ بها من قبل وذلك بدافع من الحِرْص على فهم معاني القرآن وتفهيمها وماتَضَمّنَه من أحكام وشرائع وعقائد ، ولذا ظهرت لأول مرة في تاريخ البشر علوم جديدة مثل : تفسير القرآن الكريم وما يتصل بالتفسير من كتب متخصصة في بيان أسباب النزول أو بيان الناسخ والمنسوخ ثم طبقات المفسرين وعلوم القرآن وأحكام القرآن وغير ذلك من الفروع كالكتب التي تبين معاني كلمات القرآن .

علوم ظهرت بفضل المسلمين وعلوم نمتْ وتأصّلت :

وكيف يكون للناس قبل الإسلام علوم مثل العلوم المتعلّقة بالحديث النبوي والسنّة المطهّرة فقد اجتهد العلماء في جمعها لأنها تخدُم القرآن وتوضح أحكامه وتفصِّل شرائعه ومجملاته ، ثم انْبَروا إلى تمييز الصحيح من الحسن من الضعيف من الموضوع ، وظهر علمُ رجال الحديثِ وما امتاز به من دقَّة في التناول وتمحيص انتقل أثرها إلى علم التاريخ فحَظِي لأول مرة بنقد الروايات التاريخية وتمحيص الأحداث ، وصار التاريخ على أيدى المسلمين عِلْماً له أصول وقواعد وحركة لها فلسفة ترتبط بالمجتمع لا مجرد سرد أحداث تَجْمَع بين الحقيقة والخيال ، كما كان يحدث قبل ظهور الإسلام .

ثم إن ظهور علوم كالتجويد والقراءات واللغة كالصرف والنحو والبلاغة على النحو الذي ظهرت به بعد الإسلام ومازالت عليه كان ثمرةً لعناية المسلمين بالقرآن الكريم وبيان وجوه الإعجاز فيه والمعاونة على ضبط النطق به وفهْم معانيه ، ولم تحظَ علوم اللغة بثراء مثل الثراء الذي حظيت به في دولة المسلمين لارتباطها بكتاب ربهم الذي كان في نفوسهم أعزَّ من روح الإنسان على نفسه .

وكان للمسلمين أوائل في فروع كثيرة متَّصلة بالطبِّ والفيزياء والكيمياء والفلسفة وغيرها من العلوم التي عرفها الناس قبل الإسلام أما صورتها التي نقلها الأوربيون عن المسلمين ، وطوّروا بها حياتهم فيما بعد فلم تكن هي التي تُرجمت عن اليونانية أو الفارسية أو غيرهما إذْ كان للمسلمين تعليقات وتمحيص وتمييز وتدقيق علمى أعطى العلوم الكونية وبعض العلوم العقلية النظرية طابعاً إسلاميا متفرِّداً ، بحيث صارت علوما متعلقة تماما بالعربية والمنهج العلمى الإسلامى .

فيض من العلماء :

إن سماء بلدان المسلمين أظلت مفكرين وباحثين وأطباء وزراعيين وفلكيين ومترجمين ونُسَّاخاً وتجار كتب لم تشهد حواضر العالم القديم أمثالهم في عددهم أو إخلاصهم للحقيقة وبحثهم عنها ، أو فيما أثمرته قرائحُهم هذا إلى جانب علماء التوحيد والتفسير وفروعه والحديث ورجاله والسيرة والتاريخ والفقه وأصول الفقه وعلماء اللغة بفروعها والرجال الذين انْبَروا لوضع المعاجم اللغوية وغيرهم .

شعور الباحث نحو هذه الحضارة :

إن الإنسان وهو يكتب هذا أو يقرأ عنه يقول في نفسه في غاية

الإعجاب والتأثر : ماهذا الثراء ؟ ماهذا الفيض الغامر الذي ماجت به بلدان دولة الإسلام جمالا وبهاء ورونقا ووقاراً ؟ أمّا دولة الأدب في الشعر والنثر والخطابة والحكمة والمثل فإن الحديث عنها امتلأت به بطون ألوف الكتب تأْريخا وتذوُّقاً وشرحا وتحليلا وبياناً للفروق بين بيئة وبيئة ومرحلة ومرحلة إلى غير ذلك مما حفلت به كتب الأدب وتاريخ الأدب ورجال الأدب .

تراثنا خير شاهد :

إن مابين أيدينا من كتب التراث لخير شاهد ودليل على عظمة الأمة التى آمنت بالقرآن وعملت بأحكامه وتأدّبت بآدابه وأجابت أوامر ربها بالنظر في آيات الله الكونية والعناية باستخدام العقل وتنميته بالعلوم النافعة والتفقُّه في الدين .. إن الكتب التي بين أيدينا نتداولها ليست كلّ ماتركه آباؤنا وأجدادنا بل ضاع أضعافها في أتون الأحقاد التي دمّرت أشهى الثمرات بالجهل والغلظة والسفه على يد التتار أيام جاهليتهم حين هجموا على حضارة الإسلام بحمق وجهل ، وعلى يد متعصِّبي النصارى لحُمقهم وقصور نظرهم ، حيث كان الرهبان في مدن أسبانيا (الأندلس) يجمعون عشرات الألوف من المجلدات والمخطوطات ، ثم يُشعلون فيها النيران وسط مظاهر التنفيس عن الحقد على المسلمين بعد سقوط دولتهم هناك .

بحرٌ اغترفوا منه في الشرق والغرب :

وعلى الرغم من هذه الكوارث التي مُنيت بها العلوم العربية والإسلامية بقي منها بحْر عذبٌ ارتشف ويرتشف منه ملايين من طلاب المعرفة والباحثين في الشرق والغرب وكم من إجازات علمية نالت إعجاب أهل العلم نالها أصحابها على بحوثهم حول أو من كتب عربية أو علوم عربية أو عن

عالم عربي أو فقيه مسلم ، ومازالت العلوم الإسلامية والعربية نبعا فياضاً متجدداً في كل عصر وأوان وانظر إلى الجامعات التي تُعْنى بالعلوم والدراسات العربية والإسلامية وكذلك معاهد الاستشراق مع الشعور بالحاجة إلى طلب المزيد من الكليات والمعاهد والجامعات المتخصصة التي تتناول جوانب من هذا التراث العظيم الذي إن دَلّ على شيْء فإنما يدل على عظمة الإسلام وسمو ما جاء به للناس من عقائد وشرائع وأحكام تضمنت الخير للفرد والجماعة وللأمة وللإنسانية كلها .

ياأهل الحكمة والبصيرة :

تاريخنا سلسلة ذهبية فلا تقطعوها :

إن التاريخ الإسلامي سلسلة ذهبية مرتبطة الحلقات متصلة ممتدة بفضل الله وما خبا نورُ هذه الحضارة العلمية والفكرية في أي فترة من فترات التاريخ إلا وقَيَّضَ الله لها من أهل الإخلاص والعزم من ينهض بتبعات الإحياء على قدر مايُيَسِّرُ اللّهُ له من الجهد ولذا لم تخُل عصور الضعف التي مرت بالمسلمين من حركة فكرية ونهضة علمية خصوصا فيما يتصل بعلوم الشريعة .

والأمانة اليوم في أيدى وفي أعناق أمة مسلمة كثيرة العدد كثيرة المدارس والجامعات والمعاهد تطورت فيها وسائل النشر والاتصال وتفتحت العقول .

فهل ينهض الفكر في عصرنا الحاضر على قَدْر ما هُيِّئَ للمسلمين من إمكانات ووسائل ؟ وهل من خطَّة شاملة وعملية للعناية أكثر بكل مايخدم القرآن وعلومه وأحكامه ؟

* * *

« نهاية المقال »

قال الله تعالى :

ـ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلعِلمَ وَٱلإِيمٰنَ لَقَد لَبِثتُم فِي كِتٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَومِ ٱلبَعثِ فَهَذا يَومُ ٱلبَعثِ وَلَكِنَّكُم كُنتُم لَا تَعلَمُونَ ﴾ الروم : (٥٦) .

ـ ﴿ كَذٰلِكَ يَطبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَايَعلَمُونَ ﴾ الروم : (٥٩) .

ـ ﴿ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِّقَومٍ يَعلَمُونَ ﴾ النمل : (٥٢) .

ـ ﴿ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰتٍ لِّلعٰلِمِينَ ﴾ الروم : (٢٢) .

ـ ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَل أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمتَ رُشداً ﴾ الكهف : (٦٦) .

ـ ﴿ إِنَّمَا يَخشَى ٱللَّهَ مِن عِبَادِهِ ٱلعُلَمٰؤُاْ ﴾ فاطر : (٢٨) .

ـ ﴿ وَمَايَستَوِى ٱلأَعمَىٰ وَٱلبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلحَرُورُ * وَمَا يَستَوِى ٱلأَحيَاءُ وَلَا ٱلأَموَاتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَاأَنتَ بِمُسمِعٍ مَّن فِي ٱلقُبُورِ ﴾ فاطر : (١٩ ـ ٢٢) .

ـ ﴿ قُل هَل يَستَوِى ٱلَّذِينَ يَعلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلأَلبٰبِ ﴾ الزمر : (٩) .

ـ ﴿ فَلَولَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرقَةٍ مِّنهُم طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَومَهُم إِذَا رَجَعُواْ إِلَيهِم لَعَلَّهُم يَحذَرُونَ ﴾ التوبة : (١٢٢) .

* * *

كشاف الكتاب

الصفحة

* * *

تذكـــرة :

« حين أعددت (كتاب الشكر) للإمام الحافظ ابن أبي الدنيا ، تمنيت لو أن المؤلف قدم نفسه ليعين من يجيئون بعده ، فالكلمة بعد صدورها عن صاحبها تصير في حوزة التاريخ ، لهذا أقدم هذه الوجازة » :

١ ـــ مؤلف هذا الكتاب هو العبد الفقير إلى عفو الرحمن ورحمته : أحمد بن محمد إبراهيم طاحون ، المولود في عام ١٩٢٧ من الميلاد في « شما » من قرى مركز أشمون بإقليم المنوفية في مصر ، حرسها الله .

٢ ـــ مات أبوه وهو دون الثالثة ، وعُنيت به أمه الصالحة ـــ رحمهما الله وغفر لهما ـــ فبعثت به إلى « مكتب القرية » ليحفظ القرآن الكريم ، ثم إلى القاهرة ليتم حفظه هناك ، لأن حفظ القرآن كان شرطاً لدخول الأزهر .

٣ ـــ بعد أن حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية من معهد شبين الكوم الديني التحق بكلية اللغة العربية ، وحصل على الشهادة العالية عام ١٩٥٥ من الميلاد ، ثم على دبلوم في التربية من معهد التربية العالى للمعلمين بجامعة عين شمس عام ١٩٥٦ من الميلاد .

٤ ـــ الحياة العلمية :

○ اشتغل بتدريس اللغة العربية بالمرحلة الثانوية في إقليم الجيزة بمصر من عام ١٩٥٦ إلى ١٩٦٥ من الميلاد ، ثم بمدارس الصومال ثلاث سنوات دراسية ، عاد بعدها إلى المدرسة السعيدية بالجيزة .

○ وفي عام ١٣٩١ من الهجرة (١٩٧١ من الميلاد) تعاقد مع وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية ، واشتغل بتدريس اللغة العربية في مدرسة الفلاح الثانوية بجدة حتى عام ١٣٩٧ من الهجرة (١٩٧٧ من الميلاد) .

○ التحق بالبنك الإسلامى للتنمية في جدة منذ عام ١٣٩٧ من الهجرة ، ومازال في عمله حتى تاريخ صدور هذا الكتاب في عام ١٤٠٧ من الهجرة ١٩٨٦ من الميلاد .

○ اشتغل بالخطابة وهو طالب في مساجد قريته ثم في القاهرة .

○ قدم أحاديث عبر إذاعة المملكة العربية السعودية على مدى الستَّ عشْرَةَ سنةً الأخيرة .

○ عضو « هيئة التوعية الإسلامية في الحج » منذ عام ١٣٩٢ من الهجرة ١٩٧٢ من الميلاد .

○ وفي جـدة اشتغل بالخطابة في مسجد عكاش بسوق قابل لفترة محدودة ، وفي مسجد الجمجوم بالبغدادية ، ثم في مسجد المغربي بالرويس ، ومسجد أبو بكر الصديق بشارع المكرونة

نشرت له بعض المجلات والصحف مقالات متعددة ، وأعدّ صفحة « دعوة الحق » في صحيفة البلاد ـــ ومقرها جدّة ـــ لسنوات عديدة .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

دعاء :

○ اللّهُمَّ آتِ نَفْسي تَقْوَاها وَزَكِّها أنتَ خيرُ مَنْ زكَّاهَا أنتَ وليُّها ومَوْلاهَا .

○ اللهُمّ عَلِّمْني مَايَنْفَعُني وانْفَعْني بِما عَلَّمتَني وَزِدْني عِلْمًا ، ياحيُّ ياقيُّوم ، ياذا الجَلالِ والإكرام .

○ والحمد لله ربِّ العالمين ، وصَلَّىٰ اللّهُ وسَلَّم علىٰ النبيِّ الأمين محمدِ بنِ عبدِ الله خاتمِ النبيّين والمرْسَلين وعلى جميع الأنبياءِ والمرسلين .

أحمد بن محمد طاحون
جــدة في عام ١٤٠٦ من الهجرة ١٩٨٦ من الميلاد

تم بحمــــد الله وتوفيقه طبــاعة هذا الكتاب « الطبعة الأولى » في مطابع « دار المطبوعات الحديثة » بمدينة جــدة ـــ المملكة العربية السعودية في عام سبعة بعد الأربعمائة والألف من الهجرة النبوية الشريفة الموافق سنة ســتٍّ وثمانين بعد التسعمائة والألف من الميلاد .

ويسرني أن أشكر الجهاز الفني للمطبعة على الجهد القيم الذي بذلوه في إخراج هذا الكتاب .

المؤلف